42

حراء

عدد خاص

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول   www.hiramagazine.com   السنة التاسعة / (مايو - يونيو) ٢٠١٤

الأستاذ فتح الله كولن: "عاهدتُ نفسي أن لا أقاطع أحدًا، ولا أحمل ضغينة في قلبي لأحد.. وها نحن نعلن للعالم أجمع، أننا متسامحون في حقوقنا الشخصية، فقد أحللنا جميع حقوقنا".

(صفحة: ١٠٩)

* * *

٢ أين أنت؟! — **فتح الله كولن**

٥ اعتذار إلى محمد فتح الله كولن — **أ.د. عبد القادر الإدريسي**

٨٥ العبادة التنفيذية وقرآنية "الخدمة" — **أ.د. سليمان عشراتي**

صدقًا ووفاء

مجلة حراء تُطلّ في عددها الخاص هذا على شخصية فريدة ومشروع حضاري متميز استطاع أن يخرج من شرنقة التنظير الفكري إلى مجال الواقع العملي حيث تراه الأعين وتلمسه الأيدي وتتفاعل معه القلوب. إنه الأستاذ فتح الله كولن الذي يعرفه قراء حراء جيدًا من خلال المقال الرئيس الذي يأتي متوّجًا لكل عدد من أعدادها؛ ونموذج "الخدمة" الذي انبثق تجليًا واقعيًّا لأفكار الأستاذ وجهود مئات الآلاف من المتطوعين، الذين تعلقت قلوبهم برؤيته ذات العمق الإيماني الإنساني الحضاري.

ولا ننسى فضل الأستاذ على مجلة حراء... فهو الذي سماها "حراء"، وهو الذي أطلق أشرعتها لتبحر نحو العالم العربي والإسلامي بحثًا عن أصحاب الهمّ والهمة والحكمة. حراء اليوم بفضل تحفيزات الأستاذ، منتدى واسع غني للفكر الإصلاحي الفعّال.

لقد كثر اللغط والصخب في تركيا في الآونة الأخيرة وتضببت فيها الأجواء حتى كادت الحقيقة تضيع وسط هذه الضوضاء وتلك الضبابية، وكثرت الأسئلة وازداد التطلع في العالم العربي لمعرفة أفكار الأستاذ ونموذجه الإصلاحي، وجاء الطلبُ تلو الآخر بإلحاح لكي نخرج عددًا خاصًّا يرسم للقارئ العربي أهم ملامح أفكار الأستاذ ومشروعه الحضاري. وعندما دعت حراء كتابها ليسهموا معها في القيام بهذه المهمة، لبّوا مسرعين وتقاطرت على المجلة مقالات كثيرة، صعُب معها اختيار الأفضل من بينها، فقد كانت جميعها في غاية الروعة والعمق. فقرر القائمون على المجلة أن يزيدوا من عدد صفحات هذا العدد ويتركوا المقالات المتبقية إلى سانحة أخرى.

فهذا العدد عدد وفاء من مجلة حراء لوالدها الروحي، وهذه الأقلام الحرّة المنصفة وقد جاءت من مسافات بعيدة والتقت هنا على صفحات "حراء"، أبَتْ إلا أن تقول "كلمة الحق"، وتشهد شهادة العدل بحق "فتح الله كولن" المفكر الإسلامي الكبير. وهم إذْ يقولون فيه ما يقولون، إنما يفعلون ذلك عن دراية بالرجل، ودراية بأفكاره وآرائه ومشروعه الإصلاحي الخدمي الكبير... هذا المشروع الذي أُعجبوا به وتدارسوه وناقشوه وكتبوا فيه المقالات، وألّفوا الكتب والأبحاث... فقولهم فيه هو حصيلة دراسات مُعَمَّقة لأصول جذوره الفكرية والروحية. فتأتي شهاداتهم عن رؤية معرفية بالرجل وإعجاب به، وإدراك لمراميه واستشرافاته الإيمانية والحضارية... وهم إذْ يفعلون ذلك إنما يفعلونه إنصافًا لشرف الفكر ولشرف الكلمة التي يؤمنون بها وينزلونها من أنفسهم المكان الأسمى والأرفع، وينافحون عنها بكل ما يستطيعون... فإهانة الفكر والمفكرين -في أي مكان من العالم- إنما هي إهانة لكل مفكر وصاحب فكر... فانتصارهم لـ"فتح الله كولن" وقول الحقيقة فيه وفي فكره، إنما هو إنصاف لكل مفكر وصاحب فكر. وهذه ليست قضية فرد أو أفراد، إنما هي قضية تخصّ الجنس البشري عمومًا، وتخص وجدانه المتعطش لكلمة "الحق"، وقضية الفراغ الأخلاقي المفجع الذي يهدد المفكرين ويمطرهم بسهام مسمومة من النقائص، لكي يسيء سمعتهم ويباعد بينهم وبين شعوبهم وأممهم... ويوم تحرم هذه الشعوب من أفكار عظمائها، فإنها توشك أن تقع في فوضوية عمياء لا أول لها ولا آخر.

ولا يسعنا في هذه العجالة إلا أن نحيّي شاكرين أصحاب هذه الأقلام الحرة المنصفة وقد تداعوا من كل مكان ليقولوا كلمة الحق، في رجل كانوا قد عرفوه وخبروه وأعجبوا بتجربته الإصلاحية وخدماته التربوية.

عدد خاص - المحتويات

أين أنت؟! / فتح الله كولن (المقال الرئيس) ٢

اعتذار إلى محمد فتح الله كولن / عبد القادر الإدريسي ٥

الأستاذ فتح الله كولن عالِمًا عارفًا حكيمًا / محمد أنس أركْنَه ١٠

"الخدمة" في خدمة عالمية الإسلام / أ.د. إبراهيم البيومي غانم ١٨

نموذج الخدمة مثال راشد للمجتمع المدني / أ.د. عبد المجيد بوشبكة ٢٤

رائد الخدمة في معية رواد الفكر والتجديد / أ.د. حسن مكي ٢٩

صورة قلمية لسراج الزمن فتح الله كولن / أ.د. فؤاد البنا ٣٢

روّاد الإصلاح والتجديد.. فتح الله كولن الْمَعلَم والمثال / أديب إبراهيم الدباغ ٣٧

فتح الله كولن عالِمٌ أَسَّس لفكر حضاري / د. عبد الإله بن مصباح ٤٠

الأستاذ فتح الله كولن ومشروع تحريك الهمم نحو القمم / أ.د. سعيد شبار ٤٤

مشروع الخدمة من عين الواقع / أ.د. محمد خروبات ٤٨

زهرة اللاّله.. الخدمة "من ذاق عرف" / أ.د. يحيى وزيري ٥٤

التغيير الناجح.. لمحات من المنجز في رؤية الأستاذ فتح الله كولن / د. محمد جكيب ٥٧

نموذج الرشد.. النموذج الحضاريُّ البديل / د. محمد باباعمي ٦٦

"هُوجَا أفندي" السيد الأستاذ أو حين تصوغ التربية نموذجًا مجتمعيًّا / د. سمير بودينار ٧٥

مداخل الإصلاح في العالم الإسلامي وتحدياته / د. أحمد قعلول ٨٠

العبادة التنفيذية وقرآنية "الخدمة" / أ.د. سليمان عشراتي ٨٥

كيف نبني حضارتنا بقيم تدبير الاختلاف / أ.د. خالد الصمدي ١٠١

المفكر فتح الله كولن من هندسة الأفكار إلى التخطيط الإستراتيجي / د. مريم آيت أحمد ١٠٦

سنواصل الخدمة قُدُمًا، إكرامًا لأُمَّتنا وإكرامًا للإنسانية / (حوار مع الأستاذ فتح الله كولن) ١٠٩

أين أنت؟!

يا بطلاً طال الشوق للقياه سنين وسنين.. أين أنت؟ أين أنت يا زاجل خيالنا وطائر أحلامنا؟! أين أنت يا بشير انبعاثنا من رقدتنا؟! لقد ترقّبناك دومًا في أيام الألم المديدة، وفي ليالي الأرق الطويلة، ولا زلنا نترقّب... كم من مرة تبدّى لنا في الأفق البعيد خيال توهمناه إياك، فخرجنا لِلُقياه مردّدين نشيد "ثنية الوداع"... كم من مرة حتى الغروب انتظرناك... ولما عدنا إلى بيوتنا منكسري الخاطر، مطأطِئي الرأس لم نجد السلوان إلا في خيالاتنا التي طرّزناها بأزهار الزنبق... في كل يوم يهب نسيم الحزن والأسى على أرواحنا فيسحقها... في كل يوم يشمت بنا الأعداء ويتصايحون هازئين: لا... لن يجيء من تنتظرون... لن يأتي إليكم بطلكم... ذلكم الذي يملك أنفاس المسيح وعضلات هرقل، أبدًا لن يأتي!

أين أنت؟.. ومتى ستأتي؟.. متى ستأتي أيها الفارس الأسطوري... متى؟.. فوالله لقد أوشكت هذه الأرواح المحتضَرة، والقلوب الضامرة المهترئة أن تنطفئ شمعةُ حياتها... فإن لم تسرع بأنفاسك الطاهرة التي تبعث الحياة في الأرواح فلن تبقى زهرة نيلوفر واحدة في بحيراتنا التي أصابها الجفاف، وأحواضنا التي انحسر عنها الماء. لقد مضت عصور على رحيل البستاني وتصحُّر البستان. ومنذ اليوم الذي أعرضت فيه الأرضُ عن السماء، وأقلعت السماءُ فلم ترسل إلى الأرض قَطرًا... منذ ذلك اليوم تحولت الأرض إلى قفار يابسة... وبتنا في هذه القفار نتفقدك في كل قافلة، نتفقدك وكأننا نبحث عن قميص يوسف، ثم عدنا بصبر جميل ننتظر فجرًا جديدًا.

وكم من مرة -عندما لفّنا الصمت، وضربت علينا الوحدة قبابها- حسبنا البُغاث نسرًا، وظننا المقعدين المشلولين الإسكندر الأكبر فصفّقنا لهم... لم تبق قافلة لم نركض وراءها... ولكنك لم تكن في أيّ منها... كم من ذي قامة مبسوطة صادفناه ليس لديه فكر ولو بقدر أنملة... وليس لديه إرادة لإشعال شمعة... أرواحهم كانت سوداء معتِمة، وأفكارهم كانت خربة، ونظراتهم كانت قاصرة، وعباراتهم كانت عارية... لم نجد لديهم ما كنا نأمله في بطلنا من نظرة ثاقبة، ونفس مكابِدة، وحماسة لاهبة، وبسمة رقراقة.

لقد تحول الزمان بنا إلى المحرّم، وغدا المكان جميعه كربلاء. فراحت نفوسنا تتأوه بآهات الحسين... أنظارنا مشرئبة نحو آفاق خيّم الظلام عليها تَرقُّب قدومك ارتقاب الهلال... نتخيلك في كل وجه، ونستبشر قدومك مع كل صيحة... كلنا شوق إليك...

يا بطلاً طال الشوق للقياه سنين وسنين.. أين أنت؟ أين أنت يا زاجل خيالنا وطائر أحلامنا؟! أين أنت يا بشير انبعاثنا من رقدتنا؟! لقد ترقّبناك دومًا في أيام الألم المديدة، وفي ليالي الأرق الطويلة، ولا زلنا نترقّب.

حراء

كلنا ظمأ لك... كلنا لهفة عليك.

عرفناك مخلصًا وفيًّا محتسبًا واعيًا بصيرًا كفؤًا ماهرًا. لم يَر ضيما من آوى إلى رحابك. أصبحتَ لحن الصدق ورمز الإخلاص. قاسمتَ من أعطيتَهم قلبَك بكاءهم وابتساماتهم، آمالهم وتأوهاتهم، فرحهم وأتراحهم. لم تستطع الدنيا أن تتصيّدك أو أن تكون قيدًا لروحك السابحة في أجواء السماء. محضَ وفاء وإخلاص كنتَ.

عندما حملتَ على عاتقك عبئًا تنوء بحمله الجبال، كنت مدركًا لطبيعة مهمتك، عازمًا على المضيّ فيها قُدُمًا. فلم يُهن من رباطة جأشك صعوبةُ المرتقى في تلك الشعاب، ولم يُضعف من عزيمتك اجتياز الوديان الملتهبة الحارقة أو يثبّط من همتك، كلا، ولم ينل ذلك كله من وفائك... لقد دلفتَ إلى هذا الطريق، وسرتَ فيه سير العاشق الولهان لا تفتأ تُردّد: "سلكنا دروب الحب... لا نبتغي شرفًا هناك ولا غرورًا".

أتذكُر يوم وضعوا حياتك في كفّة وشوكةً يشاك بها خليلُك في كفة، وخيّروك بينهما، فجُنّ جنونُك وثُرتَ وعددتَ نفسك جاحدًا وغير وفيّ لو كان لك ألفُ روح ولم تفدها جميعًا لقاء شعرة واحدة في سالفته؟.. أين أنت يا خُبيب؟!

وفي مشهد آخر قطعوا جناحيك وطرحوك أرضًا كشجرة قُضّبت فروعها... لم يبق سوى رأسك الملطخ بالدماء القانية فوق كتفيك... كنت تريد أن تخفي ذلك الرأس العزيز الذي يستحق أن تقف حوريات الجنة له احترامًا وإجلالاً. أوَ تذكر ماذا كان حالك يردّد؟ "جاحدٌ وغير وفيّ أنا، إن لم أذُد عنه كل أذى ما دام رأسي فوق كتفي"... أين أنت يا مُصعب؟!

أوَ تذكر يوم جررتَ الجيوش خلفك وحلّقت بهم بعيدًا؟.. كنت منطلقًا متوثبًا، لا تحدك الحدود ولا تقيدك القيود... كنت لهيبًا متقدًا... وطوفانًا هادرًا...

كنت تريد أن تستلم الأرض من مشرقها إلى مغربها بقفزة واحدة وتسلمها إلى قائدك الأعظم ﷺ. فوصلتَ بسرعة لا تُدانى مع أبطالك إلى أرض المجوس... ثم أرسلت زئيرك المدوّي الذي زلزل القلوب، فانهارت مدن كسرى أمامك واحدة تلوى الأخرى وباتت أثرًا بعد عين. ثم رفعت صولجانك وهويتَ به على رأس بيزنطة، ففتحت بذلك طريقًا إلى القسطنطينية ومهّدت السبيل للفاتح التركي الشاب الذي سيأتي بعدك بقرون. من كنتَ؟ أكنت الخَضِر يا ترى؟! تفتحت الورود في الطريق الذي مشيت فيه، وانقلبت الخرائب مدنًا عامرة... كان الأعداء والأصدقاء يؤمنون بأن سيفك نزل من السماء، وكانت الجيوش ترى أنك مَلَك مكلف بإصلاح الإنسانية. وفي أوج انتصاراتك تلك، يأتيك نبأ عزلك ممن كنت تتوقع منه ثناء ومديحًا. لكنك استصوبت ما قال: "إن الناس يَعزُون النصر إليك... بينما النصر من عند الله"، استصوبتَ ما قاله وانقدتَ لقراره. ثم واصلت سيرك في سبيل مبدئك العظيم تحت إمرة من كان قبلُ تابعًا لك... قل لي بربك... كيف استطعت تحمُّل كل هاتيكَ الأمور؟ ألم يكن لديك اعتزاز بنفسك أو إباء؟ آه يا فارسي الذي ظمئتُ إلى أنفاسه... أين أنت يا خالد؟!

في إحدى المرات مُنِعتَ من التحدث إلى أخيك... أخيك الذي لم تفارقه لحظة واحدة حتى ذلك اليوم... أخيك الذي كنت تقاتل معه جنبًا إلى جنب، وتجلس معه إلى مائدة واحدة... كان عليك ألا تكلمه... كان الأمر صادرًا من ديوان سام، وكنت عازمًا على الانقياد لهذا الأمر... قل لي بجاه من عشقتَه كل ذلك العشق!.. قل لي: أقلت له غير كلمة "لا أدري"؟.. أيّ ولاء هذا؟! وأيّ وفاء ذاك؟! وأيّ إرادة؟! أين أنت يا أبا قَتادة؟![1]

أتذكُر يوم كنت تمشي أمام شيخك، فطفر بعض الوحل من قدم حصانه فأصاب جبّتك المغسولة بالعطر؟ كنت آنذاك سلطانًا عظيمًا وحاكمًا كبيرًا يرى الدنيا لا تسع سلطانين... كنت حاكمًا يقف على بابه فُرس إيران ويخدمه مماليك مصر... كانت الأُسود ترتجف رعبًا من براثن سطوتك... فماذا فعلت آنذاك؟.. لقد أوصيت أن تُلَفّ تلك الجبة الملطخة بالوحل حول نعشك... من أنت؟.. أصوفي أم درويش؟ أم مَلَك يمشي على الأرض؟.. أيها الأسد الهصور أين أنت؟![2]

إن عينيّ تترقبان طريق قدومك، ولساني يترنم بأناشيد دعوتك، وأنا بينهما حاولت أن أعالج أوتار قلبي بريشتي المكسورة، ولكن هيهات!.. فلقد عجزت أن أكون ترجمانًا لأصغر سر من هذا اللغز. فردّدت مع الشاعر:

أهاجت مشاعري نغمةٌ *** حتى عجزتُ عن ترنيمها

أعيُننا تسمّرت على الطريق الذي جئتَ منه لأول مرة. مضت سنون وسنون عكفنا فيها ننمّي في قلوبنا أمل عودتك من جديد، ونتسلّى بخيال محيّاك. بهذا الأمل وبهذا العزم سنظل نرتقب قدومك -إلى الأبد- عند مطلع كل فجر، ونسأل عنك كل قافلة. كن على يقين أن ما نعاني منه من إحباط ووحشة، ومن غلظة أعدائنا وشراستهم، لا يمكن أن يحول بيننا وبين عشقنا لدربك وولهنا بك. قد ننخدع في هذا الدرب ألف مرة، وقد ننظم أبياتًا في مديح اليراعات ألف مرة، أو نشرب ماء التعميد على أنه إكسير الحياة، ولكننا -على نهج الرومي- لن نتوانى لحظة واحدة عن اقتلاع قلوبنا وإهدائها ولو مقابل أكاذيب تقال في سبيلك[3].

أيا بطل الأحلام الحلوة... يا فارسي المحبوب!.. في هذه الأيام السود التعسة التي يسعى فيها الرياء والشهرة وحب المنصب والجاه إلى تشويه آمالنا المشرقة... نرجوك، نرجوك ألا تترك القلوب الظامئة إلى إكسيرك الباعث للحياة تعاني مزيدًا من شقاء الانتظار. ■

(*) الترجمة عن التركية: هيئة تحرير المجلة. وهو مقال نشر في مجلة سيزنتي (Sızıntı) في تاريخ ١ مارس ١٩٨٠.

الهوامش

[1] يشير بذلك إلى قصة أبي قتادة مع كعب بن مالك، أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك ووردت قصتهم في سوة التوبة.

[2] المقصود هو السلطان سليم، أول خليفة عثماني. (المترجم)

[3] لما اشتد شوق جلال الدين الرومي وحنينه إلى صديقه شمس، جاءه رجل يزعم أنه يحمل أخبارًا عن شمس، وراح يقص عليه حكايات لا أصل لها. ولما انتهى من حديثه خلع الرومي عباءته فرحًا وأهداها الرجل. فقالوا له: لقد كذب. فقال: أعلم، أهديته عباءتي مقابل كذبه عن شمس، ولو صدق لكنت أهديته روحي. (حراء)

hiramagazine.com

عبد القادر الإدريسي*

اعتذار إلى محمد فتح الله كولن

أعترف، بادئ ذي بدء، أنني لم أكن أعرف الأستاذ فتح الله كولن قبل ستّ أو سبع سنوات. فما سبق لي قط قبل ذلك أن وقعت على كتابٍ مِن كتبه، أو قرأت مقالاً من مقالاته، أو وقفت على اسمه في مصدر من المصادر، أو حتى سمعت عن اسمه في وقت من الأوقات. كانت مجلة "حراء" هي مصدر معرفتي بالأستاذ كولن، حين وصلني عدد من أعداد سنتها الأولى في أول عهدي بها، لأجد نفسي أمام كاتب من طراز راق، لم أتردد في أن أصفه يومئذ بأنه مفكر عالي المقام متميز لا عهد لي بمثيل له منذ أن امتدت الأسباب بيني وبين القراءة قبل قرابة خمسة عقود وإلى اليوم.

كانت قراءتي للمقال الافتتاحي في مجلة "حراء" نقطة البداية في اتصالي الفكري والروحي بالأستاذ كولن، حيث أضرم ذلك المقال في أعماقي شعلةً ما لبثت أن توهجت حتى أضاءت أقطار نفسي، فصرتُ أترقّب وصول مجلة "حراء" لأغذّي عقلي وأمتّع نفسي بقراءة مقاله. ثم طفقت أبحث عن مؤلفاته، فكان أول ما تعرفت عليه منها كتابه "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" الذي التهمتُه، حتى لا أقول قرأتُه، بل أحبّذ أن أقول إنني هضمتُه كما يهضم الجائع ما يقدَّم إليه على المائدة من أطايب الطعام. فقد نقلني هذا الكتاب الجميل العذب المذاق الرائق المشرب، نقلةً بعيدةً إلى الأجواء المعطرة بأريج النبوة، وكأنني حديث عهد

لقد أيقنتُ أن القدَر قد ادّخر فتحَ الله كولن، المصلح المجدّد للفكر الباني للنهضة، ليقوم بما يحتاج إليه المجتمع من نفخٍ في روح العمل، ومن حفزٍ للهمم، ومن إنهاضٍ للأمّة، ومن إنقاذٍ لروحها، ومن دفعٍ بها إلى الأمام.

بالقراءة في السيرة النبوية الشريفة، وكأن العشرات من المؤلفات في السيرة التي صنفها القدامى من علماء الأمة والمحدثون والمعاصرون التي قرأتُها، لم تكشف لي الحجب عن حياة رسول الله ﷺ. لقد وجدت في ذلك الكتاب ما لم أجده في سيرة ابن هشام، وفي الروض الأنف للسهيلي، وفي الشمائل للترمذي، وفي السيرة الحلبية لنور الدين الحلبي، وفي عشرات الكتب حول السيرة التي دوَّن عناوينها الدكتور صلاح الدين المنجد في "معجم ما أُلّف عن رسول الله ﷺ" الذي صدر في مجلد كبير. وليس في ذلك انتقاصٌ من القيمة العلمية لهذه النفائس من المصنفات، وإنما لجدّة المنهج الذي اعتمده الأستاذ كولن وتميّز به، وللروح الشفافة المجنحة التي تطبع هذا الكتاب، ولجمعه في إهاب واحد بين حرارة الإيمان وعمق الفكرة والغوص في بحار المعاني السامية لاستخراج اللآلئ ولاستخلاص الدروس، وبين جمال العرض وإحكام السبك مع إشراق اللغة التي أجاد الأستاذ أورخان محمد علي ترجمتها إلى عربية رائقة رائعة رفيعة. بسبب ذلك ازداد يقيني في أن الأستاذ كولن نسيج وحده حقيقةً لا مجازًا، وأن كتابته عن "النور الخالد مفخرة الإنسانية ﷺ"، نمطٌ فريدٌ يثير الاهتمام، ويستحق التقدير، ويستدعي متابعة ما يخطه يراع صاحبه من كتابات.

وكذلك كان شأني -ولا يزال- مع مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن، فقد أدركتُ مع مواصلة القراءة فيها، والتعمق في فهم الرسالة التي يحملها والبلاغ الذي يُوصله من خلالها إلى القارئ، أن هذا المفكّر ليس كغيره من المفكرين، وأن المهمة المشرّفة والرسالة المشرقة اللتين نذر حياته لهما ويضطلع بهما، تعلو قيمتهما وتشمخ ذروتهما إلى القمة، وأنهما ليستا من قبيل المهامّ الفكرية والرسالات الثقافية التي يقوم بها ويتحمّل أعباءها جمهرة من العلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين والمجددين على تعاقب الأزمان. وأيقنتُ بسبب من ذلك كله، أن القدَر قد ادّخر هذا المصلح المجدّد للفكر الباني للنهضة، ليقوم بما يحتاج إليه المجتمع من نفخٍ في روح العمل، ومن حفزٍ للهمم، ومن إنهاضٍ للأمّة، ومن إنقاذٍ لروحها، ومن دفعٍ بها إلى الأمام.

جاءت صلتي الأولى بالأستاذ محمد فتح الله كولن بعد سنوات قليلة من صلتي بالأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، الذي بدأتُ قراءتي لكتاباته في العقد السابع من القرن الماضي، حين وقع بين يدي كتيب نشر في دمشق، يضم بعضًا من رسائل النور التي ترجمها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وقبل فترة طويلة من قراءتي للترجمة الوافية التي كتبها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي للمصلح المجدّد الأستاذ النورسي. ثم مضت سنوات قبل أن تتيسّر لي الأسباب لقراءة كليات رسائل النور التي ترجمها الأستاذ الصالحي، التي وقع في يدي منها في بادئ الأمر، مجلد واحد، قرأتُه وتعمّقت في فهمه حتى أحسبني أنني تشرّبت روح الكاتب. ثم بحثتُ عن المجلدات الأخرى حتى توفّرت عندي المجموعة الكاملة، فتفرّغت لقراءتها، وأقبلتُ على دراستها، ولم تفارقني كليات رسائل النور منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، أحتفظ بها في غرفة النوم بحيث تكون في متناول اليد، وليس في غرفة المكتبة، أعود بين الفينة والأخرى إلى القراءة فيها، والاستزادة من الاغتراف من مناهلها العذبة، فأشعر بالانتعاش في الروح، وبالسكينة في النفس، وبالطمأنينة في القلب.

وبذلك أكون قد جمعت بين الحسنيين وفزت بالفضلين والحمد لله؛ رسائل سعيد النورسي ومؤلفات فتح الله كولن. وقد وصلت بعد الدراسة المعمقة لفكر الرجلين القدوتين، ودوام القراءة في كتاباتهما، أنهما يحملان رسالة واحدة ويتكاملان في الفكر والتوجّه والمقصد الشريف؛ فالأول هو المؤسّس الرائد لخدمة الإيمان والقرآن والنافخ في روح الأمة، والثاني هو

hiramagazine.com

باني النهضة والمفكر ذو الرؤية الشفافة والبصيرة النافذة ومترجم أفكار الأول إلى أفعال تنفيذية وأعمال تطبيقية، على الرغم من أنه لم يجمع بينهما لقاء الجسد، ولكن ربط بينهما ائتلاف الروح، ووشائج الإيمان، والعزيمة المتأججة القوية لإنقاذ المجتمع من مهاوي الضلال والضياع والتيه، ولبناء الإنسان العارف لربه القادر على المشاركة في تطوير الحياة، وللنهوض بالوطن القوي المتماسك الطامح إلى المعالي.

لقد أدركت عن وعي وبعد دراسة متعمقة، أن مكانة الأستاذ محمد فتح الله كولن من بين المفكرين المستنيرين المجدّدين في العالم الإسلامي، بصورة إجمالية، دونها أيّ مكانة يتبوأها مفكر ينتمي إلى المدرسة الإسلامية، شارك في إغناء الحياة العقلية وفي إنتاج منظومة الأفكار الإحيائية، وفي إنشاء المدارس التجديدية، وفي تأسيس الحركات الإصلاحية؛ فمنذ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وحسين الجسر، ومحمد رشيد رضا، إلى حسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، والطاهر بن عاشور، والبشير الإبراهيمي، وعبد العزيز الثعالبي، وأبي الحسن عليّ الندوي، وأبي الأعلى المودودي، وعلال الفاسي، وعبد الله كنون، مرورًا بمحمود شلتوت، ومحمد مصطفى المراغي، ومحمد حسين الخضر وغيرهم من هذه الكوكبة المضيئة والأعلام الشامخة، لم يعرف الفكر الإسلامي تلك الهزة القوية الضخمة المجلجلة والمزلزلة التي عرفها عند محمد فتح الله كولن، والتي أحدثت هذه الحركة الفوّارة بالحياة الدافقة بالعطاء والدافعة إلى التغيير العميق الواسع الشامل هذا، وإلى تجديد البناء انطلاقًا من بناء الإنسان الصالح المصلح لنفسه ولإخوانه ولوطنه، والذي هو الأساس الصلب في تنمية المجتمعات من النواحي كافة.

إن الذي جمع بين تلك النخبة النابغة المتميزة، هو الاشتغال بالفكر، وبالعمل في حقول التربية والتعليم، وبالكفاح الوطني بالنسبة لبعض منها، حيث اجتهدت وجاهدت وضحت وأبلت البلاء الحسن، كل من موقعه وحسب جهده واجتهاده وعطائه وتأثيره في محيطه،

إن فتح الله كولن يتميز عن باقي العلماء بالمنهج الذي اعتمده، وبالخطاب الذي استعمله، وبالوسائل التي استخدمها، وبالإنجازات التي حقّقها، وبالأبعاد التي وصل إليها، وبالآفاق التي انفتح عليها؛ بحيث أصبح العمل الذي ينهض به مثالاً عزيزَ النظير للعمل النافع الجادّ القائم على أساس الدين الحنيف.

ولكن أحدًا منهم لم يُحدث في محيطه الخاص وفي محيطه العام ببلده -بصورة عامة- وفي دوائر كثيرة خارج الوطن الذي ينتمي إليه، ما أحدثه محمد فتح الله كولن من تغيير واسع وعميق في الأفكار، وفي الرؤى، وفي المواقف الفردية والجماعية، وفي حركة المجتمع على شتى المستويات.

لقد كان هؤلاء المفكرون الرواد -وجميعُهم موضع احترام وتقدير عظيمين- يعملون في محيط لم يكن قد انفصل عن الجذور وتنكر نهائيًّا للأصول، على الرغم مما كانت تعرفه البلدان الذين ينتمون إليها من ظروف الاحتلال الأجنبي الذي فرض ثقافته ولغته وسياسته على الشعوب العربية التي كانت رازحةً تحت وطأته، مما جعل هؤلاء المفكرين والدعاة والمصلحين وقادة الرأي والزعماء السياسيين، يصرفون اهتمامهم للدعوة الإصلاحية، وللعمل الفكري لتنوير العقول، ولبث الحمية وإيقاظ الهمة في النفوس. وكان عملهم في هذا المجال الحيوي، عظيم النفع والفائدة يُحمد لهم. وهو المجال الذي يلتقون فيه مع محمد فتح الله كولن، إذا نظرنا إلى الموضوع من الزاوية الفكرية؛ أما إذا تجاوزنا ذلك كله إلى ما هو أشمل مجالاً وأرحب أفقًا وأعمق تأثيرًا، فإننا سنجد أن كولن يتميز عنهم جميعًا دون استثناء، لأن المحيط الذي عمل فيه أول عهده بالحركة في مضمار التوعية الدينية والتوجيه الفكري، كانت طبيعته تختلف كليًّا عما عرفته البلدان العربية جميعًا، وذلك نتيجةً للسياسة التغريبية الكاسحة التي سادت تركيا، والتي تركزت على إفساد روح الشعب، واغتصاب هويته، واقتلاع جذور أصالته، مما جعل المهمة التي تصدّى لها فتح الله كولن بالغة الصعوبة

hiramagazine.com

محفوفة بالمخاطر، لأنها بطبيعتها مواجهةٌ مع تحديات تفوق في ضراوتها وشراستها وعنفوانها ما عرفه العرب والمسلمون جميعًا في شتى أقطار الأرض خلال القرنين الماضيين من تحديات، وواجهوه من صعوبات، وعاشوه من محن، مما كان يقتضي تجديد البناء من الأساس، وتجاوز الأقوال إلى الأفعال، والانتقال من التنظير الفكري إلى التطبيق العملي، بما يتطلبه ذلك من ربط الفكر المجدِّد بالعمل المسدَّد الذي يشارك الناس في إنجازه لمصلحتهم التي يسعون إليها.

وليس معنى ذلك أن كولن يفضُل مَن سبقه ومن عاصره من النواحي الفكرية والملكات العقلية والقدرات النفسية، فلسنا نزكي على الله أحدًا، ولكن القصد هو أنه يتميز عنهم -حتى لا أقول يفضُلهم- بالمنهج الذي اعتمده، وبالخطاب الذي استعمله، وبالوسائل التي استخدمها، وبالإنجازات التي حقّقها، وبالأبعاد التي وصل إليها، وبالآفاق التي انفتح عليها، بحيث أصبح العمل الذي ينهض به -ولا يزال، بارك الله في عمره- مثالاً عزيزَ النظير للعمل النافع الجادّ القائم على أساس الدين الحنيف، والفهم السليم لمقاصده، والإدراك الواعي لمقتضيات التطور، والتكيّف المتوازن مع المتغيرات، والانتهاج للسبل القويمة والمأمونة لبلوغ الغايات النبيلة التي تخدم المجتمع، وترتقي بالإنسان، وتصنع الحضارة.

فمن المزايا التي ينفرد بها الأستاذ محمد فتح الله كولن، أنه يمتلك شروط التفكير الحركي، لا بالمفهوم التنظيمي السائد المتداول، ولكن بالمفهوم الحضاري الراقي. فهو مفكر حركي بهذا المفهوم، فكرُه منتج، وحركتُه فاعلة ومؤثرة في الواقع المعيش، لا في الواقع الافتراضي، لأنه واقعيٌّ في تفكيره، وموضوعيٌّ في رؤيته إلى الأمور، وطبيعيٌّ في تعامله مع مَن وما حوله. وتلك درجة رفيعة ارتقى بها كولن إلى مصاف القادة الفكريين المجددين المصلحين المربّين للناس الناهضين بأحوالهم العاملين على تطوير أوضاعهم نحو الأفضل والأكرم.

إن تلك هي القواعد التي تقوم عليها حركة "الخدمة" التي تعدُّ بكل المقاييس نموذجًا فريدًا في التنمية الذاتية الجامعة المتعددة المجالات على صعيد العالم الإسلامي، إن لم يكن على الصعيد الدولي، للحركة المجتمعية المتكاملة والفاعلة والمتفاعلة والمبدعة للحلول التي تعالج مشكلات المجتمع والمنتجة للمنافع التي تفيد الناس في دنياهم وأخراهم، والتي تعتمد أساسًا على بناء الفرد وتربية الجماعة وتزكيتها، وبث روح التطوع والتنافس في البذل والعطاء والتسابق في أعمال الخير، وتقوية الانتماء إلى الوطن والعمل على ترقيته ونمائه وازدهاره.

إن واعظًا دينيًا موظَّفًا في الحكومة، يبدأ حياته العملية بداية جد متواضعة، ويواظب على تطوير نفسه بهمّة عالية وعزيمة قوية، ويستطيع أن يغيّر في محيطه وفي بيئته على هذا النحو الذي أحدث حركة غير مسبوقة تجاوب معها البسطاء، ووثق فيها القادرون على العطاء، حتى استوت على عودها، ونمت وترعْرعت انطلاقًا من المدرسة المتواضعة ولكنها المتميزة، التي ما لبثت أن أصبحت نموذجًا راقيًا للتربية البانية والتعليم المنتج، فتشعّبت وامتدّت فروعها ودنت قطوفها. إن هذا الواعظ الديني الذي بدأ حياته موظفًا في سلك الوعاظ الدينيين التقليديين، الذي نجح في تغيير المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يقلب موازين القوى الفكرية والاجتماعية في بلاده، لهو مثالٌ نادر للرجل القوي بإيمانه، والقوي بفكره، والقوي بالعمل الذي نهض به، والقوي بالقلوب التي التفَّت حوله والتي دانت له بالمحبة وبالإخلاص وبالثقة، حتى استطاع أصحابها أن يحققوا من الإنجازات القائمة في الأرض -وليست المتوهمة والمتخيلة- تحت قيادته الروحية وريادته الفكرية، ما جعل من جماعة الخدمة أرقى الجماعات القوية المتماسكة التي يجمع بينها حبّ الإسلام، وحب الخدمة لصالح الناس ولفائدة المجتمع، في غير ما جلبة أو ضوضاء، أو شعارات أو تنظيمات من قبيل ما نعرفه نحن في بلادنا العربية.

من أجل ذلك كان الأستاذ محمد فتح الله كولن نسيج وحده من بين جمهرة المفكرين والدعاة

hiramagazine.com

والمصلحين والمجددين والمشتغلين بالقضايا العامة التي تخدم مصالح الناس أجمعين.

في تقديمه للطبعة الجديدة لكتاب "المثنوي العربي النوري" للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، كتب الأستاذ محمد فتح الله كولن قائلاً: "لو أن بديع الزمان حظي بدعم بضع مئات من المثقّفين وهو ينشر رسائله في أرجاء البلاد، ووجد منهم سندًا لأفكاره، فلربّما كنا من أغنى الأمم وأكثرها مدنية، ومن أقدرها على حل المشاكل التي تتعرّض لها، ولكنا دخلنا المرحلة الحالية منذ ذلك الوقت (أي منذ بداية القرن العشرين) ولما جابهتْنا المشاكل الحالية العديدة. ومع كل هذا فنحن نحمل أملاً كبيرًا، لأننا نرى أن الذين ينظرون إلى أمّتنا وكأنها فقدت كل جذورها المعنوية، هم على خطإ كبير... صحيح أننا تأخّرنا مثل غيرنا من الأمم الأخرى وضعُفنا، فليس في وسع أحد إنكار هذا، ولكن ليس في وسع أحد أيضًا أن ينفي قدرتنا على النهوض ومتابعة التقدم مرة ثانية... فلقد بدت أنوار اليقظة والانتباه والحيوية تلتمع في أرواحنا كأمّة بدلاً من روح الكسل والخمود؛ إذ بدأ دفء الحياة ونبض النشاط والحيوية يتسلّلان إلى أرواحنا. إذن فلا شك أن أيام الربيع المشرقة الخضراء على الأبواب".

إن ما لم يجده بديع الزمان سعيد النورسي أمامه، وجده فتح الله كولن متاحًا بين يديه، فهو الذي أوقد شعلة الأمل، وبث روح الحياة في الأرواح حتى صارت تركيا التي ترفرف على أرجائها رايات الخدمة، قبلة للمؤمنين المتطلّعين إلى الإصلاح على أساس الدين والمتشوقين إلى التقدم تحت راية الإيمان والقرآن.

ولأن الأستاذ محمد فتح الله كولن هو صاحب هذه الحركة الحضارية، فإنني أعتذر إليه، بسبب تقصيري في معرفته، وتأخيري في اللقاء الروحي والفكري به. ■

(*) مفكر وكاتب مغربي.

المراجع

(1) النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٦م.

(2) ونحن نقيم صرح الروح، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠.

شهادات

أ.د. خليل النحوي (موريتانيا):

إن الأستاذ محمد فتح الله كولن هو صورة أخرى من الصور التي تؤكد صدق النبوة.. الأستاذ محمد فتح الله كولن وارثٌ من ورثة النبي ﷺ، تلك الوراثة العظيمة التي تتمثل في العلم والعمل. أعتقد أن الأستاذ محمد فتح الله كولن، حقق الله به جانبًا عظيمًا من هذا الوعد النبوي الصادق بأن يبعث الله لهذه الأمة وأن يجدد لها دينها على رأس كل مئة عام، ولعل المقصود هو من حين لآخر ومن فترة إلى أخرى، أن يبعث لهذه الأمة من يجدد لها دينها. والأستاذ محمد فتح الله كولن، قدّم درسًا عظيمًا في وراثة رسول الله ﷺ.

د. سلمان العودة (السعودية)

فتح الله كولن صاحب سلوك إيماني، وتصوف صافٍ بعيدًا عن الغلو والانحراف.. صاحب فقه واهتمام بالفقه، صاحب عناية بالحديث.. وهو أيضًا أديب وشاعر ومثقف وفيلسوف ومفكر وواعظ.. نحن أمام تجربة فريدة لا توجد في العالم العربي، ربما، ولا حتى في أكثر بلاد العالم.

محمد أنس أرْكَنَه*

الأستاذ فتح الله كولن عالِمًا عارفًا حكيمًا

بادئ ذي بدء أود أن أنوه بأنه لن يكون من السهل الميسور تحليل شخصيةِ عالِم بمستوى الأستاذ فتح الله كولن في إطار مقال أو مقالين، لأن الأستاذ من الممثّلين لميراث علمي إسلامي عريق ظَلَّ مستمرًّا على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمن. وما لم يتم الكشف عن مدى الدور الديني والاجتماعي والثقافي الذي يضطلع به "نموذج العالِم" في المجتمع المسلم والتاريخ الإسلامي والثقافة والحضارة الإسلاميتين... ما لم يتم ذلك فلن يمكن رسم صورة كاملة لأي عالم نشأ في ظل هذا التراث المتراكم عبر العصور. ولهذا فإننا سنتطرق بإيجاز في عدد من الفقرات لنموذج العالم الذي كان له أكبر دور بارز في المجتمع الإسلامي بعد الرسول ﷺ.

الخلفية التاريخية

لا شك أن الإسلام ظهر على مسرح التاريخ وحيًا ودعوة. وفي وقت قصير أصبح محورَ كل الأنشطة الدينية والاجتماعية والبشرية للمجتمع الإسلامي الأول. وكان القرآن والرسول ﷺ أهم مقوّمين للمجتمع الإسلامي الأول، حيث إن المسلمين الأوائل حينما كانوا يعرِّفون بأنفسهم ما كانوا يحسون بالحاجة إلى أدوات ولا

مراجع علمية سوى هذين المصدرين. ولكن لما بدأت الفتوحات في الربع الأول من القرن الهجري الأول إلى شبه القارة الهندية واتسعت رقعة المجتمع المسلم، التقى المسلمون في هذه المناطق بتراث يرجع إلى مختلف الديانات والأعراق والفلسفات والثقافات القديمة.

ومع أن الأغلبية الساحقة من أهل تلك المناطق دخلوا الإسلام في وقت قصير، إلا أن أكثرهم ظلوا يحافظون على تصوراتهم الفلسفية والدينية والثقافية القديمة من خلال تكييفها مع الرؤية العقدية والأخلاقية لما اعتنقوه من الدين الجديد. وإلى جانب هؤلاء كان هناك أطراف ثقافية مهمة لم تهضم هذا الدين الجديد بأسسه الدينية والثقافية على الرغم من أنها كانت تبدو وكأنها انصاعت للقوة السياسية الإسلامية.

وكانت هذه البقايا الدينية-الثقافية تشكل تهديدًا وخطرًا كامنًا في المجتمع الإسلامي على المدى البعيد؛ لأنه لم يتحقق هناك تدافع عقدي وفلسفي كاف مع هذه البقايا الدينية-الفلسفية-الثقافية خلال موجات الفتح المتعاقبة. وكان هذا الخطر الداخلي أكبر دافع إلى تكوّن العلوم الإسلامية ونشأتها بشكل سريع في عصر التدوين. فقد بدأ المجتمع المسلم يحس بالحاجة إلى الأدوات والمرجعيات العلمية والعقدية والفلسفية والثقافية القوية، حتى يستطيع أن يعبر من خلالها عن نفسه وعن هويته العقدية ويدافعَ -في الوقت ذاته- عن القيم الإسلامية. وكانت العلوم الإسلامية هي الكفيلة بتلبية هذه الحاجة. فبدأت العلوم الإسلامية الأولى تتكون، وبذلك التكون برز على مسرح التاريخ في هذا السياق "نموذج العالِم" الذي يمكن أن نعتبره أقوى نموذج كارِيزمي -بعد الرسول ﷺ- له دور مؤثر وفاعل في تكون المجتمع الإسلامي وتاريخه وثقافته بل وحضارته.

ومن المعلوم أن نشأة "العالِم" في المجتمع الإسلامي لم تكن مجرد نشوء أملته الظروف المرحلية والعوامل الطارئة، بل كان الإسلام حائزًا على المقومات والدوافع الاجتماعية-الثقافية والدينية التي تكفي لتكوين تراث علمي مستقل أصيل.

إن "العالِم" هو الذي أعاد إنتاج الأمة وترتيب صفها وصياغة عقلها في الظروف المتجددة. ولذلك فإنه كان يجب على "العالِم" أن يكون ذا صلة قريبة بجميع مشاكل المجتمع المسلم. وهذه المهمةُ تقع على عاتقه باعتبارها مسؤولية معنوية ومجتمعية أكثر من كونها وظيفة رسمية.

ومع أن الإسلام بدأ وحيًا، إلا أنه أدّى في وقت قصير وبشكل سريع إلى نشوء نشاط علمي منهجي مكثف. فلم يعد الإسلام بالنسبة للأجيال التالية عبارة عن مجرد عقيدة وأداة دعوة، بل كان في الوقت نفسه تعبيرًا عن نظرة ممنهجة إلى العالم ورؤية ثقافية متكاملة. وبحلول عصر التدوين زاد عدد حلقات العلوم الإسلامية وأصبحت أكثر تنظيمًا. فتكونت من خلال هذه الحلقات أدوات فلسفية علمية عقدية ومنهجية من شأنها أن تحافظ على استمرارية الوحي الإسلامي ووحدته في مواجهة العناصر الثقافية-العقدية الداخلية التي تتحدى النظام العقدي والعلمي الإسلامي بشكل مبطن.

وكما هو معلوم، فإن أصحاب الدور الرئيسي في هذه الأنشطة المنظمة والعقولَ المدبرة لها، كانوا هم "العلماء" الذين تخصصوا في شتى المجالات. فكلما تطورت العلوم الإسلامية وتأصلت، استمر وتعزّز الدور الفعال والمكانة المؤثرة والحاسمة للعالِم في المجتمع الإسلامي. وأحسب أنني لن أكون مبالِغًا إن قلتُ إن أشدّ العقول المؤسِّسة والمنظِّمة للحضارة الإسلامية والرؤية العالمية الإسلامية وأكثرَها تأثيرًا بعد الرسول ﷺ هم "العلماء" ورثة الأنبياء.

دور العالِم في الحضارة الإسلامية

ليس من الممكن للإنسان أن يقوم بقراءة حقيقية للتاريخ الإسلامي، ما لم يفهم فهمًا حقيقيًّا مدى دور "العلماء" في تاريخ الإسلام وثقافته وحضارته. والقراءات المعاصرة للتاريخ يطغى عليها في الغالب أسلوب القراءة الكرونولوجية. ومنظور التاريخ الاجتماعي ليس من المجالات المتطورة لدينا. مع العلم بأنه في غياب

hiramagazine.com

القراءة من ذلك المنظور يتم قراءة التاريخ على أنه تاريخ الخلفاء والسلاطين والحرب والسلم.

والحال أنه ليس في التاريخ شخصية حظيت بالاحترام لدى المجتمعات المسلمة بقدر ما حظي به العلماء من حيث تأثيرهم على تكوين المجتمع الإسلامي. وإذا تسللتم إلى قلب الإسلام وشرايين المجتمع الإسلامي من منظور التاريخ الاجتماعي فإنكم ستجدون أن العالِم هو المؤثر والفاعل في داخل ذلك المجتمع. ومن هذا المنظور نستطيع القول بأن العالِم هو المنشئ لنظرة المسلمين إلى العالَم على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمن. وكلما عاش المجتمع الإسلامي حالة من الجمود والخمود الثقافي والسياسي والديني والاجتماعي، فإن "العالِم" هو الذي أعاد إنتاج الأمة وترتيب صفها وصياغة عقلها في الظروف المتجددة. ولذلك فإنه كان يجب على "العالِم" أن يكون ذا صلة قريبة بجميع مشاكل المجتمع المسلم. وهذه المهمةُ تقع على عاتقه باعتبارها مسؤولية معنوية ومجتمعية أكثر من كونها وظيفة رسمية.

ولا توجد في قراءات التاريخ الإسلامي والعثماني بحوث جادة حول الدور الديني والمجتمعي الذي اضطلعت به المؤسسات العلمية في المجتمع الإسلامي. نعم، هناك بحوث كثيرة منحصرة بالبحث في المقررات الدراسية التي كانت تدرس في المدارس التقليدية؛ إلا أن هذه البحوث لا ترصد بتاتًا -على مستوى كاف- مدى التأثير الأسلوبي والمنهجي لهذه الكتب المقررة على التحول الذهني والأخلاقي للمجتمع المسلم. فالمعلومات الموجودة في الوثائق الوقفية لكثير من المدارس تنحصر بالمناهج والكتب الدراسية، بل أكثرها متعلقة بالبنية التحتية.

ولم يتم -إلى الآن- الكشف -بنظر تحليلي- عن التحول الفكري والأخلاقي الذي أحدثه "العلماء" في المجتمع الإسلامي، بل إن أكثر الملفات التي تعرضت فيها المؤسسات العلمية القديمة للنقد الحقيقي من الناحية الفكرية والفلسفية هو الملف المتعلق بتوقف النشاط الاجتهادي. وهذا النقاش يجري في كل المواضع مستندًا إلى تعميمات تحار لها العقول. فمثلاً قد لا تجدون في الساحة كتابًا يركز بشكل حقيقي على كشف القيمة الفكرية لتراث كتابة الشروح على المتون.

ويبدو أن هذا النوع من المؤلفات والجهود الفكرية تمت إدانتها فكريًّا بفكر مسبق من خلال تصويرها على أنها نوع من ترداد المعلومات السابقة. ولكن الواقع أنه يمكن للقارئ لكثير من الشروح، أن يتلمس مدى قدرة العلماء على الاجتهاد والتجديد. ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أنه لا يمكن التوصل إلى هذه الحقيقة إلا من خلال الأطر المنهجية التي تم إنشاؤها في ضمن التراث. وأظن أنه لا داعي إلى القول بأن هذا الأمر منوط بالاطلاع الكامل على ذلك التراث.

فهم الإسلام من خلال مقوماته الداخلية

إن الأذهان في عصرنا الراهن قد استولت عليها الفلسفة الغربية. فكثير من الكتّاب الإسلاميين الذين يكتبون في إطار إحياء الحضارة الإسلامية ومن منظور رؤية حضارية إسلامية، يكثرون من مراجعة مصادر الفكر الغربي ويكتبون بخلفية حداثية للغاية. وكثير من المثقفين الإسلاميين الذين يقولون بأزمة الفكر الإسلامي يكادون يختزلون سبب تخلّف المسلمين في أزمة العقل المسلم. وهؤلاء إذ يجسّدون ادعاءاتهم ينطلقون من مناهج وأدوات غير كافية وغير منتظمة، وكأنهم ينطلقون من التفسيرات المستعجلة للتراث الإسلامي.

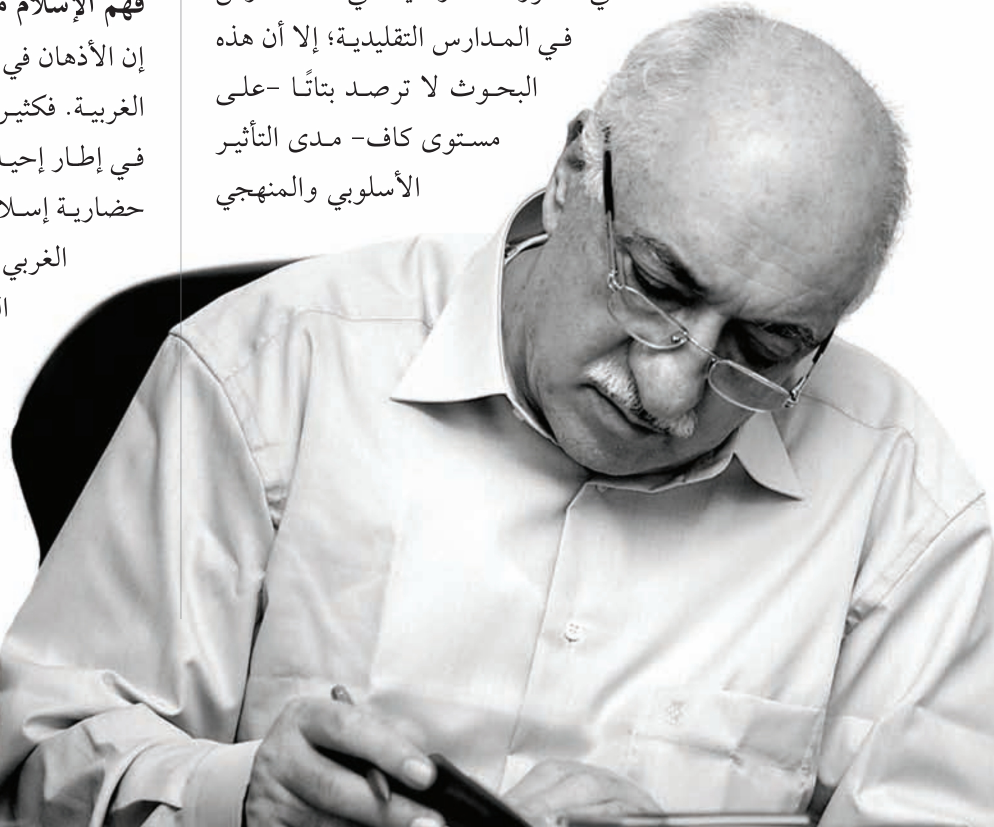

hiramagazine.com

وقلّما تجد من الباحثين من يرجع أثناء بحثه في هذا المجال إلى مصادر الثقافة الإسلامية. فهناك عدد قليل من الأكاديميين والباحثين الذين يبحثون عن إمكان إعادة إنتاج الفكر الإسلامي في ظروف المجتمع الحديث مع البقاء في الحدود المنهجية الخاصة للفكر الإسلامي، من دون أن يتطرقوا إلى المراجع الفكرية الغربية. فقد نفذ الغرب إلى عقل نخبتنا الإسلامية المعاصرة بحيث إنه زعزع فيها الثقة تجاه عالَمها الثقافي القديم، ومزق ما أنتجته حضارتها من الوحدة والاستمرارية في حياتها الفكرية والسُّوسْيو-الثقافية. فالأطر المعرفية للأفكار التي يتكرر الحديث عنها حول الرؤى الحضارية الجديدة، لا ترصد قطعًا الأطر المنهجية للتراث الإسلامي من الداخل، ولا تحاول الكشف عن السير التاريخي للعقل الإسلامي من المنظور الفقهي والكلامي والعرفاني، ولا تمتد يدها إلى التحليل والتساؤل عما إذا كانت هناك عوامل خارجية مهيمنة تتدخل في العقل الإسلامي والمعرفة الإسلامية سواء في مرحلة صناعة ذلك العقل والمعرفةِ أو بعدها؛ وإذا كانت هناك تلك العوامل الخارجية فما هي؟!

ولا يمكن الحديث عن أي نوع من الإحياء قبل الكشف بشكل ملموس عن الإمكانات المعرفية التي استقاها العقل الإسلامي من علم الأصول، وعن الطاقة التحويلية المكنونة في العقل الكلامي والعرفاني الذي أثر في الفرد المسلم والمجتمع المسلم. فـ"العالِم" هو الفاعل الرئيسي الذي نظم -على مدى التاريخ الإسلامي- الرؤية العالمية للمجتمع المسلم من خلال إنتاج جميع إمكانيات العقل المسلم، والأسس المعرفية لهذا العقل، والآليات التي تولد المفاهيم والأفكار. إضافة إلى أنه لا يتوقف عند حدود إنتاج هذه الأمور وتنظيمها، بل إنه فوق ذلك يدير ويرصد ويراقب مدى ما تحدثه من التغير على فكر المجتمع المسلم وأخلاقه. وليس هناك في هذا الصدد تأثير مباشر للدولة وسلطة الدولة على المجتمع. فحتى في الدولة الحديثة نرى أن المؤسسات الحكومية العامة تغلق أبوابها في الساعة الخامسة مساء. وأما باب العالِم فهو مفتوح أمام الشعب على مدار الساعة.

إن الأستاذ فتح الله كولن مثال حي لنموذج "العالِم" الأصيل الذي ظل على مر عصور عديدة ينظم "رؤية العالَم" لدى المجتمعات الإسلامية، فأحدث فيها تحولاً فكريًّا وثقافيًّا، ورصد كل هذه التحولات من حيث نتائجها الاجتماعية والأخلاقية. وهو بشخصيته العلمية والروحية الكاريزمية، وبأسلوب حياته البسيطة المتواضعة والزاهدة، يُعتبَر من أواخر حلقات التقاليد العلمية الإسلامية العريقة.

فالعالِم يعيش في شرايين المجتمع وأوردته النابضة. وهذا يعني أنه في العهود التي كان العالم فيها فاعلاً رئيسيًّا كانت العلوم الفقهية والكلامية والعرفانية تعيش نابضة في قلوب المجتمع المسلم. فحينما كان العالِم المسلم بقريحته العلمية الواسعة وبسلطته العلمية يعجن ويطور العلوم الإسلامية (الفقه والكلام والعرفان) وينمّيها في الواقع الاجتماعي ويحولها إلى واقع عملي، كان يلجأ أحيانًا إلى الأنساق الواقعية التي تتطلبها الحاجات الفردية والاجتماعية، وأحيانًا كان يستعين بالأدوات النظرية والمعرفية للعقل المسلم على المدى البعيد.

وهكذا ففي حين كان العالِم يضع الأسس المعرفية للعقل الإسلامي، كان في الوقت ذاته يمنهج قوانين هذا العقل. ويمكن أن نسميها قوانين الفقه والأصول والكلام والتفسير والعرفان والبلاغة أو اللغة. ولكن فإننا إذا لم نضع "نموذج العالم" في المحور، فلن نستطيع القيام بتنقيب تام حول العقل الإسلامي.

الأستاذ فتح الله كولن والإرث العلمي الإسلامي

وبعد هذه المقدمة يمكنني القول بأن الأستاذ فتح الله كولن ممثل معاصر للتقليد العلمي الإسلامي الأصيل. ومع أن هذا التقليد تعرض في القرون الأخيرة لانكسارات خطيرة، وتحولات ثقافية، وفَقد -إلى حد كبير- قدرته الإنتاجية، إلا أن هناك عقولاً كبيرة عملاقة نشأت في فترات مختلفة. وأنا شخصيًّا أعتقد بأن الأستاذ فتح الله كولن بقريحته الواسعة وبشخصيته المؤثرة

hiramagazine.com

على المستوى الروحي والاجتماعي، يمثل هذا الإرث تمثيلاً مهمًّا وعلى مستوى رفيع. فحتى لغته وخطابه اللذان يستعملهما في حياته اليومية، من المؤشرات التي تدل على أنه يحمل هذا الإرث الطويل إلى يومنا هذا. فتكاد كل حلقة من حلقات دروسه اليومية (الصحبة) تعكس الأسس المنهجية للعلوم الإسلامية بحساسية بالغة، وترصد في تأصيلاته والأمثلةَ التي يضربها النظرةَ المعرفية التي أنتجها العقل الإسلامي من الفقه وعلم الكلام والأصول والعرفان، ويلتزم بأن يُسند كل خطابه إلى خلفية تحتاج إليها الرؤية الحضارية الإسلامية.

وإنني حينما أواجه المادة الغنية التي يستعملها في كتاباته ومقالاته وأشعاره وحلقاته درسه ووعظه ومحاضراته، وأرى أسلوبه الخاص، فإني أشبهه بـ"الموسوعة". نعم، إنه قاموس محيط وموسوعة بكل معنى الكلمة من حيث إلمامه الواسع بشتى الفنون؛ من الشعر والفلسفة وعلم الكلام والفقه والأصول والأخلاق والعلوم الاجتماعية والإنسانية، ومن حيث دفعه بقدراته العقلية بالخوض في التحليلات العرفانية العميقة، وأساليب التربية الروحية.

العالم – العارف – الحكيم

عندما ننظر إلى نموذج "القيادة الدينية والاجتماعية" الذي تمخض عن التراث العلمي الإسلامي، فإننا نشاهد تجربة عقلية وروحية عميقة. وكما جرت العادة في التقاليد الإسلامية من أن الشخصيات العلمية تضطلع بدور القيادة الدينية والاجتماعية، فكذلك الأستاذ فتح الله كولن هو من الشخصيات "العالمة-العارفة-الحكيمة" التي حازت على التراث العقلي والديني، إلا أنه بما يتمتع به من التجربة الفكرية والروحية القوية، أعاد تفسير ومَنهَجة كل ما تلقاه من التراث الإسلامي؛ فصبغ كل ما تلقاه من الماضي والتراث بلونه الخاص، وأوصله إلى أبناء عصره مع تركيبات جديدة وقوالب جديدة وتفسيرات جديدة. ومن الممكن أن يلاحظ المتابع لأفكاره تجربته الشخصية القوية والعميقة هذه في كل ما يتناوله من مواضيع.

أجل، إن الأستاذ بما يلم به من علوم الفقه والكلام والتصوف والحديث والفلسفة واللغة واللطائف القرآنية، والأدب والبلاغة والفن والجمال، وبأسلوبه المشحون بالعواطف والمعنويات... إنه بهذه الأمور "موسوعة" بكل معنى الكلمة. فأسلوبه يستقي من مختلف المنابع الثقافية الواسعة. وحسب الأعراف الفلسفية فإنه قد برز ضمن تقاليد الفكر الإسلامي ثلاثة أنواع من الأنظمة المرجعية الأساسية التي تتمتع بإطار معرفي: البيان، والبرهان، والعرفان. وحسب هذا فإن جل الأصول الإسلامية توجد ضمن "البيان" الذي هو أحد "الأنظمة المرجعية".

وأما العلوم الفلسفية والعقلية فإنها وحدها تندرج ضمن "البرهان"، بينما يندرج التصوف تحت "العرفان". ومن الطبيعي أن يتعرض هذا التصنيف للنقد من جهات عدة؛ فمثلاً قد يقول قائل، لماذا لا يُعتبَر علم الفقه والكلام والأصول ضمن البرهان أيضًا؛ وعلى الخصوص في حين أنه بالإمكان أن نعتبر علمَي الفقه والأصول من أشكال التعقل الخاصة بالإسلام. كما أنه يمكن نقد هذا التصنيف من نواح أخرى أيضًا، إلا أننا بمثل هذه التصنيفات حينما نتحدث على العموم عن تراث فكري إسلامي، نكون قد تحدثنا في الواقع عن نظام مرجعي فكري ومعرفي للإسلام. وبالتالي فإننا نستطيع القول بأن العقل الإسلامي قد تشكَّل من خلال ثلاثة أنواع من أنظمة مرجعية. ومن هذا المنظور فلا بأس علينا في ذلك.

مسألة وراثة النبوة

والآن فإني في سياق تعريفي بالأستاذ فتح الله كولن سأقوم بتأصيل الموضوع بالانطلاق من حديث: "العلماء ورثة الأنبياء"، ومن بعض النواحي من حديث جبريل عليه السلام المشهور. وإني أعتقد أنه يمكن القول بأن وراثة العلماء للنبي ﷺ قد تحققت في ثلاثة مجالات: العلم، والعرفان، والدعوة الاجتماعية. ويمكن القول بأن وراثة العلماء للنبوة على مدى التاريخ الإسلامي قد تحققت في هذه المجالات الثلاثة.

وكلما اتسعت رقعة المجتمع الإسلامي زادت حاجتها إلى الأدوات العلمية التي يبلِّغ المسلمون من

hiramagazine.com

خلالها منظومتها العقدية إلى الأجيال اللاحقة، ويدافع عن عقيدتها تجاه ما يجابهها من الأنظمة الدينية منها والثقافية. ولهذا نلاحظ أنه كان هناك في وقت قصير نشاط علمي مكثف في كل النواحي والمجالات. وهكذا بنهاية القرن الأول كاد الفكر الإسلامي يأخذ طريقه في التشكل بكل مجالاته. وعلى مدى القرون الثلاثة والأربعة وصل التراث الإسلامي إلى مستوى من القوة والمنهجية الفكرية-الفلسفية، بحيث أصبح يستطيع أن يمنهج الرؤية الإسلامية للعالم.

ومن خلال هذا الجهد العلمي المكثف برز على الساحة الإطار النموذجي لورثة النبوة في مجال العلم والتراث العرفاني. ويمكن أن تندرج تحت عنوان التراث العلمي جلّ العلوم الإسلامية القديمة من الفقه والكلام والتفسير والحديث والإسناد واللغة والبلاغة والتاريخ والفلسفة وغيرها. كما يمكن أن تندرج تحت مفهوم التراث العرفاني؛ علم التصوف والأخلاق والميتافيزيقا إلى حد ما.

وأما مبدأ الدعوة والتبليغ فقد ظل -باعتباره من المقاصد الأساسية للإسلام- المحفزَ الكامن وراء كل الأنشطة بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن هذا السبب فقد ظهر في التاريخ الإسلامي في كل عصر شخصيةٌ علمية تتوافق -على الأقل- مع إحدى هذه النماذج الثلاثة.

فمن العلماء مَن ورِثوا الميراث العلمي، ومنهم من ورثوا الميراث العرفاني، ومنهم من ورثوا الجانبَين معًا، ومنهم -وهم قليلون- مَن ورثوا الجوانب الثلاثة. إذن قلما نلاحظ علماء يتمتعون بشخصية "العالم" و"العارف" و"الحكيم" في آن واحد. والنادر هو أن يبرز العالم إلى جانب هذه الأمور بهوية "الداعية" أيضًا. ولا نعني بـ"التبليغ والإرشاد" هنا المعنى العام الذي يشمل كل أنواع النشاطات الدعوية؛ بل ما نقصده هنا هو الدعوة إلى الإسلام مباشرة في بيئات وأصقاع تحتاج إلى دعوة الإسلام. وإلا فكل الأنشطة العلمية التي تجري في داخل المجتمع الإسلامي تدخل في نطاق الدعوة والإرشاد. فأمثال الحسَن البصري، والمحاسبي، والغزالي، من الشخصيات الذين يدخلون

الأستاذ فتح الله كولن هو من الشخصيات "العالمة-العارفة-الحكيمة" التي حازت على التراث العقلي والديني، إلا أنه بما يتمتــع به من التجربة الفكرية والروحية القوية، أعاد تفسير ومَنهَجة كل ما تلقاه من التراث الإسلامي؛ فصبغ كل ما تلقاه من الماضي والتراث بلونه الخــاص، وأوصله إلى أبناء عصره مع تركيبات جديدة وقوالب جديدة وتفســيرات جديدة.

في ضمن مفهوم "العالم" و"العارف" معًا. ولكن علمين من أمثال التفتازاني أو السيد الشريف الجرجاني، كان يغلب عليهما صفة "العالم" أكثر من صفة "العارف" أو "الحكيم". علمًا بأنهما بسعة آفاقهما وبسلطتهما العلمية، من الشخصيات التي وضعت الأسس المعرفية للمدارس العثمانية وأنشطتها العلمية، وبذلك تحكمتا في هذه الأنشطة العلمية قرابة خمسة قرون.

ولا مرية في أن أكثر العلماء تأثيرًا في التاريخ الإسلامي، هو الإمام الغزالي (بهوية "العالم")، بينما أن أكثر الصوفية تأثيرًا هو محيي الدين ابن عربي (بهوية "العارف"). وإذا حاولنا أن نعدد في هذا المقال جميع أبطال حلقات "العلم" و"العرفان" فقد يتطلب ذلك منا عديدًا من الصفحات.

من أواخر حلقات التراث العلمي القديم

إنني شخصيًّا أعتبر الأستاذ فتح الله كولن واحدًا من أواخر حلقات التقاليد العلمية الأصيلة المنحدرة على طول التاريخ الإسلامي. ولا مرية في أن الأستاذ شخصية علمية تضلعت في معظم التخصصات الإسلامية الكلاسيكية، ولكنه في الوقت نفسه يتمتع بهوية الداعية بالمعنى العام، وشخصية القيادة الاجتماعية. وحاز على مساحة واسعة من القبول والتأثير بحيث لم يتيسر ذلك لأي عالم في التاريخ الإسلامي.

ومع أنه بخطابته القوية والمخلصة، وبقريحته العلمية والعرفانية الواسعة، أثّر في جماهير تتشكل من شرائح مختلفة جدًّا، إلا أنه -للأسف- لم يشتهر -بنفس المستوى- بسلطته العلمية ومقدرته الفكرية واطلاعه

hiramagazine.com

على المدارس الفلسفية العصرية الحديثة. والسبب في ذلك يرجع إلى شخصيته المتواضعة، بالإضافة إلى كثرة الحديث عنه في وسائل الرأي العام من خلال أنشطته الدعوية والتربوية والإرشادية المكثفة.

وجدير بالذكر أن جزءًا مهمًّا من مؤلفاته تشكلت من حلقات الدرس التي كان يلقيها على تلامذته، ومن الأجوبة على ما وُجّه إليه من أسئلة، وتفريغ أشرطة الوعظ التي ألقاها على الجماهير. بالإضافة إلى مؤلفات تشكلت مما كتبه من المقالات الرئيسية التي كتبها في المجلات العلمية والأدبية.

لكن سلسلة الكتب المسماة بـ"التلال الزمردية"، من كتبه الفريدة التي تميزت على سائرها في باب ما كتب في علم التصوف. فلو كانت هذه السلسلة مؤلفة قبل خمسة قرون -مثلاً- لكُتب عليها عشرات من الشروح. بمعنى أنها من طراز المتون الأصيلة التي كان من العادة أن يُكتَب عليها الشروح. ومن الممكن للمتخصص في هذا الباب والذي له باع في هذا العلم، أن يتلمس من خلال هذه السلسلة مدى سعة قريحة الأستاذ العلمية، وقدرته على التركيب والتحليل، وخلفيته الفقهية والأصولية والكلامية والمنطقية. ومن يمعن النظر في هذا الكتاب فسيلاحظ أن المؤلف جمع وألف بين شتى الأنظمة المعرفية الإسلامية التي هي ثلاثية (البيان-البرهان-العرفان) في نظام معرفي متكامل.

والأمر الذي يميزه عن النصوص الصوفية التقليدية، هو أن المؤلف لا يحصر المفاهيم العرفانية في المجال العرفاني فقط، بل يعرِّفها ويؤصلها من منظور الواقع الاجتماعي والأخلاقي للفرد المسلم. وهناك أمر آخر وهو أن الحبكة الفكرية للكتاب تلمّح -نوعًا ما- إلى انتقاد ضمني للعقل الإسلامي التقليدي. بمعنى أن العقل الإسلامي بتفرّقه في الماضي إلى ثلاثة أنظمة مرجعية مختلفة، أدى بالمجتمع الإسلامي إلى تفكك فكري وسياسي واجتماعي.

ولا يزال هذا التفكك موجودًا في عصرنا هذا، بحيث إن ذلك التفكك الذهني والفكري والسياسي والمجتمعي، ظل يغذي انقسامات لا تزال تتوسع أفقيًّا في المجتمعات الإسلامية. فكتاب "التلال الزمردية" يقدم -بطريقة غير مباشرة- إطارًا منهجيًّا يجمع بين ما في النظام المعرفي الإسلامي من مختلف الأسس المرجعية والمنهجية. فالأستاذ بما طوره في هذا الكتاب من نظرية المعرفة المتكاملة، حاول أن يعالج ما تعاني منه المجتمعات الإسلامية من انحراف أخلاقي وتفكك فكري وقلبي واجتماعي.

شخصية الأستاذ ورؤيته الحضارية

ومن جانب آخر، إن كتب الأستاذ فتح الله كولن ومؤلفاته قد تعطي تصورًا عنه نوعًا ما، ولكن لا يمكن فهم شخصيته باعتباره عالمًا ومفكرًا حق الفهم إلا بالتعرف عليه عن كثب وبطريقة مباشرة. وإني -باعتباري من الذين جالسوه بشكل أو بآخر وتابعوا دروسه، ووجهوا إليه الأسئلة، وراقبوه عن قرب- أستطيع القول: إن الأستاذ يتمتع بقريحة علمية تجمع بين هذه التوجهات العلمية الإسلامية الثلاثة. ومحتوى كلامه محمَّل دائمًا بالرجوع إلى هذه المراجع الثلاثة. فمثلاً، حتى إنه حينما يناقش موضوعًا يتعلق بمجال الفقه والأصول فقط، لا يترك الموضوع حبيس ساحة واحدة فقط كشأن الأسلوب الأكاديمي، بل يظل يبحث عن الآثار الاجتماعية والثقافية لمضمون ذلك الموضوع.

فتراه يناقش ويدخل في تفاصيل النتائج الأخلاقية والفكرية والمعرفية التي عسى أن تتمخض عما تناوله من المبدإ الفقهي أو الأصولي. علاوة على ذلك، فإن الأستاذ -من منظور أوسع- يظل مرتبطًا في جميع ما يتناوله من المواضيع بـ"رؤية حضارية" يحمل همّها. فالأدوات الفكرية والفلسفية والعقدية في خطابه، مرتبطة بالجذور المعرفية لهذه المراجع الثلاثة لنظام المعرفة الإسلامية. وعلى الأخص فالشبكة المفاهيمية للمقالات الرئيسية التي كتبها، تؤكد دائمًا على إنشاء رؤية حضارية ذات محتوى شامل ومحيط.

حتى لو لم تعجبكم أفكاره وأساليبه

وأخيرًا، ينبغي أن أعود فأؤكد أن الأستاذ فتح الله كولن مثال حي لنموذج "العالِم" الأصيل الذي ظل على مر عصور عديدة ينظم "رؤية العالَم" لدى المجتمعات

hiramagazine.com

الإسلامية، فأحدث فيها تحولاً فكريًّا وثقافيًّا، ورصد كل هذه التحولات من حيث نتائجها الاجتماعية والأخلاقية. وهو بشخصيته العلمية والروحية الكاريزمية، وبأسلوب حياته البسيطة المتواضعة والزاهدة يعتبَر من أواخر حلقات التقاليد العلمية الإسلامية العريقة.

وسواء عرف الناس قدره أم لم يعرفوا، فإني أعتقد جازمًا بأنه لم يستحق ما وُجّه إليه من إهانات من قِبل مَن أشربوا في قلوبهم اللهث وراء عرض الدنيا ونزوة المناصب، والذين ليس لهم حظ من الثقافة والعلم إلا قليل، فيكيلون له من فحش الكلام والمسبّات، والهمز واللمز، والسخف والإزعاج ما لا يقبله الإنصاف والضمير.

وأعتقد جازمًا أن الذين يظلمون رجلاً عظيمًا يندرج ضمن سلسلة الذهب التي كوّنت لنا تراثًا علميًّا هائلاً، في سبيل بعض المكاسب الدنيوية العابرة، سيحاسَبون على ذلك عاجلاً أو آجلاً. صحيح أن الإنسان قد ينسى ما يقوم به الأعداء، ولكن غدر الأصدقاء وخذلانهم من البشاعة بحيث يهتز له العرش. فقد لا تعجبكم أفكاره وأساليبه، ولكم أن تنتقدوه حينذاك في حدود الإنصاف والمبادئ العلمية، بل لكم أن لا تبالوا بما يقوله ولا تلقوا له بالاً. ولكن إذا كان الأسلوب واللغة بعيدًا عن الأخلاق واللياقة، وكان منحطًّا عن مستوى الأدب والإنصاف، فهذا ليس له إلا تفسير واحد وهو أن هناك تعفنًا في الأخلاق وانهيارًا في الشخصية. وهذا النمط من الأسلوب المستبد، أفسد الخطاب السياسي الإسلامي أيضًا، وأفلته من ضوابطه وهدم جدران الإنصاف والأخلاق المحيطة بالنقد والانتقاد.

لقد كان في تركيا حواجز أخلاقية تحمي اللغة والأسلوب من الشطط، ولم تكن هذه الحواجز مدمرة إلى هذا الحد حتى في الأوساط العلمانية. ولكنها -للأسف- تهدّمت بشكل فظيع على يد الإسلاميين. نسأل الله تعالى حسن الخاتمة. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

شهادات

أ.د. محمد عمارة (مصر):

لأن العقل في حضارتنا الإسلامية هو نور أودعه الله في القلب، ولأن العلامة الأستاذ فتح الله كولن هو ثمرة طيبة من ثمرات هذه الحضارة، فلقد جمع بين حكمة العقل وبصيرة القلب. ولأن القرآن الكريم هو الذي صاغ منهاجه في الفكر والحياة، فلقد صار كلمة طيبة أصلها ثابت وفروعها ممتدة في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن الله، ولأن الوحي القرآني قد قرن دائمًا بين الإيمان والعمل.. فإن كلمات هذا العالم الربّاني قد تجسّدت -به وبإخوانه الكرام- أبنية شاهقة، وحياة خصبة تزدهر بها كثير من بقاع هذا الكوكب الذي نعيش فيه.

أ.د. فريد الأنصاري رحمه الله (المغرب):

فتح الله كولن سيرةُ بكاء! لقبه الأسري: "كُولن"، ومعناه "الضحاك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضًا! فهو بَكّاءُ الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيتُ أحدًا أجرى دمعًا منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريخ جميعًا تفجرت أنهارها من بين جفنيه!

أ.د. إبراهيم البيومي غانم*

"الخدمة"
في خدمة عالمية الإسلام

جاء في الأثَر عن سيدنا محمد ﷺ أنه قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (رواه أبو داود). وقد توالى ظهور المجددين عبر العصور، وكتب عنهم كثيرون قديمًا، منهم جلال الدين السيوطي في كتابه "التنبئة بمن يبعثه الله على رأس المائة"؛ وكتب عنهم كثيرون حديثًا منهم الشيخ عبد المتعال الصعيدي وقد استوعب في كتابه "المجدّدون في الإسلام" من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري.

وبالتنقيب في سير أولئك المجددين السابقين نجد أن:

- منهم مَن كان تجديده بإحياء السنن النبوية وإزالة البدع والخرافات التي التصقت بالدين.
- ومنهم من كان تجديده من خلال تقديم تفسيرات جديدة لآيات القرآن الكريم.
- ومنهم من جاء تجديده فِقهيًّا، فقدم اجتهادات غير مسبوقة، وسابقة لعصرها في حل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية.
- ومنهم من جاء تجديده في ميادين الجهاد والدعوة

إلى التحرر وإعلاء كلمة الله، ومقاومة الظلم والظالمين وإقرار العدل.

• ومنهم من جاء تجديده بإحياء الفهم الشامل للإسلام باعتباره منهج حياة متكامل، يتناول أمور الدين والدنيا جميعًا.

وهكذا مضت سنة الله في أمة الإسلام عبر القرون الماضية، إلى أن جاء على رأس المائة الخامسة عشرة الأستاذ المربّي محمد فتح الله كولن، داعيًا الأمة إلى تجديد أمر دينها من زاوية عملية وجديدة قياسًا إلى المجددين الذين سبقوه، وهي "العالمية"، وهي زاوية قلّما اهتم بها السابقون، رغم الأهمية الكبرى التي تمثلها فكرة "العالمية" في بناء رؤية إسلامية للعالم من الناحيتَين النظرية الأصولية، والتطبيقية الواقعية. وقد انصبت اجتهادات الأستاذ فتح الله كولن على إبراز "عالمية الإسلام"، وبيان كيف أنه يشمل جميع بني البشر ويستوعبهم ولا يستبعد فئة منهم، ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالخدمة والعمل الصالح النافع في آن واحد، ولا يكره أحدًا منهم على الدخول فيه أو ترك ما يدين به.

وكدأب أغلب المجددين وحملة العُدْوة إلى الله تعالى؛ تعرض الشيخ فتح الله لحملات متلاحقة من التشويه ليس فقط بهدف النيل من شخصه الكريم، وإنما أيضًا بهدف النيل من فكرته، وإهالة التراب على الزاوية التجديدية التي نذر نفسه لها ألا وهي "عالمية الإسلام" في الواقع والتطبيق وليس فقط بالفسلفة والتنظير. وكم كان حكيمًا في قوله "الآذان شبعى والأعين جوعى" في إشارة إلى حاجة الأمة إلى أن تقرن القول بالعمل، وأن يجدّ ويجتهد أبناؤها في بناء صرح الروح وصرح الحضارة معًا.

وقصدْنا هنا أن نرسم المعالم الرئيسية لشخصية الأستاذ محمد فتح الله كولن، باعتباره أحد مجددي الفكر الإسلامي المعاصر داخل تركيا وخارجها. وهو في نظرنا يستحق صفة المجدد بكل ما تحمله هذه الصفة من معاني التمسك بالأصول والاجتهاد في ضوء تحديات العصر ومشكلاته. لقد أسس الأستاذ حركة

جلّ الحركات الإصلاحية في العالم العربي هي حركات سياسية اجتماعية في كثير من الأحيان، خلافًا لما يميز "حركة الخدمة" باعتبارها حركة مدنية تنأى بنفسها عن العمل السياسي. فميزة "حركة الخدمة" الأساسية هي الرؤية العميقة للواقع، وبناؤها لرصيد مهم من الثقة.

واسعة الانتشار لا تحمل اسمًا محددًا، وإنما توافق أغلب الباحثين والأكاديميين المعنيين بها على تسميتها باسم "حركة الخدمة". هذه الحركة -كما سنرى- تستلهم أفكار الشيخ فتح الله وتحولها إلى مشروعات ومؤسسات وبرامج متنوعة تصب -رغم تنوعها- باتجاه تحقيق عالمية الإسلام بالمعنى الذي يشدد عليه الأستاذ فتح الله. كما تركز "الخدمة" أيضًا -وربما لأول مرة- على استخدام "القوة الناعمة" في ممارساتها العملية، استنادًا إلى رؤية معرفية تركز على قيم الحرية والعدالة والمساواة والسلام واحترام حقوق الإنسان؛ عبر منظومة من المشروعات والمؤسسات، والبرامج التعليمية والصحية، والإعلامية والفنية، والخدمية والإغاثية.

مَن هو محمد فتح الله كولن؟

الأستاذ "محمد فتح الله كولن" سبق أن جاء في المرتبة الأولى ضمن قائمة "أهم مائة مثقف معاصر في العالم"، وذلك "لتجاوز تأثيره حدود بلده، وذيوع صيته الثقافي في مختلف أنحاء العالم"؛ بحسب نتائج الاستطلاع الذي أجرته في صيف ٢٠٠٨ مجلّة السياسة الخارجية "Forgien Policy" الأمريكية، بالتعاون مع مجلة Pros-pect البريطانية. وللأستاذ فتح الله عديد من المؤلفات والبحوث والمقالات بلغت أكثر من ٧٠ كتابًا، بعضها مترجم إلى العربية، وبعضها مترجم إلى عدة لغات أخرى. وله ٤٨٥ مقالة، منشورة في ثلاث مجلات تصدر بالتركية، هي: مجلة سِيزِنْتِي (Sızıntı) وفيها ٣٦٠ مقالة؛ ومجلة ياغْمُور (Yağmur) وفيها ٤٤ مقالة؛ ومجلة يَني أُمِيد (Yeni Ümit) وفيها ٨١ مقالة. وله ديوان شعر من مجلدَين (بالتركية) بعنوان "المضرب المكسور" (Kırık

hiramagazine.com

Mızrap). هذا إضافة إلى آلاف الخطب والمحاضرات والمواعظ والدروس المسجّلة على أشرطة كاسيت. ويقوم تلامذته بتفريغها وتحريرها، ويقوم هو بمراجعتها قبل التصريح بطباعتها، وهي في معظمها لا تزال بلغتها الأصلية "التركية".

ولد فتح الله كولن سنة ١٩٣٨ في قرية "كوروجك" التابعة لمدينة "حسن قلعة" في محافظة "أرضروم" بالأناضول التركي. وسكان الأناضول في عمومهم تغلب عليهم نزعة التدين والاعتزاز بالإسلام، والتمسك بالتقاليد والمحافظة عليها في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. وقد أضحى من كبار رواد العمل المدني على مستوى العالم انطلاقًا من رؤية يؤمن بها، وهي أن الإسلام جاء لمد يد العون لجميع بني آدم، وأن عظمة هذا الدين تتجلى أكثر وأكثر عندما يشعر كل بني البشر -بغضّ النظر عن اختلاف عقائدهم وألوانهم وأعراقهم- أنهم آمنون في ظلاله، مستفيدون من عطاءاته في مختلف المجالات. وقد استطاع الأستاذ فتح الله بهذه الفكرة الواضحة أن يصل بحركته إلى العالمية، وأن يكشف عن "أنّ جوهر الرسالة الإسلامية هو "خدمة العالم"، كل العالم بلا استثناء".

والذي يلفت النظر، هو أن معرفة النخب العربية -والمصرية على وجه الخصوص- بالأستاذ فتح الله وأفكاره وحركته، لا تزال محدودة جدًّا مقارنةً بمعرفة النخب العلمية والثقافية والإعلامية به في البلدان الأوربية والأمريكية. يشهد على ذلك كثرة الندوات الفكرية، والمؤتمرات العلمية، والبحوث والدراسات والرسائل الجامعية التي عكف أصحابها في تلك البلدان على تحليل شخصية "الأستاذ"، واهتموا بدراسة آرائه واجتهاداته، وسعوا للكشف عن عوامل كفاءتها ونجاحها في الاستجابة لمشكلات الواقع وتحدياته، إضافة إلى الاهتمام باستشراف المسارات المستقبلية التي يمكن أن تؤول إليها اجتهاداته وتوجيهاته على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والحضارية بشكل عام؛ داخل بلده تركيا وخارجها أيضًا على امتداد الساحة العالمية.

يكمن عدد كبير من الأسباب خلف نقص معرفتنا -في مصر وأغلبية البلدان العربية والإسلامية- بأحوال المجتمع والدولة والنخب الفكرية والعلمية والثقافية في تركيا، وليس فقط بالأستاذ "محمد فتح الله كولن" ومنهجه في التجديد وحركته المدنية واسعة الانتشار ذائعة الصيت عالميًّا.

بعض هذه الأسباب يرجع إلى ضعف التواصل الفكري والثقافي والعلمي بين العرب والأتراك نتيجة عوامل سياسية تراكمت في نهاية الدولة العثمانية، ثم تكرست منذ بدايات عهد الجمهورية التركية؛ حيث سادت نظرية "الانسلاخ المتبادل" بين الجانبين، أو تنكُّر كل منهما للآخر وتحميله مسؤولية تأخره.

والبعض الآخر من الأسباب يرجع إلى "صورة نمطية" موروثة من أزمنة سابقة، تؤكد على أن شهرة العثمانيين/الأتراك هي في ميادين الحرب والبطولات العسكرية، أكثر منها في ميادين العلم والفقه، ناهيك عن التجديد والاجتهاد في أمور الدين والحياة المدنية. ولا تزال هذه الصورة النمطية موجودة في الذهنية العربية إلى اليوم؛ إذ لا يسهل على "العربي" أن يستحضر أسماء "علماء" في الشريعة أو دعاة مشهورين، بينما يسهل عليه أن يذكر بعض أسماء سلاطين آل عثمان أمثال سليمان القانوني، وسليم الأول، ومحمد الفاتح، وعبد الحميد الثاني، كما يسهل -على العربي أيضًا- أن يستحضر بعض أسماء قادة وزعماء سياسيين في عهد "الجمهورية التركية" من أتاتورك، إلى تورْغُوط أُوزال، إلى عبد الله كول.

أغلب تلك الأسباب التي أضعفت التواصل العربي التركي في مراحل سابقة، بدأ يزول منذ عقد من الزمان أو أكثر قليلاً. فهناك سلسلة من الجهود المبذولة منذ نحو عشر سنوات من أجل تجديد الصلات بين العرب والأتراك على مختلف المستويات الثقافية والاقتصادية والسياسية وأحيانًا العسكرية.

"الخدمة" من المحلية إلى العالمية

ترجع النشأة الأولى لحركة الخدمة التي أسسها الأستاذ فتح الله كولن، إلى ستينيات القرن العشرين. وقد

hiramagazine.com

تطورت حتى وصلت إلى العالمية مع نهاية التسعينيات وبداية الألفية الجديدة. وكلمة "الخدمة" هي المستعملة في أوساط المنخرطين في الأنشطة والبرامج التعليمية والتربوية والثقافية والصحية على نهج الأستاذ فتح الله. وأغلب ظني أن استعمالهم لكلمة "الخدمة" هو مظهر من مظاهر تأثرهم بالفكر الصوفي الوجداني وتراثه الذي يجعل "الخدمة" وسيلة للقرب من الله تعالى. وللتصوف وطرقه تاريخ عريق في بلاد الأناضول بصفة عامة، ومنه استمد الأستاذ فتح الله قسطًا كبيرًا من بنائه الروحي والأخلاقي برؤية تجديدية أوضحها في مؤلفاته ومنها بصفة خاصة "التلال الزمردية"، وكتاب "ونحن نقيم صرح الروح".

وتشير كلمة "الخدمة" في الواقع إلى مئات المؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية والثقافية والفنية والروحية. وهي تنتظم مئات الآلاف من المقتنعين بفلسفة الخدمة وبأفكار الأستاذ فتح الله، من رجال الأعمال (الأصناف) والشباب والطلاب، والنخب الفكرية والثقافية... وإذا كان لنا أن نؤكد على خصوصية هذه الحركة فخصوصيتها هي أنها "عالمية" و"إنسانية"، وهي تستند إلى أصول ومبادئ المرجعية الإسلامية، وفق فهم وسطي منفتح ومستوعب لمتغيرات العصر ومهموم بمواجهة تحدياته وحل مشكلاته. ولعل أهم أسباب نجاح حركة "الخدمة" هو أن الأستاذ استطاع أن يصوغ أطروحاته الفلسفية والفكرية التربوية والعملية على أساس إدراك عميق لخاصية عالمية الإسلام وكونه دينًا منفتحًا على الإنسان حيثما كان وعلى الحياة بكل جوانبها، إضافة إلى إدراكه العميق لخاصية العصر، وخاصية الإنسان المعاصر وكونه متعدد الاهتمامات، متسع التطلعات، وتتناوشه نزعات متنوعة ومتعارضة في آن واحد.

تضييق الفجوة بين النظرية والتطبيق

انفصال القول عن الفعل هو من أهم الآفات التي أصيبت بها المجتمعات الإسلامية منذ عدة قرون. وهذه الآفة جعلها الأستاذ فتح الله في بؤرة اهتمامه وهو يبحث عن طرائق تجديد عناصر القوة في جسد الأمة. وقد استطاع

قصدْنا هنا أن نرسم المعالم الرئيسية لشخصية الأستاذ محمد فتح الله كولن باعتباره أحد مجددي الفكر الإسلامي المعاصر داخل تركيا وخارجها. وهو في نظرنا يستحق صفة المجدد بكل ما تحمله هذه الصفة من معاني التمسك بالأصول والاجتهاد في ضوء تحديات العصر ومكشلاته.

الأستاذ أن يحقق إنجازات ملموسة في مجال تضييق الفجوة بين النظرية والتطبيق، أو بين القول والفعل إلى حد كبير، وذلك من خلال منظومة فكرية مستندة إلى عناصر تفعيل القدرات الإنسانية واقعيًا؛ فمصطلح "الإيمان" بالمفهوم الذي قدمه الأستاذ وغرسه في كيان تلامذته، يعتبر مفتاحًا ضروريًّا وَلَجَ من خلاله في تغذية جذور الإنسان الروحية بالحياة والحيوية، وذلك بالدعوة إلى ضرورة التمثل العميق لقيم القرآن الكريم، وضرورة طبع العمل والبناء بمسحة قرآنية تطوعية وفق منهج السلف الصالح، وبخاصة منهج الصحابة الكرام، وبروح اجتهادية تجديدية تساير روح العصر.

وبالنظر مليًّا في الأصول التربوية والروحية لدى الأستاذ كولن، نجد أنها تعتبر مجالاً حيويًّا بالغ الثراء في إمداد حركة الخدمة بالقوة والدافعية للإنجاز وفق أعلى معايير الجودة المعروفة عالميًّا في ميادين التربية والتعليم والفن والثقافة... إلخ. وعلى يد إنسان مفعم بالهمّ والهمّة، وقادر على ترجمتها في الواقع مستلهمًا عصر الصحابة، أو "عصر السعادة" كما يطلق عليه الأستاذ. والأمر المهم عند الأستاذ فتح الله ليس شكل التدين، وإنما "جوهره" الذي يتجلى في فاعلية الإيمان والدين والقيم. ويأتي تركيزه على هذه القيم استجابة لتحديات هذا العصر المليء بالأزمات، والباعث على التشاؤم من المستقبل من فرط الحديث عن "النهايات" التي تطرحها المنظومات والمذاهب الفكرية المختلفة: كنهاية التاريخ، ونهاية إنسان القيم والأخلاق، ودعوى موت الإله، ونهاية الأيديولوجيا. ووسط هذه النزعة التشاؤمية يلح "الأستاذ" على أن الإسلام يمدنا بالتفاؤل، ويفتح أمام الإنسان بدايات جديدة باستمرار، ولا يتركه

hiramagazine.com

يقع فريسة للشكوك التي لا نهاية لها.

ولا يفوت الأستاذ أن يقدم رؤاه التجديدية في أعقد المسائل الكلامية ذات الصلة بإرادة الإنسان وقدرته على الفعل والكسب؛ فتحليلاته وانتقاداته المتعمقة للمذاهب الشاطحة بعيدًا عن شواطئ الإيمان مثل الداروينية والإلحاد والمادية والنفعية، لم تُنسِهِ مهمّته الأساسية في تثبيت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وفق ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وخاصة الأشاعرة. وفي هذا السياق، وجدناه يقدم اجتهادًا معتبرًا تفسير "إرادة الإنسان" في ضوء مشيئة الله ﷻ. وقد ميز الأستاذ بين ما سماه "الإرادة الكلية"، و"الإرادة الجزئية"، وقال إلى معنى الإرادة هو التوجه والمشيئة، وهذه تعود إلى الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(الإنسان:٣٠)، ويوضح فكرته فيقول: "إن الله خالق كل شيء، ولكنه من أجل التكليف والامتحان، ومن أجل أسرار وحكم أخرى، قبِل عزم البشر على الفعل وكسبهم شرطًا عاديًّا"[١].

وفي ضوء الرؤية الشاملة التي قدمها الأستاذ فتح الله، يبرز مشروع "خدمة الإنسان" -مطلق الإنسان- وهذا المشروع لم يتوقف عند حدود تركيا، بل تجاوزها -كما أسلفنا- ليصبح ملكًا لعموم الأمة، بل ملكًا للإنسانية كلها، وصار محل اهتمام وتركيز دوائر فكرية وفلسفية وأكاديمية متنوعة الاختصاصات.

إن أهم ما تتميز به "حركة الخدمة"، هو استحضارها للوحي في كل مرتكزاتها. فالوحي -حسب رؤية الأستاذ كولن- لحظة فاصلة في غاية الأهمية في مسار الإنسانية كلها. هو يرى أن حال هذه الإنسانية قد تغير بنزول الوحي على سيدنا محمد ﷺ. وتفصلنا اليوم عن زمن الوحي مسافة زمنية طويلة، كما تفصلنا مسافة أطول منها عن امتداده في المستقبل. وفي رأيه أن الأسئلة المعلقة هي أسئلة تخص الإنسان ووظيفته في هذا الوجود، والجواب عن تلك الأسئلة هو الإيمان بهذه الرؤية الجديدة، أي البدء من جديد، وعدم الاستسلام لليأس. فكل إنسان مهيأ لأن يتنزل عليه معنى الوحي. ولما كان الإسلام فوق الزمان والمكان، كان الوحي كذلك فوق الزمان والمكان.

لقد نجحت حركة الخدمة في ترسيخ قيم الحوار والتفاهم في العالم الغربي بشهادات متوترة وموثوقة. فهل تنجح في أن تقدم للعالم العربي في ظل الواقع الراهن ما يرسي جو الحوار وبث الثقة بين أفراد المجتمع الواحد، وأن تقدم ما يمكن أن يمنح الثقة للآخر؟

إن الجواب على السؤال السابق تعترضه عقبات وتواجهه تحديات كثيرة لعل من أهمها ما يمكن تسميته "تحدي المصطلح". فالخطاب الذي تقدمه "حركة خدمة العالم" له نسق مصطلحي خاص؛ إذ للأستاذ كولن قاموسه الاصطلاحي الخاص الذي يتغذى من روح القرآن الكريم وعمق السنة النبوية. فهو مصطلح واضح وجلي يدل على اقتناع واضعه بعمق ما يؤمن به. ولذلك فإن البحث في هذا المجال واستقصاء معانيه ودلالاته المكثفة يعتبر مفتاحًا ذهبيًّا لكل مغاليق المشروع الإصلاحي عند الأستاذ فتح الله. فمعقولية المصطلح وانضباطه، دليل على معقولية الفكرة، ودليل على انطلاق صاحبه من جهاز مفاهيمي واضح المعالم.

ابتعاد الخدمة عن "التسْيِيس"

أعتقد أننا في العالم العربي لا زلنا بحاجة إلى كثير من المجهودات البحثية والفكرية والثقافية من أجل الانفتاح على اجتهادات الأستاذ فتح الله كولن، وبخاصة من زاوية "العالمية" وهي -كما أسلفنا- أهم زوايا مشروعه التجديدي على الإطلاق. وأنا أدرك أن ثمة كثيرًا من التحديات والعقبات التي قد تعترض سبيل انفتاحنا في العالم العربي على اجتهادات الأستاذ فتح الله ونموذج "الخدمة" بصفة عامة. و"التسييس" هو أول وأكبر تلك العقبات؛ فجلّ الحركات الإصلاحية في العالم العربي، هي حركات سياسية اجتماعية في كثير من الأحيان خلافًا لما يميز "حركة الخدمة" باعتبارها حركة مدنية تنأى بنفسها عن العمل السياسي. فميزة "حركة الخدمة" الأساسية هي الرؤية العميقة للواقع، وبناؤها لرصيد مهم من الثقة. والسؤال هو: كيف يمكن الاستفادة من هذا المنهج في العالم العربي، وهل تستجيب الشروط التاريخية والموضوعية في العالم العربي للتفاعل مع

hiramagazine.com

خصوصيات الخدمة، وقدرتها الكبيرة على الحوار والتسامح والانفتاح؟

إننا في العالم العربي في أشد الحاجة للتأمل في آليات الانفتاح على الفلسفات العالمية كما تتجلى في رؤى واجتهادات الأستاذ فتح الله، وكما تترجمها مشروعات ومؤسسات الخدمة. وهذا في رأينا واحد من الدروس الكبرى التي يقدمها مؤسس الخدمة الأستاذ فتح الله. فالخدمة في نهاية المطاف "فكرة" اقتنع الناس بجدواها وبمعقوليتها فتبنَّوها. ويتجدد السؤال هنا أيضًا: هل الأستاذ كولن هو مجرّد رجل أوحى بهذه الفكرة أم هو الساهر على تطبيقها وتفعيلها؟

من الواضح أن الجواب على هذا السؤال أصعب من نفي الارتباط بين الأستاذ والحركة في الوقت الذي يؤكد فيه أبناء الخدمة أنهم يتحركون مسترشدين بأفكاره الملهِمة. وبهذه المناسبة أثرنا في إحدى مداخلاتنا ضرورة إعادة تعريف مفهوم "العالم" من واقع التراث الحضاري الإسلامي. فمن هو العالم؟ وما دوره في ظل فكر الخدمة وواقعها وعلاقة الأستاذ فتح الله بها؟ وبعبارة أخرى ما مفهوم العالم من خلال الفكر والممارسة عند الأستاذ فتح الله كولن؟ وهل من الممكن إعادة بناء نماذج في مستوى الأستاذ فتح الله وتطلعاته العالمية المستندة إلى المرجعية الإسلامية؟

ابتعاد حركة "الخدمة" عن التسييس، كان من أهم آلياتها للإسهام في تحقيق "عالمية الإسلام". أجل، فبالرغم من أن الخدمة بدأت "تركيّة" المنشأ، إلا أنها أخذت في الاتساع والامتداد إلى عديد من البلدان الأوربية التي تسمح بهامش كبير جدًّا من الحريات الجماعية والفردية. وإذا كان لكل بلد خصوصيته، فإن أسئلة كثيرة تطرح عن كيفية تعامل الخدمة مع هذه الخصوصيات وكيف بلورت مناهجها لإرساء دعائم عملها في واقع الثقافة الأوروبية.

وبوصول "الخدمة" إلى الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية التسعينيات من القرن الماضي، اكتسبت أفقًا جديدًا، وواجهت تحديات جديدة كذلك. وفي هذا الإطار، أتصور أننا في حاجة ماسة إلى دراسة جميع المستويات النصية للأستاذ في ظل هذه المرحلة. فقد تم إنشاء العديد من مراكز الحوار، وأقيمت العديد من الندوات العلمية التي تناولت فكر الأستاذ كولن بالبحث والتحليل. ومن الأكيد أن نظرة المثقف الأمريكي هي غير نظرة المثقف العربي، الذي تحركه الحاجة إلى معرفة نظرة المثقف الأمريكي لشخصية الأستاذ فتح الله كولن وللخدمة ومعرفة صداها عنده، ومعرفة مدى التغيير الذي لحق نمط التفكير الأمريكي عن الإسلام والمسلمين. هل نجحت الخدمة فعلاً في ترسيخ نظرة جديدة وفي تغيير الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين؟

ختامًا؛ الأستاذ فتح الله ومن منطلق الثقة في الذات ينظر للعالم الغربي باعتباره شريكًا وليس عدوًّا، بناء على أن الإسلام يستطيع أن يقدم للغرب ما عجزت عنه مختلف النظريات المادية بمختلف مظاهرها، بما يتوفر عليه من قيم أخلاقية نبيلة تحترم إنسانية الإنسان، وتريد له الخير. ولذلك عمل الأستاذ فتح الله على مأسسة الخدمة وفق نمط يقدم الإسلام في صورته الحقيقية كما مثلها الرسول ﷺ وصحابته ﭽ. وكانت وسائله وأدواته في ذلك، هي مؤسسات الثقافة والحوار والتعليم المتنور ومراكز الخدمات الثقافية والاجتماعية وغيرها. وفي هذا الإطار يبرز بشكل قوي المفهوم الجديد الذي يربط مشروع الخدمة بالعالمية التي يركز عليها الأستاذ فتح الله، ألا هو مفهوم "دار الخدمة" في مقابل ثنائية تقليدية تتحدث عن "دار الإسلام ودار الحرب" ولم يعد لها وجود في واقعنا المعاصر. ومن شأن هذه النظرة الجديدة للعالم أن تجدد العلاقة بين الإسلام والعالم، ومن شأنها أنها تسهم في إدماج المسلمين في المجتمع العالمي، باعتبارهم جزءًا منه وباعتباره دار خدمة ودار هجرة في آن واحد. ■

(*) أستاذ العلوم السياسية - جامعة القاهرة / مصر.

الهوامش

(١) الرد على شبهات العصر، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣، ص:١٩٠.

hiramagazine.com

أ.د. عبد المجيد بوشبكة*

نموذج الخدمة
مثال راشد للمجتمع المدني

معلوم لدى أهل الاختصاص أن مؤسسات المجتمع المدني المعاصرة تتميز بنوع من العموم والخصوص في نفس الآن؛ فهي عامة من حيث طبيعتها المنفتحة المشتركة بين عدد من المتطوعين والمستهدفين، لكنها تكتسب خصوصيتها من مبادئها التي تعول عليها تفكيرًا وتخطيطًا وتنزيلاً.

إن الفلسفة الليبرالية في نظرتها إلى المجتمع المدني ترى أن مصلحة المجتمع تتحقق عبر مجهودات الأفراد الهادفة إلى تحقيق مصالحهم الخاصة، عاملةً بل داعية إلى تحجيم دور الدولة في إدارة المجتمع، ومنع تدخلها في الحريات الفردية. فـ"جون لوك" مثلاً كواحد من زعماء هذه الفلسفة يضع الفرد مقابل المجتمع، له حقوق طبيعية خالدة مقدسة وسابقة على وجود المجتمع. وفي مقابل ذلك يرى الفيلسوف "هيجل" -استنادًا إلى منهجه المثالي الجدلي- أن التاريخ يعدّ مسرحًا لتطور الفكر المطلق، والدولة في نظره هي أرقى تجسيد لهذا الفكر، وعليه فإن حرية الأفراد عنده في مهبّ الريح، إذ من خلالها تستوعب الدولة المجتمع المدني بل تلغيه. ثم يأتي "كارل ماركس"، وفي إطار منهجه

التاريخي، يرى أن المجتمع المدني يعدّ ميدانًا للصراع الطبَقي، غير مبالٍ بمحورية العوامل الفكرية والثقافية في ذلك. وأخيرًا يأتي الفيلسوف "جرامشى" ليعيد ترتيب الأمور من جديد، فيقرر بأن قضية المجتمع المدني ليست ساحة للصراع الاقتصادي، بل ساحة للصراع الأيديولوجي منطلقًا من التمييز بين السيطرة السياسية والهيمنة الأيديولوجية. ولأن الرأسمالية الجامحة لا يهمها إلا الربح المادي وبأيّ ثمن، فقد حاولت أن تبدع منهجًا لإدارة الصراع الطبَقي الذي يتخبط فيه العالم الغربي، فنجحت نسبيًّا في ترويض المتصارعين من خلال منحَيَين، الأول: العمل على وضع يدها على أجهزة الدولة، والمنحى الثاني: الاكتساح الأيديولوجي والثقافي للمجتمع المدني.

أمام هذا الصراع المتوحش الذي يعد إحدى ثمار الفلسفة الغربية، بين أجهزة الدولة، ومؤسسات المجتمع المدني، وقف المجتمع المدني في العالم الإسلامي المثخن بالجراح الداخلية والضربات الخارجية، متفرجًا لمدة طويلة. فلما حاول الانطلاق تفرقت به السبل قددًا:

- ففريقٌ رفض السير كلية في هذا المنحى واعتبر الحل هو مخالفة المجتمع العلماني والرجوع على سيرة السلف الصالح للاقتداء بهم، دون العناء في البحث عن كيف، ومن أين، ومتى؟
- وفريق ثانٍ نادى بالسير في مسار الدول الغربية التي حققت نجاحات بيّنة في كثير من المجالات.
- ثم هناك فريق ثالث دعا إلى العمل على الجمع بين منجزات السلف التي توافق عصرنا، وإبداعات الغربيين التي لا تعارض ديننا عبر منهج تجديدي عميق. وأُقدّر أن هذا الفريق الثالث هو واسطة عقد كلامنا لعلتين:

العلة الأولى، لأن موضوع المجتمع المدني في عالمنا الإسلامي لا زالت تتجاذبه تيارات وتوجّه له انتقادات من طرف دعاة الفريق الأول؛ دعاة الرجوع إلى السلف، كما ينتقده دعاة التغريب.

العلة الثانية، أن الدعوة إلى هذا التوجه تقوده اليوم حركة رائدة عبر العالم وهي "حركة الخدمة"، والتي تتعرض اليوم إلى هجمة شنيعة من كل الجهات:

إن رؤية حركة الخدمة للعمل المدني تتجاوز الرؤية السياسية الضيقة التي أريد لأمتنا أن تنحشر فيها بكثير. إن تصور العمل المدني عند الأستاذ كولن لا يفهمه إلا مَن صبر على التأمل في فكر الرجل ورؤيته العميقة لمشروعه الحضاري الإنساني العميق.

حراء

- الأولى: بعض مؤسسات الدولة التي روّضتها الرأسمالية المتوحشة وغررت بأهلها، والتي باتت تلهث وراء الربح المادي.
- الثانية: المجتمع المدني الذي سمّمته الرأسمالية المتغطرسة، حتى بات يرى الصراع طريقًا سهلاً لحصد المغانم والفوز بالمناصب.
- والجهة الأخيرة، تتمثل في دعاة التقليد والركون إلى ما أنتجه لنا الأجداد، حيث يعتبرون العمل المدني الجديد الذي تميزت به "حركة الخدمة" انسلاخًا عن الأصول، وارتماء في أحضان مشبوهة.

في ظل هذه الأجواء المشحونة بالخصام، وفي وسط مجتمع استهوته فلسفة الصراع، ليس من سبيل أمام المجددين إلا السير على نهج المبدعين الناجحين عبر التاريخ. ولما كان أمر تنزيل ذلك موكولاً لاجتهاد المسلمين، فإن المحاولات لم تتوقف وإن النماذج تترى في سبيل الوصول إلى تنزيل نموذجي. ولأنه لا يوجد ما يمنع الاستفادة من الإبداعات والتجارب الإنسانية الناجحة ما لم تتعارض مع أصول ديننا الحنيف، فقد عملت كوكبة من فقهاء هذا الدرب على تطويع هذه المنتجات الإنسانية الناجحة من أجل تحقيق الأهداف المرجوة، ومن نجوم هذه الكوكبة الأستاذ "محمد فتح الله كولن".

الخلاصة التي تتلألأ أمام أعين كل المنصفين، هي أن حركة الخدمة استطاعت أن تخرج من الشرنقة بفضل الرجل العبقري "فتح الله" الذي نجح في عجن الأصول الإسلامية بالفلسفة الغربية فأبدع مجتمعًا مدنيًّا مثاليًّا دوّخ الناس في عصر العولمة. هذا الرجل الذي يملك من وسائل الدعاية والظهور ما لا يتسنى لكثير من الكبار الحصول عليه، لكنه لم يلتفت إلى ذلك، وبقي في الظل

يصرخ في صمت، لا يهمه سوى التفاني في خدمة الأمة بمنهجه الذي غزله غزلاً، محققًا في الأصول، مدققًا في الفروع.. ومن عجيب الأقدار أن الذي جعل الرجل يتصدر الأخبار عبر عناوين الصحف العالمية والموائد الحوارية والحملات الانتخابية اليوم، هُم خصومه وحسّاده. ولله درّ أبي تمام حين قال مادحًا أحد العلماء لما ولي القضاء: وَإِذا أَرادَ اللهُ نَشرَ فَضيلَةٍ

طُوِيَت، أَتاحَ لَها لِسانَ حَسودِ

لَولا اشْتِعالُ النارِ فيما جاوَرَت

ما كانَ يُعرَفُ طيبُ عَرفِ العودِ

لَولا التَخَوُّفَ لِلعَواقِبِ لَم تَزَل

لِلحاسِدِ النُعمى عَلى المَحسودِ

نعم لقد استطاعت "حركة الخدمة" أن تقدم للمجتمع المدني العالمي نموذجًا راشدًا للعمل المدني أبهر الخصوم قبل المؤيدين. حركة نماذجها من ذاتها نحتتها عبر سنوات، وهي اليوم تقدّم أمثلة حية على العمل المدني في كل مجالات الحياة وبدون استثناء.. عمل ضرب جذوره في أصول وثوابت الأمة، وتوغّل في آليات ومناهج المؤسسات الغربية المعاصرة، بل وتفوّق عليها في بعض الأحيان. كل ذلك لم يكن لحركة الخدمة أن تبلغه لولا تعاملها الموفّق مع تحديات الأمة وقضايا الناس وأجوبتها المتميزة على عدد من الأسئلة التي ظلت جماهير الأمة تنتظرها منذ عقود. فتأملْ قول الأستاذ كولن: "...ومع أن الحركة تستهدي بقيم الإسلام، فإن مشاريعها التي يقوم عليها المتطوعون العاملون في إطارها متماشية مع القيم الإنسانية الهادفة إلى تعزيز الحريات الفردية وحقوق الإنسان والتعايش السلمي بين جميع الفئات؛ ومن ثم وَجدت ترحيبًا في ١٦٠ دولة حول العالم، ولقيت قبولاً صريحًا أو ضمنيًّا مباشرًا أو غير مباشر من جنسيات ودول وأديان مختلفة".

أما الذي يردده البعض من فرية ممارسة الخدمة للعمل السياسي، فهو أمر يحتاج كثيرًا من الفهم والتدقيق، حول مفهوم السياسة ومفهوم السلطة، وعن أي سياسة وسلطة نتكلم؟ هل هي سياسة شرعية أم وضعية؟ هل هي سياسة العالم الغربي أم سياسة العالم الشرقي؟ هل هي سياسة الأمة أم سياسة خصومها؟ هل هي سياسة أدعياء الشرق أو الغرب من الذين يتسلمون السلطة في أجنحة الظلام؟ هل هي سياسة المستلبين أو المغرر بهم من الذين لا لون ولا رائحة ولا طعم لسياستهم، بل لا يهمهم أي قطار ركبوا؟ هل هي سياسة الذين كفروا بكل السياسات وتركوا الميدان فارغًا؟ هل هي سياسة الدراويش الذين قبِلوا بالحصة والساحة والقضية التي منحت لهم؟ هل هي سياسة المتنطعين الذين أغرقوا الساحات بدماء كثير من الأبرياء؟

إن رؤية حركة الخدمة للعمل المدني يتجاوز الرؤية السياسية الضيقة التي أريد لأمتنا أن تنحشر فيها بكثير. إن تصور العمل المدني عند الأستاذ كولن، لا يفهمه إلا مَن صبر على التأمل في فكر الرجل ورؤيته العميقة لمشروعه الحضاري الإنساني العميق. فتأمل هذا الكلام: "...إنّ الأحزاب السياسية والانتخابات الحرة هي شروط أساسية للنظام الديمقراطي، ولكنها لا تكفي بمفردها، فالأداء الفعّال والسلس للمجتمع المدني هو أمرٌ مُهم كذلك. ومن الخطأ القول إن الانتخابات هي الطريقة الوحيدة لمساءلة السياسيين أمام عامّة الناس، حيث إنّ المجتمع المدني يستمر بمراقبة السلطة الحاكمة ليرى ما إذا كانت تفي بوعودها أم لا، وذلك من خلال الإعلام والمناشط المجتمعية المختلفة وفعاليات عديدة أخرى في إطار القانون، مثل عرائض الاكتتاب ورسائل شبكات التواصل الاجتماعية. وبالرغم من أن نشطاء الخدمة التقوا على مبدأ عدم الانخراط في السياسة الحزبية وعدم السعي نحو السلطة، لكن هذا لا يعني أن يتخلّوا -كمجتمع مدني- عن مسؤوليتهم وصلاحيتهم في مساءلة السلطة السياسية ورقابتها. وبما أن الخدمة ليست تكوينًا بنيويًّا ولا تنظيمًا مركزيًّا هرَميًّا، فليس هناك وجهة نظر سياسية واحدة يتبنّاها جميع المشاركين فيها، كذلك ليس من المعقول القول إن حركة كهذه منحازة إلى حزب بعينه فضلاً عن أن تكون منخرطة فيه. فللمتعاطفين معها اختياراتهم السياسية الخاصّة، ولا تفرض الحركة أيّ وجهة نظر معينة عليهم،

hiramagazine.com

ولا تتدخل في هذا الموضوع على الإطلاق...".

نعم، حق لمن لا يعرف هذه الخدمة أو رجلها الأول أن يستكثر هذه الخلاصات. لذا فالأمر يحتاج إلى أعمال أكاديمية متخصصة لسبر أغوار الموضوع، إلا أن هذا لا يمنع من إثارة الانتباه إلى بعض الشعاعات:

الشعاع الأول: من الضوابط الجوهرية الضامنة لتميز العمل المدني عند حركة الخدمة واستقلاليته وأصالته، ارتكازه على الأساس التوحيدي الذي يربط كل سيادة أو سلطة أو تشريع بالله تعالى، ثم يأتي دور الجماعة -الإنسان- ليجتهد في تفريع ذلك وتنزيله وفق ما يحقق مصالح الناس في الحياة، ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(الأنعام:١٠٢). والمتأمل في كتابات الأستاذ كولن وخطبه، يلحظ سيطرة هذا النفَس في كل المناسبات والقضايا التي يتطرق إليها، بل إنه يغرق في بعض الأحيان إلى درجة اتهام البعض له.

الشعاع الثاني: ارتكاز فلسفة الخدمة على الأساس الاستخلافي، ومفاده أن الله تعالى استخلف الإنسان في هذه الحياة، حُكْمَهُ ومُلكه وشَرعه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠). ولعل هذا واسطة عقد الاتهامات التي توجه لحركة الخدمة، إذ في الوقت الذي يعتبر رجال الخدمة قضية التعبير عن الرأي جزءًا من واجب الاستخلاف -بمنطق المسلم- وحقًّا من حقوقه بلغة الفلسفة الغربية، يعتبره المخالفون لحركة الخدمة تدخّلاً في ما لا يعنيهم وتجاوزًا لاختصاصاتهم.

والحال أننا رأينا كيف كانت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زمن الرشد الإسلامي، من صميم مهمة العلماء فضلاً عن عامة المسلمين. ولعل قولة عمر الفاروق ﷺ مشهورة في هذا الباب: "لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها" يَقصِد كلمة الحق، والآثار في هذا الباب كثيرة. ولقد رأينا في عصرنا أن المطالبة بالحقوق والحريات في زمن العولمة يعد حقًّا من الحقوق المقدسة، يحاكم بموجبها الرؤساء وتسقط بسببها الحكومات.

إن حركة الخدمة استطاعت أن تخرج من الشرنقة بفضل الرجل العبقري "فتح الله" الذي نجح في عجن الأصول الإسلامية بالفلسفة الغربية فأبدع مجتمعًا مدنيًّا مثاليًّا دوّخ الناس في عصر العولمة. هذا الرجل الذي يملك من وسائل الدعاية والظهور ما لا يتسنى لكثير من الكبار الحصول عليه.

صحيح أن كل الحركات الإصلاحية تنطلق من هذه المرتكزات التي لا ينكرها مسلم، لكن محل الشاهد: وماذا بعد؟ ماذا بعد الإيمان والتسليم بالأصول؟ وكيف نفهمها، وكيف ننزلها؟ وما هي الوسائل؟ ما المناهج؟ وكيف نجعل العام والخاص والكبار والصغار من الناس يُقبِلون على هذه البدائل، لنقول للجميع "تعالوا انظروا، هذه بدائلنا، هذا إعلامنا، هذه مؤسساتنا، هذه مشاريعنا، هؤلاء رجالنا، هذه أمتنا".

فأي نمط من الممارسة المدنية قد يروق لمعارضي حركة الخدمة والناقمين على أهلها؟ علمًا أن هذه الحركة تفنّنت في تقديم نموذج -للمجتمع المدني- جديدٍ؛ جَمَع بين ضروريات وأصول الإسلام ومحاسن الفلسفة الغربية، فطالبت بإحقاق الحقوق ونشر العدالة واحترام الحريات، وكل ذلك من خلال منهج مليء بالتلطف والتعايش والحكمة والحلم. وتلك أسباب مركزية في منهج الخدمة، جعلت العديد من الأعيان والحكومات السابقة تتعاون معها. فكيف استحال التعاون اليوم في ظل ظروف مليئة بالمفارقات؟

مما يثير الإنسان في حركة الخدمة، تلكم الممارسة المدنية الراقية لأبنائها فضلاً عن أستاذهم، وتلك التضحيات الجسيمة، بل ذلك الجهاد الأكبر الذي طالما فصّل فيه الأستاذ كولن القول. ولعل حديثهم عن الهجرة من أجل الخدمة الإيمانية، لا يمكن تصديقه إلا من طرف مَن عايشهم وعاين صنيعهم. إن احتضان هذا الرجل لـ"فراخه" منذ زمن السنوات العجاف إلى اليوم، كما تحضن الدجاجة بيضها والصبر على تعليمهم وتربيتهم، ثم استمرار أولئك التلاميذ البررة على نفس

النهج، لَيُعدّ أكبر دليل على الإيمان العميق برسالة الاستخلاف التي كثر الضجيج حولها في كثير من بقاع العالم، لكنها لا تعدو أن تكون سحابة صيف سرعان ما تنقشع. ناهيكم عن الفلسفة التأصيلية التي يمارسها الأستاذ "كولن" في كل القضايا التي يتطرق إليها والتي تشهد عليها كتاباته وتؤيدها مؤسساته. من ذلك شرحه لحديث النبي ﷺ الذي رواه تميم الداري ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول "لَيبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين". إن الإيمان العميق بهذه الرسالة الإنسانية العالمية والاحتراق من أجل إبلاغها، لَهي أعلى درجات العمل المدني، نظرًا لما تحمله في طياتها من التنمية العميقة والصلاح الحقيقي، تتعدى آثارُه عالم الدنيا إلى عالم الآخرة. والأمثلة على ذلك كثيرة كثيرة.

لقد استطاعت حركة الخدمة أن تؤسس لمجتمع مدني جديد بناء على رؤيتها التجديدية المبنية على التلطف في التعامل مع كل الطبقات وفي كل المستجدات، والتفاني في تقديم البدائل التي أبهرت عالما من أعيان أمة التوحيد في القرن العشرين بداية من التربية السلوكية العالية، ومرورًا بالتربية التعليمية التي باتت سمتها الغالبة، ثم سلطة الإعلام التي نَكّلَتْ بمجتمعاتنا الإسلامية وحيّرت عقلاء الأمة وغررت بشبابها، إلى عدد من رجال المال والأعمال الأُصلاء، الذين وقع لثلة منهم في زمن العولمة ما وقع لأصحاب الأخدود، حتى خُيِّروا بين طريقين، ولسان الحال يقول لهم: "مَن ليس معنا فهو ضدّنا".. إلى أن جاءت وصفة حركة الخدمة التي وحّدت كثيرًا من صفوفهم وحرّرت عددًا من أنانيتهم وحبهم للدنيا، حتى أصبحت أموالهم ملكا لغيرهم، فقال قائل منهم: "كلما أنفقنا درهمًا أَخْلَفه الله لنا، فزادت ثقتنا بالله وآمنّا يقينًا بقول الأستاذ فتح الله لنا: "إن المال مالُ الله، ونحن لسْنا إلا عبيدًا له مستخلفين فيه، وعلينا أن نصونه".. إنه الشهود الحضاري للمجتمع المدني الذي تصنعه حركة الخدمة. ■

(*) جامعة أبو شعيب الدكالي، مدينة الجديدة / المغرب.

شهادات

أ.د. أحمد عبادي (المغرب):

لم يكن الأستاذ فتح الله كولن تكرارًا لنموذج معيّن، وإنما مقصده إطلاق النموذج القرآني في بناء الإنسان فردًا واجتماعًا. هو نموذج لحضارة مُعتَقَة من كل أنواع العبودية والرهق التي يعيشها الإنسان ولا يزال. تستشعر وأنت تتعامل مع كتابه "ونحن نبني حضارتنا"، أن هنالك أفقًا أُنُفًا لم يتم رصده من قبلُ. فأنت تشعر أن الأستاذ لا يتكلم عن العلوم الإسلامية باعتبارها أمرًا تم الفراغ منه وتم اكتماله، لكنه عكس ذلك يرى أنه بنيانٌ ينبغي أن يُستأنف لارتياد تلك الآفاق الأُنُف التي لم يتم ارتيادها من قبلُ.

أ.د. عبد الحميد مدكور (مصر):

من خصائص منهج كولن: التخلص من الثنائيات المتضادة التي وقع فيها مفكرون آخرون، كالقول بالتناقض بين الدين والعلم، أو بين الفكر والعمل، أو بين العقل والروح، أو بين الفلسفة والتصوف، وهكذا؛ بل إن كولن على عكس هؤلاء يعمل على مزج هذه الأمور التي تبدو عند غيره متضادة، وهو يستخلص من كل جانب منها ما يؤدي إلى التكامل مع الجانب الآخر.. فالثنائيات -في فكره- تتكامل ولا تتناقض.

عدد خاص - قضايا فكرية

أ.د. حسن مكي*

رائد الخدمة
في معية رواد الفكر والتجديد

أكرم الله ﷻ الأمة الإسلامية في القرن المنصرم بجملة من الرواد، جددوا إيمان الأمة وأعادوا إليها مطلوبات القوة والحيوية في مجالات العلم والتربية والقيادة والدعوة والسياسة والاقتصاد.. وازدهرت نوى التجديد التي غرسوها فأينعت وأثمرت، مما وضع الأمة على أعتاب مرحلة جديدة بعد عصور الانحطاط والاستعمار.

"إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس"، فطوبي للرواد الذين برزوا في مجالات الدعوة والعمل الاجتماعي؛ كالإمام حسن البنّا باذر بذرة كبرى الحركات الإسلامية في المجال الدعوي والاجتماعي والسياسي، وكالمفكر الإسلامي مالك بن نبي الذي أسهم قلمه في بعث الغشاوة عن القلوب والعقول، وكالأستاذ سعيد النورسي الذي مثلت وجهوده وخطبه وسعيه بين الناس معالم مدرسة من مدارس التجديد والإحياء -نضّر الله جهوده- كما قال الحبيب المصطفى ﷺ "نَضَّر اللهُ امرأً سمع مقالتي فَوَعاها وحفِظها وبلَّغَها" (رواه الترمذي).

وفي الهند برز سماحة الأستاذ أبو الأعلى المودودي، والأستاذ أبو الحسن علي الندوي وآخرون.. أسهموا في تجديد الإيمان في قلوب أهل الهند خاصة والأمة الإسلامية عامة. كأنما عناهم الحديث المروي عن الإمام أحمد "إن الإيمان يَخلَق [أي يبلى] في القلب كما يَخلَق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدّد الإيمان في قلوبكم".

عانت الشعوب الإسلامية أشد المعاناة في التمسك بدينها في فترة ما قبل الحربين العالمتين وما بعدهما، وتعمق صدع العقل المسلم الذي ظل مأزومًا بالفتنة الكبرى والصراعات الطائفية وسقوط الأندلس، إلى أن تجدد الصدع بتحرير شهادة وفاة الخلافة العثمانية وبروز الدولة القومية القطرية العلمانية بديلاً لمشاريع الوحدة والتجديد الإسلامي.

ووسط نيران هذه المأزومية برز رواد التجديد الإسلامي في شكل جماعات وأفراد وطوائف، وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (رواه أبو داود)، وقد يكون المجدد فردًا أو طائفة أو جماعة، والله أعلم حيث يجعل رسالته. وصاحب هذا القلم ظل -كغيره- يسعى لتفيء ظلال التجديد ما بين عبد الحميد بن باديس -وصحبته الجزائر مسلمة وإلى العروبة تنسب- وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وجهود الشيخ حسن الترابي في السودان في تجديد الفكر السياسي الإسلامي وارتفاع وعي العقل المسلم، والذي أثمر مؤسسات دعوية واقتصادية واجتماعية وشبكات تواصل يقول لسان حالها "دعوة الحق نادت بَنيها فاستجابوا لصوت النداء".

ومن تركيا برزت حركة الخدمة بجمعياتها ومدارسها وحركتها الفكرية وسعيها الدؤوب، لإعادة فتح العقل الإسلامي والعالمي بـ"اقرأ" والقلم. وكما بهرتني مساجد العثمانيين الضخمة بجمالها وهيبتها، فإن حركة الخدمة تبهرك بإخلاص رجالها وتضحياتهم وفدائيتهم.. فهم في دارفور؛ بقُراهم ومدارسهم وتساؤلهم "هل ثمة أحد"؟ وهم في ربوع إفريقيا ومتاهاتها، وهم في آسيا الوسطي يرفعون الأنقاض حتى يطلّ العقل الإسلامي من تحت الأنقاض.

مَن هم هؤلاء الرجال الذين يفتحون القلوب والعقول، ويبنون المدارس، ولا يتكلمون إلا باسم الأمة وباسم التجديد وباسم إحياء القلوب وباسم كل التراث الإسلامي والتاريخ الإسلامي؟! تجد فيهم رائحة المهندس "سنان" في إبداعه، وعبق الإمام الغزالي في إحيائه، والنورسي في سعيه المبارك، وجلال الدين الرومي في ترانيمه وابتهالاته، والإمام البنّا في تخطيطه وتدبيره.

ويعجبك رجال الخدمة بتواضعهم، فتظنّهم لأوّل وهلة، مجرّد دراويش في منظومة صوفية وغير واعين بالمسارات الكبرى التي تشكّل العقل وتحرّك التاريخ. ولكنك تفاجَأ حينما تجد بينهم رجل الأعمال الذي وجه طاقاته وماله للمشروع، وتجد بينهم المهندس والطبيب والعالم والمربي الذي يتابع ترقّياته المهنية والروحية في إطار تخصصه، وتجد بينهم الصحفي والكاتب والواعظ والمدرّس، وكل في ثغرته ولسان حاله: "إياك إياك أن تؤت حركة الخدمة من قِبلك!" وحينما تراهم، يعمر قلبك بالإيمان والحب، وتتذكر قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(فصلت:٣٣)، وقوله تعالى: ﴿يَا

hiramagazine.com

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(الأنفال:٢٤).

فتسأل "مَن وراء هذا المشروع، ومَن وراء هذا العمل"؟ فيقال لك بصوت خافت "إنه الأستاذ فتح الله كُولن".

ولكن مَن هو؟ إنه ممن نسي حظوظ نفسه من أجل خدمة غيره، ومنهجه الفناء في خدمة الآخر كسبيل للفناء في عبادة الله، والفناء في حب الآخر طالما قاد ذلك لمحبة الله.

وتسأل "أين هو"؟ فيقال لك لقد فرّ بدينه متأسيًا بموسى ويوسف عليهما السلام حيث مُكّن لكل منهما في منزل الغربة.

وتسأل "ما هو خطابه السياسي وبرنامجه الاجتماعي"؟ وتعجب أنه لا يستعجل الأمور، لأنه مشغول ببناء ما هو أهمّ وأجلّ من السياسي، فهو في شغل عن السياسي بعكوفه على بناء المسلم الذاكر، ببناء بيت الرب في قلب العبد. ومشغول بتنزيل خطاب القرآن المكّي الذي ربط بين التوحيد والتجريد والخدمة، خطاب التوحيد الذي ربط بين أفراد الله بالوحدانية والعبودية وفكّ الرقبة وإطعام ذي مسغبة واقرأ.

ولعل مفتاح حركة الخدمة في "اقرأ"، حيث تنزل خطاب "اقرأ" إلى آلاف من المدارس ليس فقط لفكّ الخط ومحو الأمّية، ولكن لإعداد جيل من الموهوبين من فُرسان العلوم الحديثة، في الربانيات والفيزياء والكيمياء واللغات وغيرها من أدوات الصعود والوثبة الحضارية، في إطار مشروع الأستاذ العابر للحدود الجغرافية والحواجز السياسية.

وحينما تدخل على مشروع الأستاذ بعقلية الحصر والعد يتيه، كما ينبّه المتبتّل والمتفكر في محراب التأمل والتدبر والنظر والجمال، حيث يدهشك جمال اللامركزية في المشروع، وأناقة النّدية بين أبناء المشروع.. ويبهرك تعدد الأوقاف؛ وقف الكتاب والفنانين، وقف رجال الأعمال، وقف الباحثين، وقف أساتذة الجامعات، وقف

حينما تدخل على مشروع الأستاذ بعقلية الحصر والعد يتيه، كما ينبّه المتبتّل والمتفكر في محراب التأمل والتدبر والنظر والجمال، حيث يدهشك جمال اللامركزية في المشروع، وأناقة النّدية بين أبناء المشروع.ويبهرك تعدد الأوقاف؛ وقف الكتاب والفنانين، وقف رجال الأعمال، وقف الجمعيات الطوعية والخيرية، المستوصفات، المدارس.. وكلها في حالة تناغم داخلي وخطاب عالمي.

الجمعيات الطوعية والخيرية، وقف التواصل والتداخل عبر شبكات التواصل الاجتماعي، المستوصفات، المدارس، دور النشر... وكلها في حالة تناغم داخلي وخطاب عالمي. وتسأل "كيف التشبيك؟"، ولا إجابة، ولكن قد تردد من باطنك: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال:٦٣).

وتسأل عن قصة المشروع وصاحب المشروع، فلا تجد إلا بعض إجابات؛ إنه من زمرة الفارّين إلى الله، والفرار إلى الله على كونه انتصارًا، إلا أنه من أصعب الاختبارات، لا يغامر في السير فيه إلا المصطفَون. ونحسبه من الطائفة، وإلا فالبدايات مكابدات حتى تسميته مع صرخة الميلاد، إذ نازعت السلطات الكمالية في تسميته، رافضة اسم "فتح الله"، والذي كسبه في النهاية عن استحقاق وجدارة وإن حرم منه في شهادة الميلاد. وتسأل عن الطفولة والدراسة والوظيفة، فإذا هي سلسلة من المجاهدات؛ الاكتفاء بالنوم على نافذة المسجد، والخشن من الثياب، والتقشّف والقليل من الإيدام، ثم الملاحقة الأمنية والعمل السري والسجن، ثم الفرار إلى الله.

هذا فتح الله كولن الذي في خاطري، والله أعلم. ■

(*) رئيس جامعة إفريقيا العالمية الأسبق / السودان.

hiramagazine.com

أ.د. فؤاد البنا*

صورة قلمية لسراج الزمن

فتح الله كولن

من يعرف ماذا قدّم فتح الله كولن لوطنه وأمّته لن يستغرب كثرةَ وقوة المدائح التي أطلقها كثير من المفكرين والأكاديميين والباحثين العرب في حق هذا المفكر الداعية، الذي يكاد أن يكون السراج الأقوى في هذا العصر وسط المسلمين. وقديمًا قال الشاعر:

والناس أكْيَسُ من أن يحمدوا رجلاً
حتى يروا عنده آثار إحسان

وكيف لا أمدحه وأنوّه به وأشيد بمحامده وفيه عشرات الخصال، ومن أبرز عناوينها السافرة في شخصيته الآسرة:

١- استمداده الرباني

إنه رجل رباني من طراز رفيع، إذ يحسن الصلة بالسماء، حيث يستبطن النصوص القرآنية، ويستنطق السنن النبوية، ويستوطن الأحداث المعاصرة، فيعيش في القلب منها، وهذا يُمكّنه من التنزيل القويم للنصوص على الأحداث.

إن قلبه معلق بالعصر الذهَبي للأمّة، عصر الضياء الذي صنعه جيل الصحابة الكرام ﷺ، والذي يصر -كولن- على إعادته من جديد، حتى إنّ أحد تلاميذه المقربين يروي أن أستاذه أخرج ذات يوم كتاب "حياة الصحابة" للكندهلوي من مكتبته، ثم التفت إليه باكيًا وقال: "كونوا مثل هؤلاء أو موتوا!".

٢- إخلاصه الباني

إنه كتلة من الإخلاص تتحرك على قدمين، حيث عُرف بأنه قوي التعلق بالله، شديد الفناء فيه، وبسبب بركة الإخلاص وتفاؤل التوكل، فقد صار رجلاً مباركًا وكريمًا، حيث يرى في الذرة مجرة، وفي القطرة بحرًا، وفي الخلية إنسانًا، وفي الفرد عالَمًا، وفي الإنسان كونًا.

٣- رؤاه الثاقبة

تؤكد خمسة عقود من زمنه المتدفق عطاء، أنه صاحب رؤى صائبة ونظرات ثاقبة. فهو في كتاباته يرفع النقاب عن الحروف، ويضع بدلاً عنه النقاط حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفكر!

كتاباته عارية عن أثواب الرياء العليل، وخالية من أغطية التسندس المتكلف، وفي ذات الوقت تجدها مكسوة بحلل الجمال الطبيعي، ومطرزة بحلي الكمال التلقائي، حيث يظهر تمكنه من نسج حرير اللغة، إذ يفصل المبنى على قدر حجم المعنى، مع أبّهة تجذب القلوب، ومتانة تسبي الألباب، وفخامة تأسر الأرواح.

ببراعة بالغة امتلك الأستاذ فتح الله كولن القدرة على العبور من "منطق الحق" إلى "نطاق الحكمة" في تعامله مع الخصوم، ولهذا لم يقابل الاعتداء باعتداء، ولم يفقد توازنه في أحلك الليالي، ولم ينفلت عن اعتداله في أحرج الظروف.

لغته رائقة السلاسة، وأحلامه تائقة العلو، وتشبيهاته فائقة الجمال.. خياله خصب، وبلاغته فارهة، وفصاحته عذبة، وقاموسه واسع، ومعانيه غزيرة، ورؤاه متدفقة، وأفكاره ثرية.

يَنظُم المباني ويُنظِّم المعاني، يجتبي الأساليب ويقتطف الأفكار، يجمع بين الأفكار المستقيمة والأساليب السلسة، يؤلف بين الرؤى المقنعة والصياغات الممتعة.. يقتنص الروائع ويختطف البدائع، يقتحم الغوامض ويكتشف المجاهل.

يجيد التقعيد بدون تعقيد، ويحسن التنظير بدون تلغيز، ويبرع في التأصيل من دون طلسمة.

٤- تنظيره المستبصر

لقد عرفنا أن كولن صاحب رؤى ناقدة، ومبدع نظرات ثاقبة، ومالك بصيرة نافذة، مما جعله صاحب تأصيل مستبصر وتنظير مستشرف.

لقد صار عقله دائرة معارف، وقلبه بستان بصائر، وصارت بصيرة فكره آية عقله، وأنوار حبه علامة قلبه النابض بالحياة.

إنه يفهم الشرائع ويفقه الوقائع، وهو يقرأ المآلات وينظر في العواقب، حتى يمكن وصفه بما قاله شاعر عربي قديم:

بصيرٌ بأعقاب الأمور كأنما
يخاطبه من كل أمر عواقبُه

ومن كل هذه النوافذ صار يستشرف المستقبل، وعلى سبيل المثال فإن مآلات الربيع العربي تؤكد نضج رؤية كولن في أن "الإنسان هو المشكلة وهو الحل".

hiramagazine.com

أثبتت الأيام أن كولن مهندس قدير، وأنه مناضل جسور في تجسير كثير من الفجوات القائمة في حياة المسلمين والتي يتسلل منها الأعداء، وتتخفى فيها الآفات. فقد بنى جسور التربية الفاعلة، وبنى جسور التجارة النافعة، وأوجد الجسور الفضائية التي تقيم اللحمة بين الناس، ومدّ الجسور الحوارية.. وتمثل هذه الجسور وغيرها جسورًا للأمة للعبور إلى المستقبل..

حراء

٥- موازنته بين الثبات والمرونة

استطاع كولن أن يمتلك باقتدار معادلة الثوابت والمتغيرات، فهو أيبس من الحجر في الثوابت وأسلس من الماء في المتغيرات، أصلب من الحديد في الأساسيات وأرقّ من الحرير في الفرعيات.

ولقد ظل ثابتًا كالجبال في أرض المبادئ والقيم والكليات، ويمور كالسحاب في سماء المتغيرات.. لا يتزحزح عن الحق قيد أنملة لكن حكمته تهبه مرونة شديدة تساعده على الانحناء أمام العواصف والانكماش أمام الأعاصير حتى تمر بسلام، وحتى في هذه اللحظات الحرجة فإنه يرمي ببذور أفكاره المثمرة في مهب الريح، ليحوّلها بإذن ربه من ريح عاصف إلى رياح لواقح.

٦- قدراته العابرة والعامرة

لقد امتلك من المواهب والقدرات والطاقات البانية ما يندر أن تجتمع في شخص واحد، فإن ذكاءه حاد وذهنه صاف، قريحته وقّادة وبديهته خاطفة، عقله راق وقلبه رقراق.

إنه شلال هادر يبرئ العليل ويبرد الغليل. فهو أديب أريب وطبيب عبقري، يستطيع شفاء الكثيرين من تورم الـ"أنا" وتضخم الذات، ويداويهم من تسفل المشاعر وتدني الغرائز.. يبني حول الإنسان حصونًا حصينة تَقيه من حرّ الخطايا وقرّ الدنايا، وتحميه من ذئاب الآثام وكلاب الموبقات.

إن قدراته تمكّنه من تصفية المياه من الأكدار، وتخليص المعادن من الشوائب، وتطهير النفوس من الأوشاب، وتنقية الحياة من الخطوب، وتساعده على إخماد نيران الفتن وإشعال مصابيح الفطن.

٧- وَصْلُه الأقوال بالأفعال

يمتلئ كولن إيمانًا وخشية، فيتكلم حاله قبل مقاله، وتستقيم أفعاله وفق أفكاره، وتسير جوارحه وراء بوصلة روحه، وتسير عربة قالبه وراء حصان قلبه.

وظل يعتبر بأن العمل بدون إيمان نفاق، وأن الإيمان بدون عمل فسق، ومن هنا فقد وَصَلَ الأقوال بالأفعال حتى انطبق عليه قول الشاعر:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم
مذق اللسان يقول ما لا يفعل

ولهذا ارتقى في معارج الخدمة، حتى وجدتُ أن الإمام ابن قيم الجوزية (ت/٧٥١هـ) -وهو يتحدث عن خدمة المؤمن- كأنه يصف كولن، حيث قال (أي ابن القيم): "ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، وإنما العجب من ضعيف مقيم تعتوره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف مع الخدمة، غير متخلف بما يقدر عليه"(١).

٨- مهاراته البستانية

أثبت كولن أنه بستاني ماهر، فما فتئ يضع بذور الورود الربيعية في أحشاء الشتاء القارس. إنه يتقن إلقاء بذور الخير، واستنبات شتائل المعروف، وتثمير سنابل العطاء، وتثقيل عناقيد الكرم، وتفتيق مشاعر الجمال، وتفتيح أزهار العشق.

ولِتعَمْلق كولن في هذا السياق يصح أن نقول فيه ما قاله الشاعر العربي:

إنما أنت ربيعٌ باكر حيثما صرفه الله انصرف

٩- طِبُّه النطاسي

ما فتئ كولن يعمل على تخليص المسلمين من أوجاع الجنوح، ويحلِّيهم بأجنحة السمو في عوالم الحياة الصّحية وفي سماوات القيم والمُثُل الراقية.

وظل يدأب من أجل معالجتهم من وحشة القلوب

hiramagazine.com

ووحشية النفوس، ولم يملّ من التحذير من الأفكار التي تصيب الإنسان باعتلال الصحة والمزاج، وقد تؤدي إلى قتله، وهو هنا يتفق مع علماء التنمية البشرية، ومنهم الدكتور إبراهيم الفقي الذي عارض مقولة أن "الناس يموتون بسبب ما يأكلون"، ذاهبًا إلى أن الناس يموتون بسبب ما يأكلهم وهي "الأفكار السيئة".

١٠- براعته الإنقاذية

ظل يدأب من أجل استنهاض الناس من مراقد الضلال، وانتشالهم من مساقط الظلام، واستجماعهم من أنحاء التشظي، واستنقاذهم من مهاوي التردي.

وقد نجح في الغوص في أعماق المجتمع التركي حتى استطاع -بمعونة الله- استخراج كثير من الشباب من مستنقعات "الخليلات" واقتيادهم إلى بحيرات "الحليلات"، على سبيل المثال.

وفي زحمة الأعمال الإنقاذية وفي غمرة انشغاله بإطفاء الحرائق، لا أدري إن كان قد نسي أن يتزوج؟! أم أنه قد عقد قرانه على "الخدمة" بعد أن رأى عزوف أكثر المسلمين عنها؟!

١١- قدراته الهندسية

أثبتت الأيام أن كولن مهندس قدير، وأنه مناضل جسور في تجسير كثير من الفجوات القائمة في حياة المسلمين والتي يتسلل منها الأعداء، وتتخفى فيها الآفات.

فقد بنى جسور التربية الفاعلة وهي المدارس، وبنى جسور التجارة النافعة من خلال جمعية "تُوسْكُون"، وأوجد الجسور الفضائية التي تقيم اللحمة بين الناس وهي القنوات الفضائية، ومدّ الجسور الحوارية عبر منتديات الحوار، وتمثل هذه الجسور وغيرها جسورًا للأمة للعبور إلى المستقبل. ولغزارة الجسور التي بناها كولن فقد تحدثنا عنها في مقالة مطولة يمكن أن تصبح كتابًا(٢).

وبسبب قدراته الهندسية عمومًا، فقد ألف المفكر الجزائري الدكتور سليمان عشراتي كتابه القيم: "هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن"(٣).

ولقد ظل "كولن" ثابتًا كالجبال في أرض المبادئ والقيم والكليات، ويمور كالسحاب في سماء المتغيرات.. لا يتزحزح عن الحق قيد أنملة لكن حكمته تهبه مرونة شديدة تساعده على الانحناء أمام العواصف والانكماش أمام الأعاصير حتى تمر بسلام، وحتى في هذه اللحظات الحرجة فإنه يرمي بذور أفكاره المثمرة في مهب الريح ليحولها بإذن ربه من ريح عاصف إلى رياح لواقح.

١٢- أخلاقه الرفيعة

امتلك كثيرًا من الخِلال العالية والخصال البانية، ومن الصعوبة بمكان الإحاطة بها في هذه العجالة.

وما نود الإشارة إليه هنا، هو أنه كلما ازداد عروجًا في سماء الأخلاق ازداد تواضعًا وانغراسًا في أرض الناس.

وعندما خفض جناح الذلّ لتلاميذه، أكبروه حتى رفعوا له جناحًا آخر هو جناح المهابة، حيث ارتفع عندهم إلى سماء العلياء وأعالي السماء.

١٣- جاذبيته الشديدة

امتلك عشرات الخصال الظاهرة والباطنة التي منحته "كاريزمية" آسرة وشخصية جاذبة، فقد ظل مع ربه يكثر الخلوة، ومع دعوته يشعل الصبوة، ومع إخوانه يطفئ ذُبالات الجفوة، ومع خصومه لا يميل إلى القسوة.

إذا تكلم أبان، وإذا جادل ألان، وإذا استطاع أعان.

يمتلك قدرة هائلة على الإقناع، ومما يروى في ذلك أنه استطاع خلال بضع دقائق أن يحول مجرى حياة أحد رجال الأعمال ١٨٠ درجة، والذي كان قد بنى لأبنائه بضع فلل راقية في أحد أفخم مناطق إسطنبول تدعى "تل العرايس"، وجاء يريد التبرع بمغسلة للموتى، لكن كولن أقنعه بأن الأحياء أحوج إلى الغسل من الأموات، حيث تمتلئ الكثير من العقول والقلوب بالأدران، وحثّه على إرسال تلك الفلل إلى الآخرة حتى ينمّيها الله لأولاده، وقد صارت تلك الفلل مدرسة "جُوشْكون" في تلّ العرايس لتربية عرايس المستقبل التي يرابط في

ثغورها أبناء الخدمة من تلاميذ كولن.

١٤- حسه الوحدوي

منذ بداية دعوة كولن وهو يحترم الكل ويحتضن الجميع، ينظر إلى كافة مكونات الأمة على أنها أعضاء في جسم واحد، ولو كان بعضها عليلاً.

يحسن الظن بالآخرين، ويبحث لهم عن أعذار، يفرش للجميع سجادة التسامح ويصبر على الأذى؛ لأنه يؤمن "أن هذه الدنيا ليست بدار شكوى، بل دار تحمّل".

ويمتلك في هذا السياق مقدرة هائلة على جمع أوجه الحقيقة، وتأليف أبعاد الصورة، وعلى اقتلاع جذور الشرور واستزراع دوحات الخير، وقطع رقاب الفجور وإطالة أعناق التقوى، وعلى تمزيق أواصر العصبيات ومد جسور المودات.

إنه يهدم بؤر الفساد ببناء خلايا الصلاح، ويستأصل أشواك الاختلاف بتنمية فسائل الائتلاف.

وساعده على تنمية حسه الوحدوي حساسيته الشفافة التي جعلته رقيقًا وحذرًا في التعامل مع الآخرين، بل وجعلته يخطط لكل شيء بشكل دقيق وهو التدقيق الذي يشطر الشعرة إلى أربعين شطرًا كما يردّد دائمًا في كتبه.

١٥- حكمته البالغة

امتلك كولن دهاء الحاني وحنو الداهية، فما برح يعلّم تلاميذه كيف يتجنّبون الشراك، وكيف يبتعدون عن الشباك. يحدب على تلاميذه كعطف الدجاجة على أفراخها، مدربًا إياهم على الحذر من الوقوع في الفخاخ.

لقد علّم تلاميذه صعود الذُّرى العالية مع الحرص على تنفس الصعداء، وتنسم عبير الحرية وأريج الكرامة؛ حتى لا تخنقهم غازات العبودية ومخلفات الاستبداد والفساد.

لا تكُفُّ سحب حكمته عن الهطل في أرض عواطفه، زارعًا الأيْك التي تمنع تراب العواطف من الانجراف مع أعاصير الانفعالات الصماء وسيول الفتن العمياء.

وببراعة بالغة امتلك القدرة على العبور من "منطق الحق" إلى "نطاق الحكمة" في تعامله مع الخصوم، ولهذا لم يقابل الاعتداء باعتداء، ولم يفقد توازنه في أحلك الليالي، ولم ينفلت عن اعتداله في أحرج الظروف.

ولهذا يمكن اعتباره من فلتات الدهر، حتى يصح أن يقال فيه: حلف الزمانُ ليأتينّ بمثلِهِ

حَنَثَتْ يمينُك يا زمانُ فكفِّرِ

١٦- خدمته السابغة

يَعتبر كولن أن الخدمة هي الوظيفة المركزية التي خلق الله الإنسان من أجلها، ولهذا فقد انهمك في خدمة الناس حتى الإنهاك، حيث أصابته عدد من الأمراض القاتلة واستوطنته العديد من الأسقام الفاتكة.

وهو يرى أن الدنيا ليست دار جزاء بل دار خدمة، وفي تقسيمه للأرض لم يسِرْ وفق التقسيم التقليدي الذي يقسمها إلى "دار إسلام" و"دار كفر أو حرب"، بل قسمها إلى دار إسلام و"دار خدمة".

وفي هذا السبيل ظل يشجّع كل عمل إيجابي مهما كان صاحبه، واستمر يحصد الشرور بمنجل الحكمة، ويقتلع الأشواك بفأس الفطنة.

وصارت روحه من الذكاء بحيث تعرف "كيف تستنبت الورود في قلب الفلاة، وتستخرج السكر من جوف القصب، وتحقق أرباحًا متنامية حتى في مواسم الكساد والخسران"، كما ورد عند توصيفه للإنسان الكامل في مقالته: "المجتمع المثالي"[٤].

وكما استطاع كولن -بفضل الله- تحويل نار العلمانية المتطرفة في تركيا إلى برد وسلام، فهو قادر بإذن الله على تحويل الأكفان -التي يعدها للأمة أعداؤها- إلى قمصان. ■

---

[*] أستاذ الفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

الهوامش

[١] الفوائد، ابن قيم الجوزيّة، ص:٢٠٦.

[٢] كولن وصياغة فقه الائتلاف، عبقرية فتح الله كولن، د. فؤاد البنا، ص:١٦٩، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

[٣] هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراتي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

[٤] مجلة حراء، العدد:٣١ (يوليو - أغسطس ٢٠١٢).

hiramagazine.com

أديب إبراهيم الدباغ*

روّاد الإصلاح والتجديد
فتح الله كولن الْمَعلَم والمثال

عُمرُها إلى هذا اليوم أربعة عشر قرنًا ونيفًا، وهي تَشقُّ طريقها بين أمم الأرض حاملةً على كاهلها "القول الثقيل" الذي اعتذرت عن حمله الأرض والسماوات والجبال وأشفقن منه. غير أنها -وبين زمن وآخر- تنوء بحملها، فتتعثَّر في خطاها، وتتخبّط في سيرها، وربّما سقطت أرضًا وابتلعها سحيق ظلام، وغيبتها هوة نسيان، فَيُظَنُّ أنه لا يُرجى لها بعد ذلك من قيام، ولا يُؤَمَّلُ لها من نهوض.

ولكن سرعان ما يَنْشَقُّ عنها إمامٌ عظيم ومُنْقِذٌ فَذٌّ على دراية وإدراك بالمآتي التي أتت منها الأخطار، وتوالت منها عليها الضربات، فيأخذ بيدها، وينتشلها من هوتها، وينهضها من سقطتها، ويصلح من شأنها، ويعدل معوجها، ويقوّم صلبها، ويشدُّ من أصرها، ثم يوقفها مرةً أخرى على المحجّة البيضاء، ويدلّها على الطريق المستقيم، فتعاود المسير، وتباشر الطريق بخُطًى ثابتة بلا تردّد ولا تعثُّر، وهذا هو المصلح المجدّد الذي يجيء تصديقًا لقوله ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَن يجدّد لها دينها" (رواه أبو داود).

وتأتي قوة تأثير هذا المجدِّد في فكر الأمة وروحها من استقرائه لتاريخها، ومن إدراكه لأعماقيات ذاتها، وتكوينات ضميرها، كما أنه على دراية جيدة وإحاطة شاملة بالمجهودات التراكمية لمجدّدي ثلاثة عشر قرنًا من قبله، والإفادة من تجاربهم ومعاناتهم، وبتجنّب إخفاقاتهم، ومدارسة نجاحاتهم؛ فتأتي أفكاره وآراؤه مغربلة بغربال العقل، ومصفّاة بمصفاة الكتاب والسنّة، فيمضي مع أمّته في قفزات نوعية ووثبات مفصلية لمسابقة الزمن واستدراك ما فات من عوامل النهوض والتقدّم. فالاستبصار الذي هو من خصائص الإمام المجدّد،

يمنحه قوة نفاذ إلى خفايا النفس البشرية ويبصره بعوامل تحريكها في الاتجاه التجديدي الذي يسعى إليه، كما أنه سيحظى بأفضل الوسائل التي تساعده في مهمته التجديدية لهذا القرن المليء بالتحدّيات والإشكالات. وهو القرن الذي يتوقع المجددون والإصلاحيون أنْ تتلاشى فيه وتذوب كل الأزمنة السابقة وتتوحد معه وتعطيه زخمًا يدفعه إلى انعتاق من سجن زمانه، والخلاص من وزر خطاياه وآثامه.

والإمام المجدد يبعث في الأمة إحساسًا بالانبعاث الداخلي، وهو يجتاح عقلها ووجدانها كالعاصفة المطيرة المدوية تدمر العتاقة والعفونة من جهة، وتبعث الحياة والنَّماء من جهة أخرى، وتعمل على الارتفاع بالروح صعودًا إلى الأعلى حيث تعيش في أجواء عقلية مَوَّارة وخصبة، فتتنفس فيها التجديد والابتكار والإبداع، فيزيد نشاطها الإشعاعي العالي إلى كل جهة من جهات الحياة الإنسانية في ترابط كياني داخلي ينتج عنه إحساس بالقوة والتحكم والتحرر، فلا تذهب حياته هدرًا لا تأتي بشيء ذي أهمية، وهذه هي الاستنارة العقلية التي يعوّل عليها الإصلاحيّون في مشروعهم الإصلاحي مع الأمم.

كما أنَّ الإمام المجدد ملزم أن يلاحق المسافات البعيدة من الروح والفكر ولا يكتفي بالمديات القصيرة والبطيئة منهما، فالمديات البعيدة من الروح والفكر مفعمة بالطاقات الانفجارية التي تسهّل مهمّة المصلح أو المجدد في إنشاء الإطار الاحتوائي لكل نشاطاته التي يمارس من خلالها عمله الإصلاحي، فهو يتعشق الحياة ويعمل من أجل إخصابها وزيادة حيويتها، ومن جانب آخر يكافح ليمنع الأمة من اجترار آلامها وإحباطاتها، والحيلولة دون وقوعها فريسة تحت سطوة ميلها إلى الانتحار الروحي في دوامة يأسها وقنوطها وشعورها بالقصور والدّونية إزاء الأمم الأخرى.

فهندسة بناء الفكر الروحي والإيماني لهذه الأمة، موجودة في تخطيطها الأولي منذ الأزل وإلى الأبد في سور القرآن الكريم وآياته وكلماته، ومحفوظة صورتها في مخيلة الكون الغيبي والحسي وفي عقليهما على حَدٍّ سواء، وهي في انتظار -في كل وقت وفي كل عصر- لرجل العمق والنفاذ للاطّلاع عليها والاستفادة منها في بناء صروح الإصلاح والتجديد في هذه الأمة. فكل عمل إصلاحي أو تجديدي يعجز عن بناء الروح الإبداعية، وفتح أبواب طلاقة التفكير في نفس المسلم عمل محكوم عليه مسبقًا بالفشل كما يرى الإمام الإصلاحي والمجدد "فتح الله كولن"، لأنه بدلَ أن يكون عامل انفتاح على عالمي الغيب والشهادة، يتحول إلى هبوط وتقهقر في سياقه الوجودي الأصيل، وهذه هي الإشكالية الصعبة التي يعكف "الإمام" على حل عقدتها، وتفكيك تشابك خيوطها.

ولئن كان عالم الإسلام قد عانى الكثير من الاضطرابات والنزاعات -وحتى الحروب وغزارة الدماء- بسبب الخلاف الجدلي والصراعي بين مفهومي "الإمارة" و"الخلافة" في قرون الإسلام الأولى، فإن هذا الخلاف لا زال صداه يدوي في أروقة أصحاب الدعوات، ولا زال يسبب للأمة الكثير من المآسي والأحزان والتفرّق والافتراق... ومنذ سادت مفاهيم "الإمارة" و"الملك العضوض" وغابت مفاهيم الخلافة الراشدة، وجلس الأمير على كرسي "الإمارة" والحاكم على كرسي الحكم، منذ ذلك الوقت أصبح "الحاكم" يتوجس خيفة، ويعيش مرعوبًا من أي تجمع حتى إنْ كان هذا التجمّع لا يتجاوز عدد أصابع اليدين، وحتى لو كان هذا التجمع من أجل دعوة إلى معروف ونهي عن منكر... فكبرى مشاكل هؤلاء الحكّام، شعورهم بالذنب لتغييبهم معنى كبير من معاني الخلافة، وبالانهزام النفسي من نهاياتهم الحزينة، وعدم الاطمئنان إلى أولئك الذين يشكّلون حزامًا بشريًّا يحتمون به. إنها الشكوكية القاتلة التي تتحول مع الزمن إلى فكرة أصيلة في ذهنية الحاكم، فمن دَيدَن هؤلاء الحكّام التظاهر بالقوة بكيل اللعنات والأكاذيب والاتهامات لكل مَنْ يرفض أن يسبّح بحمدهم أو يؤمن بأنهم مناط الأمل والخلاص من عذابات شعوبهم.

فبعض أصحاب الصَولجان والهيلمان في تركيا اليوم، مِمَّن قلبوا لنا ظهر المِجَنّ، يعيشون أحلامًا كابوسية مرعبة تُلازمهم في نومهم ويقظتهم، وليلهم

hiramagazine.com

ونهارهم؛ رجل واحد أَقَضَّ مضجعهم، وأطار النوم من أعينهم، رجل اسمه "فتح الله كولن".. لا لشيء -أستغفر الله- بل لشيء واحد هو أنه استطاع من خلال كتبه ومحاضراته وخطبه ومقالاته، أنْ يضع في رؤوس طلبته فكرةً، وفي قلوبهم لوعةً، وفي عيونهم دمعةً، وعلى شفاههم ذكرًا، وعلى ألسنتهم حمدًا وشكرًا، وفي أفئدتهم رجفةً وخشيةً، وفي ليلهم قيامًا، وفي نهارهم صيامًا... يصلحون ولا يفسدون، يعمرون ولا يهدمون، ويحلمون ولا يجهلون، ويعطون ولا يأخذون، ويضحون ولا يغنمون... هؤلاء هم طلبة "فتح الله كولن".

إن "الخدمة" بمؤسساتها المختلفة إنما هي قوة اندفاعية لحياة المجتمع، إنها روح سام وعقل اقتحامي وَثَّاب... وهي ليست ابنة حقبة زمنية معيّنة، بل هي الحقبة الزمانية المعنية نفسها، وهي إحدى التجارب الحية التي تغري الباحثين للمزيد من الدراسة والبحث والتقويم، فهذه الخدمة تعني في كثير مما تعنيه أنّ هناك طريقة أخرى للعيش، طريقة مجدية وذلك بواسطة تعاون العقل والتجربة، وتناغم العقل والوجدان، والروح والمادة.

كما أنها تعمل من الناحية السيكلوجية على جعل العامل فيها يعود إلى نفسه، ويصالح ذاته، ويلتقي وجوده، ويستخرج من هذا الوجود قواه الفاعلة غير المنظورة، ويسخّرها للتجديد والإبداع والابتكار، وبذلك يتخلص من جحيم وجوده الداخلي الذي تؤججه فيه السكونية والبطالة واجترار الزمن الميت، بينما تظل غريزة الحياة الملتهبة في داخله تستحثه لكي يلقي بنفسه في دوامة العمل ويكرّس وجوده للفعل والانفعال.

فرجل الخدمة يأسف شديد الأسف ويرثي لأولئك الناس الذين يضطرون لسببٍ ما إلى قضاء هذه الحياة بهذا الشكل الفاتر والتافه والمدمر... فرجل الخدمة لا يعرف الراحة، ولا يستنيم لها، ولا يقبل أنْ تغلبه، وكلما جنح إلى شيء من الراحة أحسَّ بألم في روحه يفزعه ويقضّ مضجعه... إنه كالطائر الذي انطلق من قفصه يموت ولا يعود إليه مرة أخرى. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

شهادات

د. عبد الله بن عبد العزيز المصلح (السعودية):

لقد ربّى محمد فتح الله كولن تلاميذه بالدموع قبل أن يربّيهم بالكلمات، ربّاهم بالإخلاص، فلماذا لا نفعل ذلك؟! فتح الله كولن كان يجتمع في دروسه الآلآف، ولمّا اجتمعوا ما طَلبَ منهم أنْ يكون مسؤولاً سياسيًّا ولا أن يكون ثريًّا اقتصاديًّا، حتى الزواج ما تزوج. وإنما بدأ بصناعة جيل من أمثال هؤلاء الإخوة، هؤلاء الشباب.. ربَّاهم.. حرِص عليهم.. نمَّا فيهم الإيمان. كأنِّي به وقد أخذ بمنهج رسول الله ﷺ.

أ.د. عبد المجيد بلعابد (المغرب):

فتح الله كولن رجل في أمة، ونحن في المشرق وفي المغرب في العالم الإسلامي كلنا فتح الله كولن. إنه وهب نفسه لله، وهب نفسه لهذه الأمة. لم يتزوج ولم يكن له أولاد، فحسبه أننا نحن أبناؤه وحاملو أفكاره.

أ.د. سليمان الدقور (الأردن):

الأستاذ فتح الله كولن، أعتقد أنه تحقيق لقول الرسول ﷺ: يبعث الله على رأس كل مئة عام لهذه الأمة مَن يجدد لها أمر دينها.. التجديد الحقيقي الذي يقوده الأستاذ فتح الله كولن في الفكر والوعي والفهم والحركة في التكامل والشمول، نموذج ينبغي أن يتعرّف إليه العالم كلُّ العالم.

د. عبد الإله بن مصباح*

فتح الله كولن
عالِمٌ أَسَّس لفكر حضاري

لا شك أن العلماء هم شموع هذه الأمة، الذين لا يُعرف قدرهم إلا حين يُفتقدون أو في الليالي الظلماء التي فيها يُفتقد النظر. وما أشبه هذا الزمان بتلك الليالي لما يشوبه من ظلامية في الرؤى حول حقيقة الحق ومزاعم الباطل. فلولا وجود رجال حملوا على هدأة من حمّى الأحداث همّ الخدمة، لَما رأت إنسانية الإنسان فيه النور ولَما وجدت من يعيد وضع قاطرة الفكر على مسارها الصحيح حتى يُستبان الحق فيه من الباطل.

أولئك هم الشموس والمصابيح الذين بأنوارهم تنورت المفاهيم، فسلكت المسار الكوني القائم على الموازين العلمية الموصلة إلى الكشف عن الثوابت

اليقينية. والنموذج في شخص عالم هذا الجيل، الأستاذ فتح الله كولن -وهو أحد هؤلاء الرجال الذين سخّرهم الله لخدمة هذه الأمة- الذي استطاع بنورانية علمه أن يضع لبنات التأسيس لمدرسة فكرية تتكامل فيها عناصر الواقع والعقل والوحي تكاملاً يذكر بذلك الماضي المشرق للأمة الذي كان فيه الفقيه عالِمًا والعالِم فقيهًا. ذلك الماضي الذي باستقامة فكر علمائه على درب الاستقامة الكونية استقامت العلوم، فأشعت بنورها على القارات الثلاث مشيّدة لحضارة شكلت مهد بناء النهضة العلمية الحديثة.

ومن هنا حق علينا تقديرًا لروح الأمانة التي نحملها إزاء ما ينبغي أن نشيد به من جهود علمائنا الأجلاّء، خدام هذه الأمة الأوفياء، أن نعرّف بقدر هؤلاء الرجال لإظهار آثار تجلياتهم النورانية على استنهاض الهمم في بناء فكر الحضارة الإنسانية.

فلقد سَرَّ اهتمامي الشخصي بالغ السّرور بأفكار فتح الله كولن وبرؤاه التي جعلتني أعيش فترات من المتعة العلمية[1]، أحسستُ من خلالها أنني أمام شخص يتمتع بروحانية عالية وقوة هائلة على العطاء والإلهام. ذلك أنني كنت كلما أنجزت موضوعًا فكريًّا أو بحثًا علميًّا إلا ووجدت نفسي في لب مدرسته الفكرية وكأنني في صلب رؤاه الآفاقية يستوعبني نهجه التجديدي في إقامة أسس العمارة وتشييد صرح الحضارة. فكنت وأنا أطالع لهذا العالِم في بحور ما ألّفه من درر ونفائس، لا أجده يحيد أبدًا عن مبدأ الربط بين العقل والقلب، محاولاً دائمًا إيصال الإنسان بالكون ليذيب فيه وحدته الداخلية ويؤنسه بمعية الحق متى أوحشته العوالم الخارجية. فكنت أجد في نظرته للكون استنهاضًا لهمة التفكر التي هي أعظم باب يدخل منه الإنسان على الله. ذلك أنه من خلال نظرته هذه أَسّس لمدرسة فكرية عنوانها التفكر في حقيقة كل شيء، من خلال شحذ عزيمة البحث الرزين المنبني على مطالعة الكون وقراءة الأنفس من منطلق إيماني صرف.

فلم يكن يجِد نعيمه إلا في الشقاء بعقله والقلم، حتى علا بنورانية فكره إلى أعلى القمم، فأصبح

إن الأستاذ فتح الله كولن هو أحد الرجال الذين سخّرهم الله لخدمة هذه الأمة، فاستطاع بنورانية علمه أن يضع لبنات التأسيس لمدرسة فكرية تتكامل فيها عناصر الواقع والعقل والوحي تكاملا يذكر بذلك الماضي المشرق للأمة الذي كان فيه الفقيه عالما والعالم فقيها.

يشكل مصدر إلهام لكثير من المتطلعين إلى بناء ذلك المجتمع المثالي الذي فيه يكمل الإنسان بكمال فكره، وفيه يستقيم باستقامة علمه. ذلك أن الأستاذ استطاع بنبرة فكره المستوحاة من الكتاب والسنة أن يضع لبنات التأسيس لمدرسة تندمج فيها المنظومة العلمية مع القيم الأخلاقية، لتهيئ البيئة الصالحة، لتبلور رؤية الإسلام الوسطية المنخرطة بشكل حيوي مع الحداثة العالمية. تلك الرؤية التي من خلال الفهم المتبادل والاحترام المتواصل، يستطيع الفرد المسلم بالحجة والإقناع، جعل الآخرين يقبلون بأفكاره ويتفاعلون مع أساليبه. وتلك أسس بناء الفكر الحضاري.

فالعصر الذي نحن فيه، له من المعوقات ما إن تداعياته لتستدعي منا نضجًا علميًّا فائقًا، ورشدًا فكريًّا لائقًا بمستجدات هذا الزمان الذي نرى حاجة الإنسان فيه إلى إنسانيته أصبحت ملحة أكثر من أي وقت مضى. وهذا أجده تجلى على عدة مستويات في فكر الأستاذ فتح الله كولن، الذي بتحديثه المداركَ في فهم القرآن وبتأصيله لعلاقة التفاعل بين العلم والإيمان، وببحوثه المقاصدية في ترشيد فكر الإنسان، قدّم نماذج راقية لانبعاث روح الاجتهاد والتجديد وتوجيهات نيرة لبناء فكر علمي رشيد. فلا يسعني إلا أن أقف وقفة إجلال وتقدير لهذا العالِم الذي يحمل همّ أمة، كالشمعة تحترق لتنير الطريق للبشر، وكالشجرة تشقى لتمد الغير بالظل والثمر. هذا العالِم الذي برؤيته المنسجمة مع موازين الكون المؤسِّسة لمدرسته الكبرى التي عنوانها البناء الحضاري، ألهم الكثير من الباحثين بتحليلاته المعمقة، وأيقنهم أن المعرفة التي لا تحمل همّ العشق العلمي لا

hiramagazine.com

يمكن لها أن تُسهم في البناء الحضاري المنشود.

ففي مدرسة هذا المفكر التقي الورع النقي، نقرأ في صفحات منظومته الفكرية تجليات حلّق بها في سماء اليقينيات العلمية من خلال نظراته الاستشرافية التي كانت مفاتيح لأغلاق حيّرت -وما تزال- عقول الأجيال الباحثة عن مكانتها المفقودة بين الأمم. بحيث إذا تأملنا في رؤيته للمسار الذي يجب أن تكون عليه التجربة العلمية لهذا الجيل، نجد أنه يحث بكل قواه على مبدأ الربط بين العلم والإيمان لا لشيء إلا لكون الصلة بين العلم والدين هي صلة جديدة قديمة تربط بين موضوعين أزليين قدر الحق سبحانه أن لا فراق بينهما بدليل الآيات. ومهما حاول الإنسان أن يفصل بينهما، لم يزده فعله إلا خروجًا عن الطريق الصحيح، وتضييعًا للأمانة التي حملها، لأنه كما يتبيّن من خلال استقرائنا لتجربته الفكرية، أن العلم الذي يكتسبه الإنسان لابد -إن هو سلمت فطرته- أن يلتقي مع الدين فيكون ثروة للدين. لكن إن هو ضعفت فطرته، فإن علمه قد يتعارض مع الدين فيكون ثورة عليه.

ومن هنا تظهر نظرة الأستاذ فتح الله كولن بخصوص آثار الفطرة السليمة على سلامة مسار العلوم التي يجب أن تستقيم باستقامة الإنسان. من أجل ذلك نجده يركز في كثير من محطاته الفكرية على الربط بين العقل والقلب، ذلك لأن الله جعل للإنسان من التناسق بين العقل والقلب، ما ينسجم تمامًا مع تناسق الكون والقرآن وهداه إلى هذا الانسجام بيقينيات علمية فصّلها له سبحانه في آيات قرآنية يتناسق سياقها مع تناسق علل الكون تناسقًا يجعل المتعامل مع كتاب الله -إنْ هو أقبل عليه بقراءة علمية متجددة- يصل إلى قناعات تمكّنه من إثبات صحة ما جاءت به العلوم المكتسبة من جهة، ثم توظيف الحقائق الثابتة لهذه العلوم في توسيع الفهم الصحيح لمعاني آيات الذكر الحكيم من جهة أخرى.

فالقرآن الكريم الذي كان الشهادة العظمى في رؤى أستاذنا الجليل من خلال ما حمله من نفحات العشق والإثارة في كيانه هو على خلاف العلم البشري يخاطب الناس عن طريق ضرب الأمثال مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾(العنكبوت:٤٣). وهذه الأمثال التي تنطوي على معاني علمية عميقة، غالبًا ما نجد الآيات الكونية تعرضها كفضاءات واسعة للتفكر والتدبر من خلال ما تحمله دلالاتها من مغاز علمية لا تنقطع عجائبها ولا تنقضي غاياتها. فهي وإنْ لم تأت بالتفصيل العلمي للظواهر التي تناولتها، إلا أنها رمزت إلى أسرارٍ تستبطنها، الإنسانُ مدعوٌّ إلى سبر أغوارها. فلا نجد في كتاب الله تفاصيل علم الأحياء، ولا ميكانيزمات فيزياء رفع السماء، ولا معادلات نصب الجبال، ولا آليات تسطيح الأرض، ولكن نجد فيه الدعوة صريحة إلى البحث في أسرارها، لا لشيء إلا لأنها تريد منك أيها الباحث الوصول إلى معرفة ما وراء كل ذلك، وهو الله عز وجل.

ومن هنا نجد الأستاذ فتح الله يتعامل مع القرآن تعامل العالِمين الذين عقلوا خطابه، محذّرًا الباحثين العلميين من أن يأخذوا نصوص الوحي فذة، ويحصروا معانيها في مفاهيم علمهم المخبري، حتى لا يُخضعوا كلام الوحي لبراهين العقل فيُحتج بالعلم على القرآن؛ لأن ما جاءت به هذه النصوص لا يمكن للعلم البشري أن يحصر معانيه في تصوراته العقلية. فالعلم الذي جاء به العقل، لا تخرج معاني كلماته عن محدودية ألفاظها، لكن علم القرآن هو أوسع من ذلك بكثير؛ إذ يخاطب الإنسان من خلال أمثال ورموز قد تبعد كل البعد عن التصانيف المتعارف عليها في المراجع العلمية. وعليه فإنْ نحن قرأنا نصوص الوحي قراءة لفظية فذة مجردة عن أبعادها الدلالية، فسنكون قد مررنا بجانبها مكبلين بمحدودية اللفظ. لكن إذا أخذناها من بُعدها التأملي الذي تضربه لنا الأمثال التي جاءت بها الآيات، فسنكون قد تحررنا معها من محدودية اللفظ إلى فضاء البحث والتفكر الذي يرمي إليه فكر الأستاذ كما رأينا، والذي يسطر كتابُ الله مجالاته بين بعدي الزمان والمكان. وهما البعدان اللذان عليهما يتأسس المختبر التجريبي الذي فيه تتم صياغة الفكر العلمي الموجِّه لمصير الإنسان، والذي يبقى دورُ العالِم فيه دورَ تدبير للحياة هو مسؤول عنه إلى يوم القيامة.

hiramagazine.com

وهذا هو ما انطوت عليه تصورات الأستاذ فتح الله كولن في صياغة الفكر الحضاري، وهو ما قصد إحياءه في همة كل باحث في ميدان العلوم من خلال ما عرض في مختلف مؤلفاته من توجيهات وأفكار. فهو كان يرى في الكشف عن الحقائق الكونية وإظهار دلالاتها الإعجازية تعمقًا في الإيمان يمتد إلى المعرفة الحقيقية ومنها إلى المحبة فاللذائذِ الروحانية. فكان من كل ذلك، يهدف إلى رسم الطريق لكل سالك يطلب الرقي في سلّم الكمال، ذلك الكمال الذي من أجله خُلق الإنسان والذي كان -وما يزال- هدف الأستاذ الأسمى في مشروع الخدمة. فكان همّه الأكبر في هذا المشروع، استنهاض همّة العلم والمعرفة، إيمانًا منه بأن القرآن من خلال تذكيره بأن العلماء هم الذين يخشون الله حقًّا، إنما يقوم بتشويق الناس لتحصيل العلم. الشيء الذي جعله ينظر دائمًا إلى الدين نظرة عقلانية تتماشى ومستجدات العصر، بحيث كان يرى في الدين نصوصًا تجمع بين العقل والإذعان، أيْ كما تنقلك مما يلائم العقل والمنطق إلى ما يستوجب التسليم والإذعان، كذلك إذا انطلقت منها مما يستوجب التسليم والإذعان، فستصل بك حتمًا إلى ما يتوافق مع العقل والمنطق.

وهكذا، فكما حقّ علينا نحن معشر العاملين في حقل العلوم، المطلعين على أفكار هذا العالِم وتصوراته، أن نقف وقفة إجلال وتقدير لما قدّمه للعلم والمعرفة، كذلك حقّ لأهل بلده تركيا أن يُهنّئوا بهذا الرجل، مفخرةِ العصر الذي ألهم الأجيال بروحانيته العالية وإخلاصه للمبادئ الإنسانية، وفتح لهم الآفاق على العوالم النورانية بإجابته النيرة على أعقد الأسئلة المحيرة التي جاءت بكل صدق وأمانة وثقة ورزانة، مؤسِّسة لمعرفة غايتها صناعة الحياة اللائقة لهذا الجيل والأجيال اللاحقة. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش

(1) آفاق اليقينيات العلمية.. من تجلّيات رؤى فتح الله كولن الاستشرافية، د. عبد الإله بن مصباح، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣م.

شهادات

أ.د. عبد الحليم عويس رحمه الله (مصر):

عندما تدخل إلى عالم الداعية المربّي "فتح الله كولن"، ادخل إلى عالمه تلميذًا يريد أن يعرف الحق بالعلم والنور ويعمل به.. ولا تدخل إلى دنياه أستاذًا يريد أن يعلّم وينقد... والفرق شاسع بين المدخلين. عندما تدخل تلميذًا تكتشف الكثير.. بوجدانك كله.. تكتشف أنك تعيش الطبيعة العصرية لمنهج القرآن والنبوة.. لكأنك في مدينة الرسول ﷺ مع أنك في القرن الحادي والعشرين للميلاد، الخامس عشرة للهجرة. وفي مجلسه تشعر بعبق الرسول الأعظم الخاتم سيد المرسلين وإمامهم ﷺ، كما تشعر بالرائحة الزكية لصحابته رضوان الله عليهم أجمعين وكأنهم أنفسهم موجودون. اذهب إلى عالم الأستاذ -أو الواعظ- "كولن"، وأنت تتمثل منهج النبوة القديم والمعاصر. واعلم أنه يحقق المنهج نفسه.. فتعاملْ معه بقريب مما كان الصحابة يعاملون به المعلم الأعظم محمدًا ﷺ بين يديه وفي مسجده، أو وهم يمشون معه عليه الصلاة والسلام في دروب المدينة وأسواقها. وهنا ستكون قد عرفت المفتاح الأساس العامّ من مفاتيح مدرسة كولن القرآنية النبوية الفكرية العملية.

أ.د. سعيد شبار*

الأستاذ فتح الله كولن
ومشروع تحريك الهمم نحو القمم
مدارج إنسانية وسننية في الإصلاح

من قبضة الطين إلى نفخة الروح

لم يكن الإصلاح قط عملاً جزئيًّا موضعيًّا تستفيد منه فئة أو طائفة دون أخرى أو بلد دون آخر. فالإصلاح في معناه العام -كما تجلى في رسالات الأنبياء ولدى حملة إرثهم الحقيقيين من الدعاة والعلماء وفي تجارب كثير من الحكماء- شأن عام يعم خيره ونفعه بعموم القيم التي يحملها ويبشر بها في الناس جميعًا.

فليس سهلاً ولا ميسورًا لكل مشروع إصلاحي أن ينطلق من دائرته المحلّية لينخرط في الأفق الإنساني والعالمي تدافعًا وتعارفًا، بل وأن يحتل فيه مواقع متقدمة من القبول والاستجابة والتأثير والتأطير، إذ كل ذلك متوقف على منظومة القيم التي يحملها ويبشر بها المشروع على مستوى رؤيته وتصوره، وعلى مستوى خططه ومناهج عمله، وعلى مستوى سلوكه وممارسته. وليست كل حركة ذات نزوع عالمي تحمل بالضرورة قيمًا إنسانية عميقة، كما هو شأن كثير من الشموليات الاستبدادية وشأن العولمة الآن.

ونعتقد أن أعمال فضيلة الأستاذ فتح الله كولن في الروح والإيمان، وفي الفكر والثقافة، وفي السلوك والحضارة، وفي الإرشاد والتبليغ، وفي القيم والأخلاق، وفي نماذج السلف والصالحين والمفكرين والباحثين... وفي كل جانب طرقه، إلا وكان له أبلغ الأثر في تحريك القلوب والعقول، وحفزها على مساءلة الذات إزاء تكاليفها وواجباتها تجاه الدين والناس. وما ذاك في تقديري إلا من جهتين متلازمتين: القوة والصدق في الأخذ، والقوة والصدق في العرض. فلا يستطيع المرء أن ينبط من عمق الأصول إلا بصدق وقوة في الإقبال، كما لا يستطيع أن يؤثر في الناس إلا بنفس القوة والصدق أو قريبًا منهما في العرض عليهم.

نعم، نقول هذا ونكرره، لكننا نعجز عن القيام به وعن تمثله. وأعتقد أن الأستاذ يقدم نموذجًا ومثالاً حيًّا عن هذا الإمكان، وذلك من خلال تحريكه لمساحات جديدة من القرآن يتحرك معها العقل والوجدان وينفعل بها الواقع والسلوك، ويعاد من خلالها بناء تصور الإنسان عن ذاته وواقعه ومحيطه، وذلك هو جوهر التجديد وروحه.

لقد هيمنت النزعات المادية النفعية والاستهلاكية على الفلسفات والعلوم، وعلى الثقافة والحضارة، وعلى القيم والأخلاق... وأضحت تؤطر الناس وتصوغ أفكارهم وتوجه أذواقهم، حتى إنه لم يعد للإنسان هامش من الحرية وإن تم كل ذلك باسم الحرية.

ولهذا فالمقاربة الثقافية والحضارية لدى الأستاذ، حاضرة بقوة لتخليص الإنسان من قبضة الطين وجعله يحيا وينعم بنفخة الروح. ولقد مارس الأستاذ تعديلات جوهرية عميقة في مفهومي الثقافة والحضارة، مستلهمًا اجتهادات تجديدية وازنة، وذلك بإعطائهما معان ودلالات تستحضر العمق الديني الروحي والإيماني أولاً، لتتجلى بعد ذلك في سائر المناحي والمجالات. صفحات جديدة يفتحها الإنسان في نفسه وينظر من خلالها إلى ما حوله، متحررة من أسر الماضي المتحجر ومن هيمنة الحاضر المستكبر، لتكون ثقافة وحضارة الأمة، هي ذات الأمة المنبعثة من روحها وإيمانها،

إن المقاربة الثقافية والحضارية لدى الأستاذ حاضرة بقوة لتخليص الإنسان من قبضة الطين وجعله يحي وينعم بنفخة الروح. ولقد مارس الأستاذ تعديلات جوهرية عميقة في مفهومي الثقافة والحضارة، مستلهما اجتهادات تجديدية وازنة، وذلك بإعطائهما معان ودلالات تستحضر العمق الديني الروحي والإيماني أولا، لتتجلى بعد ذلك في سائر المناحي والمجالات.

متخلقة بأخلاقها وآدابها.

إنه لَإنجاز كبير وخرق لـ"مبدأ" الاستحالة في ظل هيمنة الرتابة والجمود وسيطرة النزعات والأنانيات وطغيان السطحية والشكلية، أنْ يجعل هذا المشروع من أفكاره العميقة حركة، وأنْ يولد من حركته أفكارًا في دينامية متجددة مبتكرة على الدوام.

إن نفخة الروح في الهيكل الطيني هي ما جعل لآدم اعتبارات خاصة: إسجاد الملائكة، والتكريم والتفضيل، والاستخلاف والتسخير، والشهادة بالحق، وحمل الأمانة، وعمارة الأرض، وما إلى ذلك. وتلك أصول ومبادئ من رحمها أو على صرحها تصاغ الثقافة وتبنى الحضارة وتنشأ وتشاد العلوم والمعارف.

من قيم المباني إلى قيم المعاني

إن الإصلاح الحق الذي يربط همم الإنسان بالمعالي والقيم، يجعلها وحدة قياسية -يقيس عليها أداءه- ومعيارية يعبر بها إنجازه، هو من يكتب له الخلود والبقاء لبقاء وخلود ما ارتبط به. ويكفي أن نشير من بين القمم التي يحرك نحوها هذا المشروع الهمم:

- الاستنارة بنور الوحي، الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نبع المعارف والهداية والإرشاد، والمزود بالطاقة والباعث على الإخلاص والأخوة والمحبة، والتأسي في ذلك بـ"النور الخالد ﷺ" خير البرية عليه الصلاة والسلام.
- الارتباط بقيم الفطرة في الإنسان التي بها تتحقق الذات والكينونة، والتي يولد عليها هذا الإنسان، على هيأتها وصفائها قبل أن تجتالها الشياطين ويطرأ عليها

فساد المؤثرات الخارجية.

• خدمة الناس ونفعهم وإذابة الذات وإفناؤها في إسعاد الغير، وإدخال الفرَح والسرور على قلبه ونفسه. وذلك من أفضل القربات والطاعات.

• اعتبار الجزاء -ثوابًا وعقابًا- على الأفعال والأقوال، وهو منهج يحمل صاحبه على التحري الدائم في القول الراشد والفعل الصائب تسديدًا ومقاربة.

• اعتبار الآجل مع العاجل والمآل مع الأفعال، إذ ليست العبرة بلذة عابرة تعقبها حسرة دائمة. بل العكس، بلذة تعقبها لذة، وسرور يعقبه سرور، يفعل الإنسان ويستزيد من الفعل رضا بما يفعل، وتلك مرتبة من مراتب شكر النعم لتحصيل المزيد منها.

إن منظومة القيم في الإسلام نسق كلي تام مكتمل ومستوعب شامل، تلتحم فيه الفروع بأصولها وتتصل فيه الجزئيات بكلياتها. ومن ثم كان الإيمان مقترنًا دائمًا بالعمل الصالح لأنه ثمرته؛ فـ"المؤمن مَن أمِنه الناس"، وكان السلم مقترنًا دائمًا بالإسلام أيضًا لأنه ثمرته؛ فـ"المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده"، وكان القول مقترنًا بالفعل، والفكر بالحركة... وهكذا. وقد يطرأ الخلل على قيم الظاهر والمباني، التي تتجسد في أخلاق الإنسان وتحدد سلوكه أقوالاً وأفعالاً، لكن إذا سلم أصلها ومنبعها الذي يزودها بالطاقة ومبررات الوجود، المتجلي في قيم الباطن والمعاني، أمكن علاجها وإصلاحها وإعادة توجيهها نحو الوجهة السليمة.

إن أخطر تحريف مارسته الحضارة الغربية المادية على أتباعها، هو إفساد قيم الباطن والمعاني نفسها، ومن ثم فقدان الميزان والمعيار القيمي المسدد والمصوب. ولم تنفع مع ذلك أخلاق الظاهر الشكلية في تقويم الانحرافات السلوكية والاجتماعية أمام تضخم نزعات المتعة والاستهلاك واليومي والفرداني الواحدي والعدمية واللامعنى، التي فرضها واقع العولمة والحداثة وما بعدها. والأخطر منه أن يتجلى ذلك ويتحكم في النظم الفكرية والثقافية، والمعرفة والعلوم، والسياسات والعلاقات.

إن كثيرًا من مشكلات الأمة تجد حلها في إعادة وصلها بالقيم التي انفصلت عنها. فقضايا الروح والإيمان والإخلاص والتقوى والورع والتوكل، تجد أصلها في قيم الفطرة والكينونة الآدمية، وفي نفخة الروح، وفي العهد والميثاق الأول الذي أخذه الباري ﷻ على الناس بمقتضى الخلق والألوهية والربوبية. وقضايا الأخلاق والتربية والسلوك، تجد أصلها في قيم التزكية. وقضايا الفكر والثقافة والعلوم والمعرفة والحضارة، تجد أصلها في قيم الهوية. وقضايا العمل والحركة والمبادرة والفاعلية، تجد أصلها في قيم الإرادة والعزيمة... وهكذا.

صحيح أنه لا يمكن إيجاد حدود فاصلة بين قيمة وأخرى وخلق وآخر، فهي كما ألمحنا كيان منظومي يفضي بعضها إلى بعض ويزود بعضها بعضا. لكن قطعًا هي مراتب ومقامات متفاضلة، يترقى فيها الإنسان سالكًا مدارجها منازل متعددة. هي تِلال زمرّدية(١) كلما ارتقى الإنسان منها تلاً أشرف على الآخر وتشوّف إليه. هي موازين(٢) يزن بها الإنسان ويوزن، وأضواء على الطريق تنير للسالك دربه وتعصمه من التيه والضلال.

مِن الفوضى إلى النّظام(٣)

إن الكون صحف الله المنظورة المبسوطة على الدوام أمام الإنسان، تذكّره يوميًّا بآياتها وتدعوه إلى التفكر، كله نظام. والوحي صحف الله المقروءة المسطورة أمام الإنسان، تذكّره كذلك يوميًّا بآياتها وتدعوه إلى التدبر، كله نظام كذلك.

فكيف يعيش الإنسان الفوضى بين نظامين يتجلى فيهما معًا الجلال والجمال الإلهي؟!

ذلك التحدّي الأكبر لوراثة الأرض وتمثيل الحق! عندما يحصل الإنسان قدرًا من النظام ينسجم فيه أصله الطيني مع نفخة الروح، وأخلاق الظاهر مع قيم الباطن، وتتوحد فيه سنن الله الدينية الشرعية وسننه الكونية القدرية، يهتدي بالأولى ويجني ثمار ذلك من الثانية. فهذه الحالة السوية، حالة الاستقامة: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾(الجن:١٦)، وكل انحراف عنها موقع لا محالة في مخالفة السنن

hiramagazine.com

الثابتة المطردة في الوحي والكون، إجمالاً أو تفصيلاً في أحدهما أو فيهما معًا. وذلك ما يستدعي هذا التنبيه إلى مسألة النظام طريقًا إلى الوراثة واستعادة لهذا الحق.

فمِن سنن الله تعالى في خلقه، تذكيرهم وإنذارهم وإرشادهم بالرسل والرسالات إلى الحق، فإنْ هم لم يستجيبوا وتمادَوا في غيّهم وطغيانهم، أخذهم بالبأساء والضراء والمعيشة الضنكى وتغيير الأحوال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(الأعراف:١٣٠)، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الأنفال:٥٣).

وقد يرتفع هذا المستوى إلى درجة سنة الاستبدال الكلي للقوم عن طريق إهلاكهم وإبادتهم إذا بلغوا مستويات من الظلم والفساد: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾(الأنبياء:١١)، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد:٣٨).

وقد يتوهم أقوام أنهم تمكّنوا وامتنعوا بمظاهر من القوة والزينة والعمران، فيصابون بداء الغرور والطغيان والاستغناء: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧)، فتأتي سنة الاستدراج والبسط في الملذات: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾(الأنعام:٤٤)، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾(الأعراف:١٨٢-١٨٣).

ومن تلك السنن أن للأمم والجماعات -كما للأفراد- آجالاً مقررة إذا تخلت عن شروط بقائها، والتي ليست شيئًا آخر غير شروط الصلاح في النفس، والإصلاح في الغير: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۞ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾(الحجر:٤-٥).

ومن تلك السنن أن الأرض يرثها في النهاية أهل الحق بقيم الصلاح فيهم وبتحققهم بشروط التمكين والاستخلاف: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(النور:٥٥)، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥).

ولهذا أوجب القرآن السير في الأرض والنظر في سير الأولين، كي لا تتكرر الأخطاء ويعاد إنتاج نفس العلل والآفات، وذلك ما لا يفعله الكثيرون -للأسف- ممن يتصدرون الإصلاح والتغيير والتجديد أفرادًا أو جماعات... فيبطئون هذه الحركة وقد يعرقلونها، أو يكونون حواجز أمامها وهم لا يشعرون. واعتبر آخرون أن قصص الأنبياء والأمم أخبار وروايات لا تكليف معها وكأنها لمجرد المعرفة والترفيه، مبطلين ومعطّلين أصلاً من أصول التدين وهو الاعتبار. أحد أصول التكاليف الجماعية المنوطة بالأمة كامة، كالخيرية والشهادة والوسطية والاستخلاف.

نعم على الأمة تكاليف إزاء الإنسانية كما على الأفراد إزاء أنفسهم، وتلك مساحات تجمّدت في القرآن والسنة تحتاج إلى من يحرك الهمم إلى قممها. ذلك ما نعتقد أن فضيلة الأستاذ فتح الله كولن، منشغل ومهموم به إلى درجة التماهي معه، فكيف ينظر بعد ذلك من تعلق فكره ووجدانه بنفخة الروح وقيم المعاني ونظام كبريات السنن، إلى ما دونها من مباحات الطين والمباني وصغريات السنن؟!

وهل يكون مصلحًا مجددًا، يعطي القدوة من نفسه لأجيال الأمل؟! من يفعل ذلك؟! ■

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال / المغرب.

الهوامش

(١) التلال الزمرّدية.. نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠م.

(٢) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠م.

(٣) مقال "من الفوضى إلى النظام" وارد في كتاب "ونحن نقيم صرح الروح، للأستاذ فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠م.

hiramagazine.com

أ.د. محمد خروبات*

مشروع الخدمة من عين الواقع

سأتكلّم في هذا المقال عن ثلاثة عناصر أساسية:

١- المتكلمون في "مشروع الخدمة"

المتأمل في عطاءات الباحثين في مشروع الأستاذ فتح الله كولن يجدهم على عدة أصناف:

أ- فيهم من يُطالع تأليف الأستاذ والإنتاجات الفكرية حوله لا يتجاوزها إلى الرؤية الميدانية، فهذا الصنف يبقى تصوّره ناقصًا، لأنه انحبس في الجانب النظري.

ب- وصنف يقف على المنجزات والإبداعات ومشروعات الخدمة فيراها رأي العين، فهذا يقف على نصف الحقيقة، لأنه وقف في نصف الطريق. فالرؤية وحدها لا توصل إلا إلى نصف الطريق ما لم يربط تلك المنجزات بالمحفّزات الدينية والخلقية والإيمانية والواقعية التي فرضت نفسها، وهذا يتطلب فهمًا من نوع مغاير.

جـ- وصنف من الباحثين قرأ وطالع وبحث وأصّل وعاين حقيقة الخدمة عن قرب، فهذا الصنف على جانب كبير من الفهم والمعرفة، لأنه التزم بالمنهج فربط النظري بالعملي.

د- أما من انخرط في المشروع كلية، وأصبح من "إخوة الخدمة"، ومن عناصرها الفاعلين ومن المجتهدين العاملين فهذا -في نظري- حاز عنصر السبق في العلم والفهم؛ وفي الحديث الموقوف: "تعلموا تعلموا فإذا علمتم فاعملوا"(١)، وفي حديث موقوف آخر: "تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا"(٢).

هذا الصنف هو الرابع من حيث التصنيف، وهو

الأول من حيث الاعتبار، صنف دفعت به تجربته إلى الانخراط في العمل ومن ثم إلى الاتحاد في المشروع الكلي للخدمة ليصبح جزءًا منها، وهي في الغالب تُبنى عليه ومدار العمل كله فكريًّا كان أو نظريًّا، على التجربة العلمية والعملية للأستاذ فتح الله كولن.

لقد أصبح هذا الصنف على مدار الوقت موضوع بحث ومجالاً للفهم والمعرفة، لِمَ لا وهذا المشروع يرتكز على الإسلام بكل ثوابته، ذلك أن الإطار العام الذي يتحرك فيه الأستاذ، هو فكر إصلاحي شامل ينطلق من التراث الإسلامي الكلي: القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والأصول والمقاصد والفكر والزهد... إلخ. فصَيحة الأستاذ هي صيحة إصلاحية شاملة انبنت على تجارب الإصلاح في العالم الإسلامي مرورًا بتجربة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي كإحدى التجارب التركية الرائدة في مطلع القرن الماضي. والثابت الثاني، الواقع التركي بأبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الواقع بماضيه وحاضره؛ إنه فتح الله كولن بفكره وذاته، الفكر الذي نهل من معين التراث، والذات التي عايشت الواقع المرّ الذي طرأت عليه تحولات جذرية. لقد سخر للواقع جيلاً نهل من الماضي واتجه صوب الحاضر ليستشرف المستقبل، كانت آهاته آهات حسرة، وأنينُه أنين ألم... إلى جانب هذا الثابت هناك البعد الإنساني الذي استحضره الأستاذ عبر واقع التحضر العالمي، واقع العولمة والتحديات المعاصرة الجارفة. من هنا نقول إن تجربة الأستاذ هي تجربة رباعية التركيب: "التراث الإسلامي" الذي هو المنطلق والمجال، و"التجربة الشخصية" التي هي الوسيلة والأداة، و"الواقع المعاصر" الذي هو القصد والهدف، و"البعد الإنساني" الذي هو الدافع والمحرك. وسنرى في تطبيقات كل ذلك عند حديثنا عن "إنسان الخدمة" في النقطة الموالية.

٢- "إنسان الخدمة"

كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في المدلول والمعنى:

إن تجربة الأستاذ هي تجربة رباعية التركيب: "التراث الإسلامي" الذي هو المنطلق والمجال، و"التجربة الشخصية" التي هي الوسيلة والأداة، و"الواقع المعاصر" الذي هو القصد والهدف، و"البعد الإنساني" الذي هو الدافع والمحرك.

• مدلولها الأول "إنساني" غير قاصر على القطرية أو الانتماء الجنسي أو العقدي.

• المدلول الثاني التواضع الجمّ، والعمل بنكران الذات. والمدلول الثاني يعني تيسير الأمور على الناس في حياتهم العامة.

فالخادم هو مَن يعمل ليساعد ويعين لتيسير ما تعسّر وتقريب ما بَعُدَ، وهي شاملة وعامة. وإذا أردنا تقريب المعنى أكثر قلنا: إن "إنسان الخدمة" هو في خدمة الإنسانية كلها، ولا يفهَم من "إنسان الخدمة" دونية المعنى، إنهم صحابة الأستاذ وتلامذته المباشرون، فعلى الرغم من التطور الحضاري والنمو العمراني والتكنولوجي الذي حازت فيه تركيا عنصر السبق، ما زالت فئة ظاهرة على الحق يمتحون من تجربة صحابة النبي ﷺ القدوة الحسنة ﷺ. وكثيرًا ما كان الأستاذ يذكرهم بذلك بعبارة "حرق المسافة بينهم وبين النبي ﷺ"؛ فالقرون الممتدّة منهم إليه لا تعني شيئًا أمام القدوة والأسوة، فلا تقف حائلاً في وجه الاتّباع والاقتداء، بهذه العبارة تُطوى الحضارة كلها لتصبح وسيلة للخدمة، ولن تكون هي الأخرى عائقًا في وجه استلهام التجربة النبوية كما يحلو للبعض أن يتصور، تمامًا كما طويت القرون [٣].

يشكل الأستاذ بتجاربه المتعددة وبحرصه الصارم، على تربية الأسوة والقدوة نواة المدار، وحوله يتحلق "إخوة الخدمة" في دوائر كلما ابتعدت كبرت كموج البحر لا يظهر عليها التناهي من شدة التفاني... توالد بالإيجاب، وتكاثر بالنفع، ويدور الكل حول تلك النواة التي تشكل في نظري "مركز مشروع الأستاذ فتح الله كولن"... ولذلك لم يَعد الأستاذ مجرد رسائل أو كتب

أو محاضرات ودروس، بل أصبح مدرسة متحركة، مدرسة يمثلها الإنسان والحضارة والعمران، هذه المدرسة بإنسانها وعمرانها وأدبياتها وأنشطتها العلمية والفكرية التي تعددت وامتدّت، فسحت في المجال للباحثين والدارسين والزائرين ليجعلوا منها مجالاً للبحث والدرس، وإطارًا للكلام الهادف والمتعدد.

من موقع الزائر الناظر تجد أن "إنسان الخدمة" يشكل الأسرة الكبرى في المجتمع التركي. صحيح جدًّا أن "الأسرة" هي نواة المجتمع، لكن الخدمة قلبت هذا المفهوم تمامًا؛ ففي الوقت الذي بدأ فيه الجميع يتكلم عن الأسرة، وسخرت في ذلك نظريات ومفاهيم في البحث والدرس، وتم الدفع بها في مجاري الرؤية المعاصرة مما ولد اهتمامًا مبالغًا فيه، اتصف بالغلو والتنطّع، وتُنُوسِي المجتمع بل تم إهماله، ولا يلزم من الدعوة إلى إصلاح الأسرة والإفراط في الاهتمام النظري بها إصلاح المجتمع ما لم يتم التركيز على المجتمع، لكن الخدمة قلبت هذا المفهوم تمامًا، فالفرد للمجتمع، والأسرة للمجتمع. لقد رأينا الجميع في الخدمة من الآباء والأمهات، الشباب والشابات، النساء والرجال، الأطفال والشيوخ... لقد نزل الجميع لخدمة الجميع، ونجح الجميع في خدمة الجميع في جهات كثيرة من المعمور ما زال الإنسان متخبطًا في معالجة أمراض نفسه، يعاني من تمرد النفس، لكن هنا يتغلب الإنسان على نفسه، ويُعان على التغلب عليها، وتُروض على الرغم منها لتصبح طائعة هينة، ثم توجه إلى ما لأجْله وُجدت. فالوظيفة الحقيقية للإنسان على هذه الأرض هي الإيمان بالله والعمل الصالح، وهي أزرار ضغَط عليها الأستاذ بإحكام فبنى عليها مشروع الخدمة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(فصلت:٣٣).

لزائر تركيا وللواقف على أساليب الخدمة أن يتحدث هل يحس بالفرق بينه وبين رجال الخدمة؟ شيء طبيعي أن تحس بالتباين الشاسع والفرق الكبير بينك وبين من لا يتكلم لغتك، لكن هنا يذوب هذا الإحساس تمامًا ليعوض بتواصل كبير، إنه التواصل الروحي والأخوّة في الدين وفي الإنسانية، وهي معطيات ساهمت الخدمة في إيجادها. الخدمة لا تجعلك تغيّر من سلوكك فحسب، بل تُحدث فيك طاقة جديدة يتولد عنها منهج جديد في التعامل مع القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث تصبح القراءة من موقع تجربة الخدمة لا مِن موقع الأساليب المعلقة. إنها تجربة ذات نفَس جديد في الواقعية والتأصيل والتفعيل، ولذلك كثيرًا ما كنتُ أقف مدهوشًا أمام هذا النمط من الكتابة حول القرآن والسنة والسيرة والأخلاق والحضارة والروح... إلخ(٤)، أعني بذلك الكتابة التي استحدثها الأستاذ فتح الله، المصادر هي هي، لكن طرق التعامل معها يختلف، وكنت أبحث عن سرّ التميز في التأليف والتصنيف، ولا أجازف إذا قلت إنها "الخدمة"... الخدمة هنا هي كل شيء؛ هي العلم والمعرفة، وهي الثقافة والحضارة، وهي الفن والإبداع، وهي الوظيفة والمال، وهي الأسرة والعائلة، وهي الأصدقاء والإخوة... فمن استغنى عنها فقد ضيّع جانبًا مهمًّا من حياته وحياة الناس، ومن دخل إلى ساحة الخدمة متحلّيًا بتلك العناصر فقد تحصل له المراد. ولا أريد هنا أن أمثل بنماذج حية من عين الواقع، فقد خبرت التجربة عن قرب، وشاهدتُ وجالستُ واستفدتُ، وليس مَن رأى كمن سمع، ولا من سمع كمن قرأ، وتلك مستويات في الفهم كنت مجبرًا أن أتكلم عليها في التصنيف السابق.

وقد يقول قائل: "إن الدعوة يمكن أن تكون من دون هذا النوع من الخدمة" أقول: قد يكون ذلك في غير الواقع التركي، أما الواقع التركي المعاصر فهذا النوع يبدو ناجحًا بكل المقاييس، إنه ربيع تركيا الخاص، الربيع الذي يطلق عليه من موقع لغة الخدمة "الأزهار"، وهو نعت لطيف، جميل وخفيف، إنها أزهار الأستاذ التي تتفتّح يومًا بعد آخر... ولقد تكلم الأستاذ بديع الزمان -رحمه الله- عن الأزهار في وقت من الأوقات،

hiramagazine.com

وتكلم الأستاذ فتح الله كولن عن الأزهار في هذا الوقت لتكون في كل وقت، ومهما خيم صيف حارق للإيذاء بها فإن نواتها توجد في عمق التراب، وبالتحديد فوق قبور الأجداد، أولئك الذين ماتوا مرتاحين بعد أن فعلوا ما عليهم، ما زالت آثارهم ثابتة، وقبورهم محطّ الزيارة إلى اليوم، منطلقها قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ﷺ، إنهم زرعوا فأنبتوا، فكانت تلك الأزهار من بذرتهم.

العاملون في الخدمة تطلق عليهم ألقاب متعددة، منهم من ينعتهم بـ"أبناء الخدمة"، ومنهم من يصفهم بـ"إخوة الخدمة"، ومنهم من يسمّيهم بـ"أصحاب الخدمة"؛ وقد نطلق عليهم "إنسان الخدمة" وهي إطلاقات لا تغير من الحقيقة شيئًا، إنهم كذلك بكل المواصفات... والباحثون يطلقون الوصف حسب ما يريدون منه، والكلمة الرائجة هي "الأصحاب" وهي كلمة لطيفة ودالة، وهي من إطلاق الأستاذ نفسه، كان يسمّيهم بـ"الأصحاب" عِوَض "التلاميذ"، وهو نعت مؤصل من سنة النبي ﷺ حين نعت أتباعه بـ"الأصحاب"، والله ﷻ نعتهم بالأتْباع فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(آل عمران:٣١)، وقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾(الأعراف:١٥٧)[٥]... وقد دعا النبي ﷺ من تبعه ورآه وآمن به منهم بـ"الأصحاب"، ولم يطلق عليهم نعت "تلاميذ" وإن كان هذا النعت في حقهم جائز، قال ﷺ: "لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه"[٦]، وقوله ﷺ: "وأصحابي أمنة لأمتي"[٧]، وجرى إطلاق لفظ الصحبة عليهم. وأما من صحِبوهم فهم من الأتباع، فالصحابي في الاصطلاح مَن لقي النبي مؤمنًا به ومات على الإسلام، والتابعي من لقي الصحابي مؤمنًا ومات على الإسلام، وتابع التابعي من لقي التابعي مؤمنًا ومات على الإسلام، وهكذا من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... والشاهد من هذا التوضيح هو أن

إن الإطار العام الذي يتحرك فيه الأستاذ، هو فكر إصلاحي شامل، ينطلق من التراث الإسلامي الكلي: القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والأصول والمقاصد والفكر والزهد...إلخ. فصَيحة الأستاذ هي صيحة إصلاحية شاملة انبنت على تجارب الإصلاح في العالم الإسلامي.

الصحابة كانوا قدوة لأبناء الخدمة، قال لهم الأستاذ مرّة وقد خرج إلى جماعة منهم وهو يحمل كتاب حياة الصحابة للكاندهلوي بيده: "كونوا مثل هؤلاء أو موتوا".

إن سر نجاح الخدمة يكمن في هذه الصيرورة المطردة، فهي نموذج يتكامل يومًا بعد يوم، لا اختلاف ولا تباين، ولا فارق بينهم ولا تباعد إلا بالجد والعمل والتقوى، الجميع على نمط متجانس، وهو سرٌّ يرجع إلى الالتزام بالخط القرآني، وهو خط واضح بيّنٌ، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)؛ التعارف مقدمة ضرورية للتعرف والتواصل، وبالتعرف والتواصل يتم التعايش، وبالتعايش يتحصل التسامح والتآخي، وإذا تحصلت هذه الأمور جميعها تقوت أواصر المحبة، وما سبب النفور والإعراض المفضيين إلى الكوارث الأخلاقية في بعض الأحيان إلا بجهل كل طرف للآخر. وأعتقد أن سبب المحبة الحاصلة بين أفراد الخدمة إنما هي نابعة من ثقافة معينة. إن المتأمل في ثقافة وأدبيات الأستاذ فتح الله، يجدها تفوح بفكر المحبة، وبالأساليب الدافعة إلى تحصيل المحبة -محبة القلوب- وهي ظاهرة تحتاج إلى أن تفرد ببحث مستقل. وإننا لنرجو صادقين أن تمتد هذه الأفكار والتوجيهات والنصائح والإرشادات إلى أجيال الإنسانية كلها.

٣- "مرتكزات المشروع"

نقصد بـ"المشروع" الخدمة، الخدمة التي تسير من دون مواثيق ولا معاهدات بين الأفراد، ولا دفاتر أو سجلات،

ومن دون قانون داخلي أو خارجي، ولا يفعل من هذا إلا ما اقتضته الضرورة الإدارية. أما العلاقات داخل الخدمة فتتسم بالسجية والفطرة وحسن الظن بالآخر كيفما كان هذا الآخر، والأمور -ما رأيناها- تسير من دون تكلّف أو تعسف، أو سلطة صارمة تزرع خوف أبناء الخدمة منها لا من الله ﷻ. ويمكن القول بأن الأستاذ هو اسم على مسمّى؛ فهو "فتحٌ" مبين على هذا الجيل المتعطش للتربية، وللقدوة الصالحة، والتوجيه النير، فإذا كان السلطان محمد الفاتح قد فتح الديار، فإن الأستاذ محمد فتح الله قد فتح القلوب، وهذا العصر هو عصر فتح القلوب ولكل زمان عمله.

فالأستاذ مربّ بالدرجة الأولى، وللتربية مجالات في فكره:

• المجال الأول: التاريخ التركي بصفة خاصة.

• المجال الثاني: التاريخ العالمي بصفة عامة.

التاريخ التركي مشحون بالدلالات والأحداث، ففيه دروس وعبر، وهو يحاول التركيز على التاريخ المحلي، لأن هذا التاريخ يُراد له أن يفصل عن الزمن التركي المعاصر. لقد حاول المستشرقون تشويه تاريخ السلطنة العثمانية ووصفها بأبشع النعوت والأوصاف، وما زال هذا النيل إلى اليوم ساري المفعول في الأفلام والمسلسلات.. التاريخ هو كل شيء في الفكر التركي الحديث، لأن به تنتعش الذاكرة ومنه تتغذى، فالحاضر المؤلم فيه الكثير من معطيات الماضي. وأما التاريخ العالمي فهو مركب من تاريخين:

• التاريخ الأوربي الذي يعتبر التاريخ التركي جزءًا منه بحكم الجوار الجغرافي، ولهذا التاريخ أثر كبير على مسيرة التقلبات الزمنية في تاريخ الحضارة الإسلامية التركية.

• وأما المجال الثاني فهو مجال الواقع الحديث والمعاصر، هذا الواقع أدرك الأستاذُ أقفالَه، ففتحها فانفتحت مغاليقه. إن الحديث عن "فقه الواقع" في فكر وفقْه الأستاذ لَيحتاج إلى وقفة خاصة، لأن البحث في فقه الواقع يتطلب استحضار المستندات الفقهية والأصولية والمقاصدية من خلال إنتاجاته، كما يتطلب استحضار معطيات الواقع بكل أبعاده، وتطبيق تلك المستندات على هذه المعطيات ثم استخلاص ما سيقع.

• وأما المجال الثالث فيتمثل في استغلال القدرات وتدبير الإمكانيات، لأن الواقع لا يرتفع.

لقد وفر الأستاذ الإمكانيات الموجودة في سبيل الخدمة، هذه المجالات الثلاثة التي استطاع الأستاذ أن يكون بها الجيل الذهبي للخدمة بُنيت هي الأخرى على قواعد ثلاثة: التسامح، والحوار، والتقريب بين المتباعدين.

وتستطيع أن تلحظ هذا في مجمل الأنشطة التي تقوم بها "مجلة حراء" الغراء وأخواتها على الصعيدين المحلي والدولي، كما تستطيع أن تلحظ ذلك في مؤسسات الخدمة المنتشرة في أرجاء تركيا، من ذلك مثلاً "مؤسسة الحوار" التي هي وَقْف للصحفيين والكتاب، يتم الاشتغال فيها على ترسيخ "ثقافة التعايش"، ويتم البحث فيها عن المناخ لتجسيد ثقافة الحوار من خلال اللقاءات والندوات والورشات... إلخ.

إن فتح بابِ الحوار والتعايش السلمي ونشر ثقافة التسامح إنما وَقَع الانطلاق فيه من واقع تركيا في إطار الحكم العثماني؛ لقد كانت تركيا إمبراطورية واسعة ممتدة الأطراف، تتعايش فيها كل الأجناس وكل الملل والنحل، وكانت العاصمة إسطنبول رمزًا للتعدد في أبهى صوره، لكن بين عشيّة وضحاها تحوّلت تركيا إلى دولة قطرية وطنية وعرقية. ولذلك فما يقوم به "إخوة الخدمة" ليس بدعًا من الفكر والعمل، بل هو نهج من نهج الأجداد. ثم إن جذوره ممتدة في الزمن التاريخي للحضارة الإسلامية، وقد أدرك قيمة هذا النهج الأستاذ محمد فتح الله كولن.

لقد عمّت فكرة إرهابية الإسلام العالمَ، فالإسلام دين إرهابي -كما صوّروه- يحث على القتل والكراهية والبغض والنفور، وهذه التهم ما زالت -للأسف-

hiramagazine.com

سارية إلى اليوم، ساهم في نشرها جيل من المستشرقين المستعمرين وممن نال من وحدة الخلافة الإسلامية، واستمر هذا النعت قرونًا من الزمن تصطبغ به الأدبيات الثقافية الغربية، وتزكّيه الفلسفات والنظريات الممسوحة باسم العلم. وقد حاولوا الدفع بها في مجال التربية والأخلاق حتى أصبحت فكرة جاهزة قابلة للاعتناق والاعتقاد، وبالتالي قابلة لأن تستثمر في مجال السياسة العالمية تجاه العالم الإسلامي. والشيء الأخطر هو أن أيّ تحرك إسلامي أو تجمّع إسلامي أو سياسة إسلامية إذا لم تكن تتوافق مع الرغبة الغربية وطموحاتها، فهي مصدر قلق وإرهاب!

أدرك الأستاذ فتح الله كولن هذا المدّ الثقافي الخطير المشحون بالنعوت القدحية وبالملصقات اللفظية الجاهزة، فبادر بتنقية الخطاب الإسلامي من كل ما قد يجلب إليه هذه التهم الجاهزة، فبنى فكره على "الحوار" والتسامح والأخلاق والقيم والتربية الروحية والجهاد بالكلمة الهادفة، والتآخي ومد جسور التعاون، مستبدلاً مصطلحات كثيرة بأخرى أكثر دلالة وأبلغ أثرًا، فركّز على الحوار جاعلاً منه دعامة أساسية. والحوار مبدأ أصيل في الثقافة الإسلامية، وأداة فعّالة في الدعوة والإصلاح الشامل.

انطلقت فكرة الدعوة إلى الحوار -بتوجيه من الأستاذ كولن- منذ سنة ١٩٩٥م، وقد وقفنا أثناء زيارتنا العلمية في مطلع سنة ٢٠١٣م والتي امتدّت أسبوعًا كاملاً على مركز من مراكز الحوار في إسطنبول وهو واحد من ستة مراكز موجودة في منطقة البوسفور، فإخوة الخدمة عمَليّون أكثر مما هم نظريون، يحبّون أن يطلعوك على ما هو موجود عوض الاكتفاء بالوصف والكلام. لا يتحدثون عما يعملون، بل يعملون أكثر مما يقولون، ويتركون للزائر الواقف على أساليب الخدمة الحكمَ الحرّ والمطلق.

كانت فكرة الحوار هي فكرة الأستاذ نفسه، فقد كان يدعو إليها دائمًا، وكان دائب الزيارة لكل الفئات والهيئات والتيارات والمنظمات، وكان يقدّم الخدمة كأنموذج؛ الخدمة التي جمعت كل الأطراف المتصارعة على طاولة واحدة، فبعدما كانت القطيعة والانفصام تسود بين الأطراف المتخاصمة، اجتمعوا على مجلس واحد وحاور بعضهم بعضًا، وأدركوا جميعًا أن همُّهم مشترك هو خدمة الوطن. وقد شمل هذا الأسلوب كل الطوائف في المجتمع التركي، من حزبيين ومفكّرين ومثقفين ونقابيين ورياضيين وفنّيين... إلخ، وأصبح الأستاذ فيما بعدُ الرئيس الفخري لهذه الملتقيات الحوارية.

تلك قبسات من تجربة علمية لزائر وَقَف على أساليب الخدمة عن كثب، ضمّنّا فيها جانبًا مما يجب أن يقال وبما يسمح به المقام. ■

(*) أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بجامعة القاضي عياض في "مراكش" / المغرب.

الهوامش

(١) حديث عبد الله بن مسعود أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل، ص:٢٢-٢٣ بإسناد حسن. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي طبعة ١٩٨٤م.

(٢) حديث جابر بن عبد الله الأنصاري، أخرجه الدارمي في سننه، ٨١/١.

(٣) انظر: "اجتياز الزمن والمسافات"، فتح الله كولن، ٢٥ مارس ١٩٩٠م، إزمير/تركيا.

(٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر كتاب "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" للأستاذ فتح الله كولن، تكلم فيه عن السيرة النبوية في خمسة أقسام، وملحق للسنة النبوية من حيث تقييدها ومكانتها في الشريعة الإسلامية.. وكتاب "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"، وكتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، وكتاب "التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح"، و "ترانيم روح وأشجان قلب" وغيرها من الكتب والرسائل العلمية القيمة.

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٧، وانظر الآية ١٥٨ من نفس السورة، وغيرها كثير.

(٦) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم " لو كنت متخذا خليلا " ١٢/٧ برقم ٣٦٧٣ ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة ١٩٦٧/٤-١٩٦٨، برقم ٢٢٢ و ٢٥٤١.

(٧) طرف من حديث مرفوع أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي أمان لأصحابه ١٩٦١/٤ برقم ٢٠٧ و ٢٥٣١.

hiramagazine.com

أ.د. يحيى وزيري*

زهرة اللاّله
الخدمة "من ذاق عرف"

س

سألني صديقي ونحن نسير معًا متجهين إلى مسجد السلطان أحمد بإسطنبول ونحن نمر بجانب أزهار التوليب (اللاله):

"لماذا يهتم الأتراك بتلك الزهرة بالذات؟ ولماذا أخذت هذه المكانة في رؤية وفكر الحضارة العثمانية، وفي العديد من فنونهم المرئية أو المسموعة؟"، وكأن هذا الصديق أراد أن يقول لي أنها زهرة كأي زهرة أخرى، فلماذا تلك المكانة والأهمية؟ قلت له: "نعم أخي العزيز هي زهرة، ولكنها ليست مثل باقي الأزهار، كما أنه يوجد "رجال ولا كأي رجال"[١].

فزهرة "اللاله" ترمز في فكر الحضارة العثمانية إلى الحب الإلهي، لأن حروفها هي نفس حروف اسم الجلاله "الله"[٢]، من هنا نجد انتشار استخدامها في فنون الحضارة العثمانية بأشكال متعددة ومتنوعة. فيمكن أن تجدها مرسومة على بلاطات من السيراميك بأسلوب فني راق، أو منسوجة على قطعة من القماش معلقة على الحائط أو على بساط مفروش على الأرض، أو معنى مستلهمًا في قصيدة شعر أو في لوحة فنان تشكيلي.

لقد وجد فيها -مَن عرفوها- رمزًا للصدق والصفاء والوفاء والعطاء... لقد أضحت ملهمة لأصحاب القلوب الرقيقة والعقول المنيرة، فتجلّت في أعمالهم رمزًا للإيمان وحبًّا للجمال... فهل فهمتَ أخي وصديقي العزيز؟!

إن بعض الرجال يشبهون زهرة التوليب (اللاله) في كونها رمزًا للعطاء والإلهام، فكما أن ألوانها مختلفة فمنها الحمراء والصفراء والبيضاء، فهم أيضًا مختلفون في درجة الغنى أو الثقافة أو المكانة الاجتماعية... ولكن يجمعهم كلهم مشروع إيماني دعوي واحد، ألا وهو "الخدمة".

و"الخدمة" لمن لا يعرف، هي جوهر المشروع الدعوي للمرشد والمربي "هُوجا أَفَندى" أو "الأستاذ المعلم" محمد فتح الله كولن، أيْ خدمة الإيمان والقرآن عن طريق رجال وفرسان الخدمة، ولا سيما رجال الأعمال الذين يطلق عليهم "الأصناف" الذين يقومون بالعديد من أعمال الخير التي أمر بها الإسلام، كبناء المدارس والجامعات والمستشفيات، أو بكفالة طالب علم أو بإطعام ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(البلد:١٥-١٦).

وقد كان الإطار الذي انتظم تنفيذ هذا المشروع

أنا لم أقابل الأستاذ ولو مرة واحدة في حياتي، ولكن أستطيع أن أوكّد أنني رأيتُه في كل تلاميذه ومحبيه وكل مَن ينتسب إلى مشروع "الخدمة".. فهنيئًا للأستاذ بأزهار "اللاله" التي زرعها في حدائق الإيمان.

الدعوي التربوي، هو مبدأ "التلطّف" تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾(الكهف:١٩)[٣]، الكلمة التي تتوسط القرآن الكريم.

التقيت بعض هؤلاء "الأصناف" خلال زيارتي لإسطنبول وبورصة، فيحكي أحدهم مشاعره الإنسانية وهو ذاهب في إحدى المرات إلى جلسة من جلسات "الهمّة"، وفيها يلتقي المنفقون في سبيل الله للتباري بالمنح للطلبة، أو في جمع الأموال للإنفاق في أوجه الخير المختلفة، فيوضح حديث النفس الداخلي بالتعلل بعدم استطاعته المشاركة إلا بقدر يسير من المال. ثم يخبرنا بأنه ما إن وطئت قدمه جلسة "الهمّة" ورأى باقي إخوانه من الأصناف، حتى دبّت فيه روح إيمانية مختلفة، فيجد نفسه وقد تبرّع بأكثر مما قرر قبل أن يلتحق بالجلسة.

ومنهم من حكى لنا أنه قد أخرج أموالاً كثيرة جدًّا، وفي كل مرة كان يفعل ذلك يجد أن الله يخلف عليه أكثر مما أنفق وأخرج في سبيل الله.

أما الأستاذ حسن؛ نعم فأنا أتذكّر اسمه جيدًّا ربما لأنه كان يبكي وهو يروي لنا ما حدث له في عيد الأضحى بإحدى السنوات الماضية، حيث خرج من تركيا ذاهبًا لقضاء العيد في إحدى البلاد الأفريقية هو ومجموعة من "الأصناف"، وبعد صلاة العيد وذبح الأضاحي، كان ومن معه يطرقون أبواب المنازل يوزّعون من لحوم الأضاحي... فطرقوا أحد الأبواب ففتحت لهم امرأة، فأخبرها بأنه مسلم ويطلب منها أن تأخذ منه بعضًا من لحم الأضحية... فبكت المرأة وقالت له: "أنا مسيحية، فكيف تعطيني هذا اللحم"، فقال لها: "لا بأس نحن لا نفرّق بين مسلم ومسيحي"، وقام بإعطائها نصيبًا من لحم الأضحية.

hiramagazine.com

"قصص من واقع الخدمة تفوق الخيال" كما روى بعضها الدكتور محمد باباعمي في كتابه "ذي قربتي"[٤]، كقصة علي، وصاحبة الدِّين، وعرَبة العمّ رمضان، وغيرها من القصص التي توضح لحظات الاختيار بين المصلحة والواجب، وبين الإنفاق والبخل، وبين الدنيا والآخرة.

لقد شاهدتُ بعيني العديد من المدارس والجامعات في إسطنبول وبورصة، وكذلك في تيرانا (عاصمة ألبانيا)، والتي تعتبر أزهارًا وثمارًا لمشروع "الخدمة"، وهي أيضًا ليست كالمدارس العادية التي نشاهدها في أماكن أو بلاد أخرى، فقد جمعتْ بين تعليم اللغة العربية والقرآن الكريم إلى جانب أحدث المعارف الإنسانية.

وعندما سألتُ عن عدد تلك المدارس، أخبرتُ أنها تزيد عن ألفَي مدرسة تنتشر في حوالي مائة وستّين دولة بقارات المعمورة المختلفة.

إن دور مشروع الخدمة يمتدّ أيضًا إلى رعاية الكثير من الطلبة، ليس فقط على المستوى المادي، ولكن الأهمّ والأبقى، على مستوى رعاية التربية والسلوك.

رأيت مشهدًا بسيطًا من مشاهد تلك الرعاية والعناية؛ عندما دعيتُ أنا وبعض الزملاء لتناول وجبة العشاء في شقة يقطنها بعض طلبة الجامعات بإسطنبول في إطار مشروع الخدمة. التقيتُ بهؤلاء الأبناء الأعزّاء، واستمعتُ منهم كيف تأثّروا وتغيّرت العديد من سلوكياتهم إلى الأفضل... كيف أصبحوا يعتمدون على أنفسهم ويتعايشون معًا كإخوة متحابّين متعاونين.

لقد عرفت مِن بعضهم أنهم عندما يزورون ذويهم من حين لآخر، فإن الآباء والأمهات يشعرون بالتغيير الملحوظ في سلوكيات هؤلاء الأبناء. لقد أصبحوا أكثر اعتمادًا على أنفسهم، تحسّنت وارتقت سلوكياتهم. إنهم يسيرون في الطريق الصحيح.

نسيت أن أقول لكم إنني في تلك الليلة الممتعة مع هؤلاء الأبناء، أكلتُ طعام العشاء وهو طبق "المقلوبة" المعروف في تركيا، وكانت دهشتي أن تلك المأدبة الرائعة كانت من صنع أيديهم.

إن ما لفت نظري عندما تعاملت مع فرسان ورجال الخدمة، حبّهم واحترامهم الشديد للأستاذ كولن، ومن مظاهر هذا الحب التي لمستُها بنفسي، أنني قمتُ بإهداء أحد مؤلفاتي لأحدهم (لا أريد أن أذكر اسمه، فأنا أعرف أنه لا يحب ذلك)، ففُوجئتُ أنه يقول لي "اكتب الإهداء على صفحات الكتاب للأستاذ، وسوف أوصله له في أمريكا حيث مكان إقامته الحالية".

تلاميذ الأستاذ كولن يستشهدون دائمًا بكلماته وأفكاره، كلما جلستُ معهم يحدّثونك عن مواقف الأستاذ وعطائه لكل مَن يعرف أو لا يعرف بلا حدود... أنا لم أقابل الأستاذ ولو مرة واحدة في حياتي، ولكن أستطيع أن أوكّد أنني رأيتُه في كل تلاميذه ومحبيه وكل مَن ينتسب إلى مشروع "الخدمة". فهنيئًا للأستاذ بأزهار "اللاله" التي زرعها في حدائق الإيمان.

في محاضرة لي بمدينة بورصة، وقفتْ طالبة تركية تسألني: "لماذا يقِف البعض موقفًا سلبيًّا من حركة الخدمة؟" فأجبتُها مبتسمًا: "يا بنيّتي! من ذاق عرَف... هم لم يذوقوا، فأنّى لهم أن يعرفوا؟!".

هي زهرة، ولكنها ليست مثل باقي الأزهار... كما أنهم "رجال ولا كأيّ رجال"[٥]. ■

(*) كلية الآثار، جامعة القاهرة / مصر.

الهوامش

(١) مقتبس عن كتاب الأستاذ فريد الأنصاري بنفس العنوان، ويقصد تحديدًا رجال وفرسان الخدمة. (انظر: رجال ولا كأيّ رجال، أ.د. فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣).

(٢) مقال "حبيبتى يا زهرة اللاله" محمد باباعمي، مجلة حراء، العدد:٣٧ (يوليو-أغسطس ٢٠١٣).

(٣) فتح الله كولن.. رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس. دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣.

(٤) ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، محمد باباعمّي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣.

(٥) "رجال ولا كأيّ رجال" هو مقال ألّفه العالم الفاضل الأديب المغربي المرحوم فريد الأنصاري حول رجال الخدمة، ونشر هذا المقال في مجلة حراء، العدد:١٣ (أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٨).

hiramagazine.com

د. محمد جكيب*

التغيير الناجح

لمحات من المنجز في رؤية الأستاذ فتح الله كولن

منذ أحسّت أقطار العالم الإسلامي بأنها فقدت الشهود الحضاري، وتخلفت عن ركب التطور بمسافة طويلة، تحركت آلة التفكير في أسباب الأزمة والعطل الذي ولّد العقم الإبداعي لدى المسلمين. منذ ذلك الحين أثيرت الآلاف من الأسئلة، وبرزت أجوبة عديد ومشاريع إصلاحية متطلّعة إلى التغيير، لكن الأسئلة المثارة على مدى قرن ونصف أو قرنيين من الزمن تفيد بأن العقل الإصلاحي كان مسكونًا في الغالب بهَمّ البحث عن علة تقدم "الآخر" المسيحي وتأخّر الـ"أنا" المسلم؛ بمعنى أن طبيعة السؤال كانت تبطن بعض أنانية تميل إلى الظن بأن الحضارة سرقت من المسلمين ومن عالمهم، وقد سرقها الآخر. ظل تشريح الأزمة مثارًا في حضرة هذا "الآخر" الذي تفوّق على المسلمين وسرق شهودهم الحضاري على الناس. لم تكن الأسئلة متّجهة إلى الذات وإلى ما يرتبط بها، وأما الأجوبة المقترحة فكانت تحمل في طياتها الفشل لاستحضارها إشكالية الصراع مع نموذج قام على أساس مادي، وعلى مقومات تختلف بالضرورة

> إن "الإنسان الجديد" الذي يبشر به الأستاذ والذي بدأت طلائعه الأولى تلوح في الأفق، يحتضن الوجود كله، بل يعتبر ذلك من أوجب واجباته.. فـ"جيل الأمل" هذا مستعد دائمًا للهجرة من أجل احتضان هذا الإنسان في كل مكان في هذا العالم، غير آبه بالبعد عن الوطن والأهل، تاركًا خلفه الوطن والأحباب، ومضحّيًا بكل ما يشده إلى الدنيا.
>
> حراء

عن مقومات الذاتية الثقافة. كانت المشاريع الإصلاحية مجرد اقتراحات مفتقرة إلى خطط للتنزيل والتفعيل، ومجرد أحلام وأشواق موغلة في المثالية.

حاول بعض من كان بيدهم سلطة القرار إدخال إصلاحات في المجال العسكري والصناعي، وبناء قوة عسكرية تضاهي عسكرية الآخر الأوربي. حدث هذا مع بعض السلاطين في تركيا، ومع محمد علي باشا في مصر، وكذلك حاول خير الدين التونسي في تونس في المجال البحري... لم يكن في مقدور هؤلاء لمس عمق الأزمة، فاختزلت عندهم وعند من نظّروا لهذه الإصلاحات في مجرد تقنيات ومهارات ينتج اكتسابها إنهاء الأزمة وعودة الشهود الحضاري.

ومن جهة ثانية فإن بعض الذين قاربوا حقيقة أزمة المسلمين، تصرّفوا باعتبارهم نخبة اجتماعية تؤدي مهمة جليلة، هي إنتاج الأفكار لتجاوز أزمة الذات، لكن هذه النخبة صعدت إلى برج عاجي وأحاطت نفسها بهالة الأنانية المعرفية، فلم تر وجوب نزول النخبة بالمعرفة الإصلاحية من مستوى النظر إلى مستوى التفعيل، ولم تنخرط في عمق المجتمع لإحداث التغيير، وحتى عندما اتجهت تريد نشر تصوراتها الفكرية اختارت نخبة ضيقة للقيام بذلك. فحكم على أغلب مشاريع الإصلاح بالبقاء حبيسة نخب عاجزة عن الوصول إلى شرائح واسعة، وعندما شعرت هذه النخبة بأهمية الالتحام مع المجتمع اختارت -مع الأسف- العمل السري ولم تستطع الخروج إلى العلن.

لا مبالغة إذا قيل بأن أغلب مشاريع الإصلاح كانت مسكونة بهموم الحكم والسلطة وإلحاح فكرة التغيير من القمة، وقد كان هذا العامل أحد الأسباب المباشرة التي ساهمت في بروز البعد الأيديولوجي في بعض مشاريع الإصلاح والتغيير، وخاصة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين، لِتخلق الحدث خلال مرحلة ما بات يعرف بـ"الربيع العربي"، ولِتجد نفسها أمام امتحان عسير جدًّا قد يعيد أجوبة الإصلاح إلى نقطة الصفر.

قد تشعر هذه الصورة القاتمة بانسداد الأفق، لكن الصورة ليست بهذه القتامة وليست بهذا العجز، لأن الذين استطاعوا تجاوز عقدة الصراع واستبطنوا الذات ولمسوا هويتها الثقافية ملامسة فعلية، قد تمكّنوا من تجاوز التنظير إلى الإنجاز.

امتحان الإنجاز في الفكر الإصلاحي المعاصر، أكبر امتحان يواجه الإصلاح في العالم الإسلامي في الوقت الراهن هو امتحان المنجز الحضاري، والأساس الفكري الذي يرتكز عليه. بعبارة أخرى إن أسئلة المرحلة في مجال الإصلاح يجب أن تركز على ما أنجز وعلى أي أساس أنجز وآفاق المنجز الآنية والمستقبلية، وأن تركز كذلك مناهج الإبداع في تحويل الفكري إلى حركية.

"الخدمة" -أو "هِزْمَت" حسب التعبير التركي- من أنجح التجارب التي ترتكز على الفاعلية الحركية، وهي تجربة نموذجية، جديرة بالاهتمام وبالدراسة، وجديرة بأن يتخذ أبو الحركة الروحي ومؤسسها الفعلي الأستاذ فتح الله كولن، قدوة في مجال الإصلاح وبناء رصيد من العمل الإيجابي.

راكم الأستاذ على مدى خمسين سنة خلت النجاح في مجالات مختلفة، لكن أهمها هو المجال التربوي الذي ظل طيلة حياته يعمل على صقل منهجه وعلى تطوير مقدراته، حتى استقام عوده وصار اليوم علامة أو ماركة عالمية حاضرة في أكثر من ١٦٠ دولة.

لا مجانبة للصواب إن قيل بأن أغلب الحركات الإسلامية كانت دائمًا محط شك بالنسبة للقوى العالمية وخاصة أوربا وأمريكا؛ فقد عجزت هذه الحركات عن بناء رصيد من الثقة لدى هذه القوى، وهو ما أبقى حدة التوتر قائمًا إلى اليوم، يرجع ذلك إلى طبيعة الخطاب الذي انبنت عليه أدبيات بعض هذه الحركات، إذ لم تتمكن من بناء خطاب يسمح للآخر بالانفتاح عليها، وظلت بفعل عقدة الآخر عاجزة عن تبني خطاب مطمئن تستطيع تسويق نفسها من خلاله. استفاد الأستاذ فتح الله كولن من مواطن الخلل في هذا الخطاب، فطوّر خطابًا أصيلاً نابعًا من مرتكزات الثقافة الذاتية، منفتحًا على المجتمع الإنساني كله.

إن الخدمة ليست مجرد تيار حركي، ولا مجرد تيار فكري نجح في تفعيل رؤيته الفكرية، بل هو أكبر

hiramagazine.com

من ذلك بكثير؛ فالخدمة في الوقت الراهن نمطُ حياة وأسلوب عيشٍ ينخرط فيه العديد من فئات المجتمع، من أجل مصلحة المجموع... إنها وعي جمعي إيجابي آخذ في الانتشار، بل هي تيار عالمي لأنها منفتحة على العالم كله من خلال أنشطة كثيرة أهمها التربية والتعليم، تربية تقوم على عنصر مركزي هو نشر القيم الإنسانية السامية، المرتكزة على التسامح وعلى احترام إنسانية الإنسان، واحترام المحيط الذي يعيش فيه. وهي لا تَدّخر جهدًا بفضل إلحاح فتح الله كولن المستمر من أجل غرس هذه القيم، وإيجاد جيل إنساني جديد يعيد التوازن للعالم.

الإنسان المشكلة، الإنسان الحل

لقد أدرك الأستاذ فتح كولن منذ وقت مبكر أن أكبر مشكل يواجه المجتمعات الإسلامية -بل العالم كله- هو مشكل "الإنسان الصالح" الذي يتحرك حركة متوازنة ومنسجمة مع مكونات الوجود؛ ولمس بإحساسه المرهف وروحانيته العالية أن المشكلة تكمن في "الإنسان"، وأن حضارة المجتمع الصالح متصلة بصلاح الإنسان، وأن الحضارة الإسلامية كانت قادرة على العطاء والإبداع عندما كانت تتوفر على نماذج بشرية مرهفة الحس روحانية التطلع، مشدودة إلى الآفاق العالية، يقول: "الإنسان كائن عاجز بحد ذاته، ولكنه لا تخفى عن النظر حقيقة واضحة وهي أنه يبدي مقدرة كبيرة عندما يستند إلى صاحب القدرة اللانهائية. أجل، عندما يستند إلى صاحب القدرة اللانهائية ينقلب مِن قَطْرة إلى سيل، ومِن ذرّة إلى شمس، ومِن متسوّل إلى سلطان".

لقد كان الرسول ﷺ نموذجًا للإنسان الكامل الذي اصطفاه الله تعالى، ليكون قدوة للإنسانية في سعيها إلى إعمار الأرض وفق المسلك الذي يرضاه تعالى. وقد نظر الأستاذ فتح الله كولن لشخصيته النبوية والإنسانية ﷺ على أنها الغاية والهدف الذي يتحتم التمسك به بغرض الوصول إلى تجاوز أزمة الذات الإنسانية والحضارية، يستمد هذا الاقتداء مشروعية عند الأستاذ فيما يترتب على الاصطفاء، وهو الفهم العميق والدقيق

"الخدمة" من أنجح التجارب التي ترتكز على الفاعلية الحركية، وهي تجربة نموذجية، جديرة بالاهتمام وبالدراسة، وجديرة بأن يتخذ أبو الحركة الروحي ومؤسسها الفعلي الأستاذ فتح الله كولن قدوة في مجال الإصلاح وبناء رصيد من العمل الإيجابي.

حراء

لحقيقة الوجود، ونجاحه ﷺ في تكوين نماذج بشرية سامقة كالصحابة رضوان الله تعالى عليهم جميعًا، الذين أدركوا من خلال أستاذهم ﷺ أنهم في حاجة إلى أن تعزف قلوبهم وجوارهم إيقاع التوحيد بشتى السبل والوسائل في كافة مجالات الحياة، وأن يبلغوا هذا الإيقاع إلى أقصى نقطة يستطيعون الوصول إليها. لقد جعلهم الرسول ﷺ يدركون أنهم ينبغي أن يكونوا مبلغين ومربين وأساتذة للعالمين، لأن أستاذهم ﷺ أرسل للعالمين.

تمثل الأستاذ فتح الله كولن هذه الأبعاد وغيرها في شخصية الرسول ﷺ فأدرك أن حاضر العالم الإسلامي ومستقبله لا يتحقق بغير تمثل حقيقي وصحيح لمختلف جوانب سيرته وسنته ﷺ. فبغير الرجوع الفعلي إلى قيم الإسلام لا أمل في انصلاح حاضر هذه الأمة، وهو ما يحتم عليها إعادة اكتشاف ذاتها بالتعرف على حقيقة البعد الإنساني فيها، أي أن تدرك معنى الإنسان فيها، حيث يقول محلّلاً حالة الانحراف التي وصلتها الذات: "تعرض الإسلام منذ حرمنا من إرث الأرض إلى معالم ينفطر لها القلب في برزخ ضعف المنتسبين إليه وتعدي خصومه وعدم إنصافهم... لا ينكر أن اهتزاز الفكر المسلم والمنطق المسلم، وتباطؤهما وخمودهما وتكدرهما وفسادهما، قد أبعد المسلمين عن الصراط المستقيم ذي الهدف القرآني والفلك النبوي... وحجب ضوء الشمس عن عالمية الإسلام، وعطل أداء وظيفة الدين المحيط بالعالم... إن إزالة هذا الانحراف الهرم المادّ جذوره إلى عصور خلت، المدعوم بالعلم والتكنولوجيا في عصرنا، هو بحاجة إلى اكتشاف أنفسنا من جديد، والعثور على ذاتنا، وتعرفنا -كرة أخرى-

hiramagazine.com

على الشعور الإسلامي، والمنطق الإسلامي، وأسلوب محاكمته العقلية".

الخطاب الإسلامي وروح التارخ

حافظ الأستاذ فتح الله كولن دائمًا في خطابه الإصلاحي على روح الرؤية الإسلامية، فجعل هذا الخطاب ثابتًا في مبادئه، لكنه مرن في أساليب تنزيل المبادئ، وقادر على التكيّف مع طبيعة الواقع، ولذلك يمكن القول بأن الأستاذ فتح الله كولن، قد طور الخطاب الإسلامي في اتجاهين:

- الاتجاه الأول ينظر إلى الواقع المحلي وإشكالاته المستعصية، وما يتطلبه هذا الواقع من حلول تنهي زمن العقم، وتعيد قاطرة الشهود الحضاري إلى السكة الصحيحة.
- وأما الوجه الثاني لهذا الخطاب فيطل على الإنسانية كلها، مفعلاً بذلك أحد أهم المرتكزات المؤسسة للإسلام باعتباره دينًا للعالمين، لأن الرسول ﷺ بعث للعالمين.

لا ينبغي الظن بأن وجهي هذا الخطاب متعارضين، بل هما متكاملين، رغم أن الحكمة وإكراهات الواقع قد فرضت بروز الخدمة باعتبارها حركة مجتمع مدني من خلال الوجه الأول قبل الوجه الثاني، وقد يختلف الوجهان في طبيعة المفاهيم الموظفة وطبيعة الخطاب الموظف، لكنهما وجهان للعملة الذهبية الواحدة.

لا تتعلق القضية في نظر الأستاذ بمجرد منجز هنا ومحاولة هناك، أو بالتفكير في مشروع هنا أو مشروع هناك، أو بفتح بضع مدارس أو عقد منتديات للتفكير والتأمل هنا أو هناك... إنها أكبر من ذلك، إنها قضية إعلان نفير عام، إلى درجة أن يصير ذلك نبض مجتمع بكامله بمختلف فئاته، وأن يصير حليبًا يرضعه أبناء هذا المجتمع منذ نعومة أظافرهم.

الرجوع إلى التاريخ -بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن- يعني الرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ، وسيرة الصحابة الكرام ﷺ، ليس من أجل ترديدها قصصًا بطولية تُروى للفتيان، بل من أجل الاقتداء بهؤلاء الأبطال، واستحضار تفاصيل حياتهم حتى تكون المصباح الذي يشدّ الذات إلى إعادة صياغة واقع اليوم. بعبارة أخرى إن مفهوم الأستاذ فتح الله كولن للتاريخ متعدد الأبعاد، ومن أبعاده بناء جيل جديد قادر على الوصول إلى مستوى الأفق الإيماني والحركي الذي وصله الصحابة الكرام ﷺ. لقد عاش الصحابة بتوجيه من مرشدهم وأستاذهم وبما قذفه نور النبوة في جوارحهم، من فكر إسلامي وتصور إسلامي بشموليته وروحانيته وواقعيته، فاقتربوا من الوجود والحوادث بسياق إسلامي، فكانت كل محاكماتهم منطلقة من هذا الفكر الإسلامي الذي تشربته أرواحهم، وكانت كل حركيتهم قائمة على التصور الإسلامي.

وتحقيقًا لهذه الغاية العظيمة لا ينبغي في نظر الأستاذ أن تكون السيرة النبوية وسيرة الصحابة مجرد أحداث خالية من الحياة والمعنى، لأنها حققت الاستشعار فالتعقل بالكائنات والإنسان والحياة بمعلومات سليمة، مناسبة للأمر نفسه، ثابتة المحور في مبدئها وغايتها. هذا الخطاب عند الأستاذ فتح الله كولن محل الأحلام والشعارات، بل هو محل التطلعات العملية والخطط والمشاريع القابلة للإنجاز والتنزيل.

يجد المتأمل في حياة الأستاذ فتح الله كولن أنه ألزم نفسه قبل غيره برياضة روحية متطلعة إلى تمثل سيرة الرسول ﷺ، يقول في مقدمة كتاب "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية": "إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمُنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له، كان رغبة ملحة لدي -كما عند كثيرين- وهاجسًا من هواجس فكري ومشاعري"، ويقول محفّزًا نفسه: "ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعتُ أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قِطميرًا" له، هل استطعت أن أُشْعركم بما

hiramagazine.com

يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه ﷺ... حب سيد السادات حبًّا تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟".

الأبطال في قصة النجاح

تبدأ قصة نجاح الأستاذ فتح الله الحركية بهذه الآمال والتطلعات مع عصبة من الشباب الواعد، من خلال حرص صادق على أن يكون لهم أبًا روحيًّا ومربيًا وموجهًا. لقد رباهم على حب الرسول ﷺ وعلى الاقتداء بالصحابة الكرام ﷺ، من خلال اقتدائه -هو شخصيًا- بسيرة الرسول ﷺ والتحلي بصفات الصحابة رضوان الله عليهم، ربما لم تكن هذه العصبة تعرف الشيء الكثير عن طموحات الأستاذ وتطلعاته الإنسانية، لكن الأستاذ نفسه كان يعرف بأنه قد نذر حياته لله، ومن أجل وضع اللبنات الأساسية لإيجاد جيل جديد صناع للنهضة، ليس من الضروري أن يعلم كيفية التخطيط والتنظير لتلك النهضة، لكنه كان يعرف أنه ملزم بفعل الخير والصلاح وأن يسعى قدر مستطاعه إلى أن يكون راشدًا في حركيته. لقد جعل الصدق مع الله والصبر على ذلك شعار مرحلة رفع قواعد البناء والتشييد.

أدرك الأستاذ فتح الله كولن منذ وقت مبكر حاجات الواقع، فحدد الأولويات ورسم الخطط في عالمه الداخلي، وتسلح بالثقة في الله تعالى مستحضرًا روح القرآن وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾(مريم:٩٦). لم يكن الأستاذ فتح الله كولن يتطلع إلى هذا الود من أجل الحصول على مركز اجتماعي أو شهرة، بل كان يأمل ويرجو أن يوفقه ربّه في أن يفتح القلوب، ولذلك وبعد مضي فترة من الزمن، ركز اهتمامه بمعية تلك العصابة على افتتاح محاضن الطلبة.

كانت محاضن الطلبة في مرحلة ما، من مراحل عمل الأستاذ الحركي، تلبي جملة حاجات منها ضبط

لا شك أن خطاب الأستاذ خطاب مسكون بنبرة آملة وليس نبرة يائسة، فهو يحرص على أن يُشعر متلقيه بأنه متيقّن بأن الأفق مشرق وبأن المستقبل واعد.. إنه يستمد هذه الطاقة من الخطاب القرآني نفسه، ومن وجهه المطبق وهو السنة النبوية باعتبارها الوجه العملي للقرآن الكريم.

نجاعة المنهج التربوي الذي طبّقه في بداية المشروع الإصلاحي، ومنها توفير الظروف المواتية للشباب حتى يتفرّغوا للتحصيل العلمي والمعرفي الذي يؤهّلهم ليكونوا أفرادًا قادرين على المساهمة في بناء الوطن وتطويره نحو الأفضل... ومنها كذلك حماية هؤلاء الشباب من أن تنزلق أقدامهم إلى شتى أنواع الانحراف الأخلاقي والفكري وإلى العنف بشتى أنواعه. وقد لعبت هذه المحاضن دور المدرسة الإعدادية التي تعد الأطر التربوية التي أدارت باقتدار مرحلة توجيه الشعب إلى بناء المدارس، وكانت هذه المخرجات هي المحرك الذي أدار دوالب المدرسة والتعليم.

المدرسة حضن جيل الأمل

آمن الأستاذ فتح الله كولن منذ البدايات الأولى لعمله الإصلاحي، بأن أنجع وسيلة وأقربها إلى الإصلاح هو تكوين أجيال قادرين على إدراك حقيقة وجودهم ووظيفتهم التي خُلقوا من أجلها، وقادرين في الوقت نفسه على ممارسة عبوديتهم لله ﷻ في دائرة الإعمار والبناء، ولا سبيل للوصول إلى هذا المستوى سوى بإيجاد مدرسة وفق مواصفات محددة.

لقد كان حرص الأستاذ منصبًّا على البحث عن السبل التي تجعل المجتمع بجميع فئاته وبجميع أفراده يستشعر دوره الحاسم في عملية البناء، من خلال وعي عام أو وعي جمعي يجعله يستشعر دوره في مقدمة الصفوف على أنه هو المسؤول الأول عن إعادة الاعتبار للذات بربطها بمرتكزات الثقافة الذاتية، وجعل ذلك جزءًا من تحقيق مبدإ العبودية إن لم تكن هي عين العبودية.

ثم آمنت فئات واسعة من أبناء المجتمع بأنهم ملزمون بأن يعتبروا أمر توفير شروط البناء والإصلاح يعنيهم مباشرة، فأخذوا بزمام المبادرة بأنفسهم بتوجيه من الأستاذ فتح الله كولن الذي ظل يرفض بإصرار أن يكون له علاقة عضوية مباشرة بما يقوم به المجتمع من مبادرات تتطلع إلى تحقيق آماله وأهدافه، فانبرى المجتمع يبني المدارس التي أثثها وأشرف عليها "الجيل الذهبي"، الذي تربّى في المحاضن التي وضع الأستاذ فتح الله كولن منهج عملها، من خلال تكوينه لتلك المجموعة الأولى في ستّينيات القرن الماضي.

الوقف أهم بعد في فلسفة الخدمة

ارتباطًا بالتاريخ، يرى الأستاذ أن معرفة التاريخ من أوجب الواجبات التي يتوجب على الإنسان الجديد معرفته ومعرفة ترابط أحداثه، يقول: "الحاجة ماسة في أيامنا إلى عقل موضوعي يتصور الأمس واليوم معًا، قادر على التمعن في الكائنات والإنسان والحياة دفعة واحدة، موهوب في المقايسة والمقارنة، منفتح على بُعد أسباب الوجود وعلله، محيط بظهور الأمم والجماعات واضمحلالها". ومن أهم القيم الضاربة بجذورها في تاريخ الحضارة الإسلامية، والسلوكات الجميلة للمجتمع المسلم، التي أعاد لها الأستاذ فتح الله الاعتبار وأعاد توجيه المجتمع إليها، نجد نظام الإنفاق والوقف؛ فقد أقنع المجتمع بأهمية البذل والعطاء، وبأهمية أن يكون ذلك في الدائرة التي تشيّد المستقبل، كان جهد الإحسان متجهًا قبل دعوته إلى بناء المساجد، فأعاد توجيه البوصلة جهة بناء المدارس والمعاهد التربوية التي تكوّن الأجيال الذهبية.

سجّل التاريخ للمسلمين تطويرهم لنظام الوقف، حتى صارت أغلب مناحي الحياة تدبَّر بأموال الوقف، وطوّر المسلمون جملة قواعد وضوابط لتدبير هذا النظام، قد تصلح لهذا العصر. وقد أعاد الأستاذ إنتاج هذه القواعد وصياغتها وفق قوالب منهجية مرنة تستطيع التكيف مع طبيعة الحياة المعاصرة التي تتميز بالتشابك والتركيب.

يتمثل النجاح هنا في إعادة الاعتبار للتاريخ من خلال ربط المجتمع بأحد المظاهر التي تحقق فيها تفعيل أساس من أسس التصور الإسلامي وهو الإنفاق والصدقة والتضحية والعطاء والبذل... وقد كان هذا المجال أحد أهم المجالات التي تَنافس فيها الصحابة الكرام ﷺ فيما بينهم. فالرجوع إلى عصر السعادة -كما يطلق عليه الأستاذ فتح الله كولن- لم يكن بغرض المتعة، بل بنيّة الاقتداء. يذكر تلامذته الذين تلقوا عنه مباشرة، وأجازهم في العلوم الشرعية، أنه كان يقول لهم "كونوا مثل الصحابة أو موتوا!"، أي كونوا في مستوى أفق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

تميزت مختلف مراحل التكوين والتأطير بالنسبة لهؤلاء الحَواريين بالشحن المستمرّ، الذي كان الأستاذ يمارسه -وما يزال- مع تلامذته (أقصد أبناءه) شحذًا لهممهم، ومع ذلك فإن أكثرهم همّة يؤكد بأنه دون أفق انتظار الأستاذ، لأن همته عالية جدًّا وهو لا يشبع.

التفويض والأخذ بالأسباب

يلح الأستاذ على ضرورة الأخذ بالأسباب، شريطة أن تكون هذه الأسباب مشروعة تراعي الشروط العامة للتصور الإسلامي، دون أن يغيب عن دائرة نظره أنه لا ينبغي التدخل في شؤون الربوبية كما يقول، لأن الإنسان مسؤول عن العمل والحركية، أما النتيجة من نجاح أو فشل فذلك من تقدير الله تعالى.

حرص الأستاذ طيلة حياته على التنبيه بأن ما يتحقق من منجز في طريق تحقيق الانبعاث والإحياء هو بتوفيق من الله تعالى، وأن الله تعالى يعطي على قدر نيّة العبد وتطلعه، يقول: "ينبغي على الإنسان أن يقوم بوظيفته وواجبه، ولا يتدخّل في لوازم شأن الربوبية. الوظيفة مسؤولية تقع علينا، والتوسل بالأسباب هو مراجعة في حكم الدعوات المرفوعة إلى أبواب الحق تعالى... فإن الله تعالى يُظهر بُعدًا خفيًّا من أسرار قدرته بجعْل ذلك شرطًا عاديًّا في إعمار الدنيا والعقبى، ووسيلة مرعية وشبيهة بزرٍّ سحري لعملية كهربية تضيء العوالم، فيوجد بحرًا في قطرة، وشمسًا في ذرة وعالمًا في عدم من عدم... إن حكم الأسباب -أو أي شيء آخر- لا

hiramagazine.com

يجري على الله تعالى، ولا يقيد إرادته ومشيئته الإلهية. الله يحكم على كل شيء، والله هو الحاكم الأحد المطلق؛ ومراعاة الأسباب وعد العلل وسائل صغيرة ليس إلا بأمر الله تعالى. فنؤمن بهذا الاعتبار بأن الإنسان سيعاقَب إن خالف الشريعة الفطرية المعروفة بسنّة الله عقابًا معظمه في الدنيا، وقسم منه في الآخرة". بل إن الأستاذ يعتبر بأن مصيبة المسلمين في القرون الأخيرة، ترجع إلى عدم إدراك حقيقة وظيفة الإنسان في باب العبودية من خلال الأخذ بأسباب التطور، ومن أهم تلك الأسباب عدم الأخذ بناصية العلوم وخاصة في حقل الآيات التكوينية، بما هي وسيلة لتحقيق العبودية، ووسيلة لمعرفة قدرة القادر تعالى.

أكّد الأستاذ منذ بداية عمله الحركي الإصلاحي ضرورة توجيه الأجيال الجديدة إلى معرفة العلوم وتكوين دهاة في مختلف مجالات العلوم والمعارف، بل تربيتهم على أساس أن لا تعارض بين الدين والعلم، وأن لا تصادم بينهما على الإطلاق... لقد أدرك الأستاذ -كما أدرك النورسي ﷺ- أن علوم الطبيعة قد انحرفت عن مسارها عندما انفصلت عن الدين، فأرجعت التوازن في الوجود إلى محض الصدفة، ونسبت للمخلوق -وهو الطبيعة- قدرات الخلق الخارقة؛ فمسؤولية الأجيال الجديدة التي يتم تكوينها في المدرسة النابعة من خصوصيات الثقافة الذاتية، تتحدد في أن تعرف أن العلوم مظهر لتجلي صفة الرب في هذا الوجود، وهو ما يفرض معرفته بمعلومات سليمة المصدر... بعبارة أخرى إن هذا الإنسان الجديد سيصحّح مسار العلم بربطه بالخالق وبتجليات صفاته في الوجود، بما يعود بالنفع على الإنسانية كلها، وذلك ما ستضفيه الأجيال الجديدة من طابع أخلاقي على العلم وعلى الممارسة العلمية، بعد أن ألغت نظرية الطبيعة القيم والأخلاق عن مجال العلم. يقول الأستاذ في معرض حديثه عن إحدى أهمّ صفات ورثة الأرض: "الوصف الثالث للوارث هو الإقبال إلى العلم بميزان ثلاثية العقل والمنطق والشعور. وهذا الإقبال يأتي في أوانه إذ يشكّل استجابة لمطلب بشري عام في وقت انجرفت فيه البشرية وراء فرضيات غامضة مظلمة وإنها لخطوة خطيرة نحو خلاص الإنسانية عامة. ولقد أشار بديع الزمان النُّورْسي إلى أن البشرية ستتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن؛ فتستمد كل قوتها من العلم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة، وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعا في سبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميع... ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد. ولا نرى سبيلاً غير هذا، يبعدنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيئتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق. إن استدراكنا للنواقص والفجوات التي ألمت بنا في القرون الأخيرة، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمن في شعورنا الباطن... كل ذلك يتطلب منّا إمرار العلم من منشور الفكر الإسلامي، وتمثله عمَليا والإفادة عنه بشتّى الوسائل.".

أعلن الأستاذ النفير العام منذ أكثر من أربعين عامًا مع نفسه، فلم يلتفت لهمومه الخاصة ولم يتزوج، ولم يملك ولم يتمتع، وقضى معظم حياته معتكفًا متضرعًا مفكرًا يقرأ العالم، لأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن كل واحد من أفرد هذا العالم، وملزمًا بأن يجعله يعرف حقيقة وجوده ووظيفته في هذا الوجود الفسيح.

يؤمن الأستاذ فتح الله كولن أن المدخل الذي اختُرِق منه العالم الإسلامي هو المدرسة، التي أُسست في وقت من تاريخ الأمة وفق رؤية غريبة عن هوية الذات وبعيدًا عن مقومات الثقافة الذاتية. تم ذلك من خلال ما يطلق عليه الأستاذ فتح الله كولن "أعشاش التعليم" التي سُلّمت إليها صفوة الأدمغة الطرية دون توجس وقلق، لتملأ أدمغتها بالثقافة الغربية وعاداتها التي كانت نتيجة طبيعية للمدارس؛ لأن هذه المدارس كانت تقدم صنوف هذه الثقافة على العلم، لأنها كانت ترمي إلى تكوين نخب تابعة لها في الرؤية والتوجه تخدم مصالحها ولا

تخدم مصالح الوطن. ولتجاوز هذا، يتوجب تكوين أجيال جديد في مدرسة نابعة من خصوصيات الثقافة الذاتية، وتقدم الثقافة الذاتية وتدرس العلوم في إطار هذه الثقافة الذاتية، دون الإخلال بخصوصيات العصر وشروط المدنية الحديثة، يقول: "جل، لابد من تحقيق تجددنا الذاتي ونهضتنا (Renaissance) عن طريق تلقيح عقول شبابنا بالتفكير العلمي، وذلك سيؤدي إلى تفاعلهم واندماجهم مع الفكر والعلم، كما فعَلنا ذلك قبل الغرب بقرون مديدة. إن القلق المحسوس به في الوجدان العام لسيرنا المنحوس، واضطراب القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وسنين، ورد الفعل لدى إنساننا بسبب استغلال الغير لنا قرونا، أورثنا اليوم شهقةً كشهقة النبي آدم، ونشيجًا كنشيج النبي يونس، وأنينًا كأنين أيوب عليهم السلام. وقد بلغ بنا الأمر أننا بدافع هذه الأفكار والمشاعر وعلى ضوء التجارب التاريخية نشعر اليوم وكأن المسافات قد انكمشت ولم يبق للوصول إلى الهدف سوى خطوات".

خطاب التأميل والحركية في رؤية الأستاذ

لا شك أن خطاب الأستاذ خطاب مسكون بنبرة آملة وليس نبرة يائسة، فهو يحرص على أن يُشعر متلقيه بأنه متيقّن بأن الأفق مشرق وبأن المستقبل واعد... إنه يستمد هذه الطاقة من الخطاب القرآني نفسه، ومن وجهه المطبق وهو السنة النبوية باعتبارها الوجه العملي للقرآن الكريم، الذي كان دائم الإلحاح على أن الالتزام بالعبودية في إطارها العام، يضمن رضى الله تعالى وتوفيقه، شريطة توفر شرط الإخلاص والصبر المتصل بعدم استعجال النتائج واستعجال قطف الثمرات.

يربط الأستاذ فتح الله كولن ربطًا حتميًّا بين الحركية والفكر؛ ففي نظره لا يمكن للفكر وحده صناعة النهضة والإحياء، كما أن الفعل والحركية دون هدي الفكر وتحت إرشاده، حركية تائهة تعطلت بوصلتها. وعندما يربط الأستاذ بين الحركية والفكر، فهو يقصد حركية محددة هي الحركية الإسلامية، وعندما يقصد الفكر يقصد الفكر الإسلامي؛ لأن من شأن توقف الذات عن الحركة وعن الفعل في ضوء الفكر الإسلامي، دخولها في تأثير الدوامات الفكرية الغربية عن الذات وهوتها، الأمر الذي سهل الاختراق. وهذا فعلاً هو ما تعرضت له الذات في الماضي القريب، يقول: "إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغمًا عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء... أما تعاجزنا عن حماية جزئياتنا الذاتية في هذا الذوبان، يعني التسليم لأي تكوين أو حادث يناقض ذاتنا ويضاد جوهرنا. ينبغي على الذين يبرمجون لبقاء الذات أن يطلبوه بكل رغباتهم وميولهم وقلوبهم ووجدانهم وحركاتهم وأفكارهم، لأن حضور الوجود يقتضي توترًا تامًّا في جوهر الإنسان".

أعلن الأستاذ النفير العام منذ أكثر من أربعين عامًا مع نفسه فلم يلتفت لهمومه الخاصة ولم يتزوج، ولم يملك ولم يتمتع، وقضى معظم حياته معتكفًا متضرعًا مفكرًا يقرأ العالم، لأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن كل واحد من أفراد هذا العالم، وملزمًا بأن يجعله يعرف حقيقة وجوده ووظيفته في هذا الوجود الفسيح. وعلى أساس ذلك يرى فتح الله كولن أن الوجود الحقيقي يمر عبر الحركية والفكر، حركية وفكر يغيران الذات والآخرين، فالآخرون يوجدون دائمًا في بؤرة اهتمامه وفي بؤرة اهتمام الحركة المدنية التطوعية المعروفة اليوم بـ"الخدمة"، كما يطلق عليها البعض، والآخر هنا مفهوم صوري يوظف من أجل إلباس الحركية بعدًا اجتماعيًّا، إذ لا وجود للآخر في تصور فتح الله إلا من تم تأخيره وإقصاؤه، يقول: "إن أهم مميزات الحركية الإسلامية والفكر الإسلامي هو أن يكون وجودنا ذاتنا، وأن نجعل مطالبنا مطالب العالم ورغباته، ثم نجد مجرى حركة لنا في عموم الوجود ونسيل بذاتنا في مجرانا الخاص ضمن مجريات عموم الكائنات".

إن "الإنسان الجديد" الذي يبشر به الأستاذ والذي بدأت طلائعه الأولى تلوح في الأفق، يحتضن الوجود كله بل يعتبر ذلك من أوجب واجباته. فـ"جيل الأمل" هذا مستعد دائمًا للهجرة من أجل احتضان هذا الإنسان

hiramagazine.com

في كل مكان في هذا العالم، غير آبه بالبعد عن الوطن والأهل تاركًا خلفه الوطن والأحباب، ومضحّيًا بكل ما يشده إلى الدنيا... ولقد وفقه الله ﷻ ففتح القلوب من خلال فتح المدارس والجامعات والمستشفيات في أماكن عديدة من العالم، حتى في تلك الأماكن التي تعرف توترات ونزاعات سياسية وعرقية ودينية ومذهبية. لقد نجحت هذه المدارس في تقديم صورة إيجابية عن الإسلام غير تلك التي يقدمها الإرهاب وتخويف الآمنين باسم الدين.

أما بعد...

الأستاذ فتح الله كولن مدرسة ناجحة في العمل الإيجابي. والإلمام بجميع جوانب شخصيته الفكرية والحركية يحتاج إلى العديد من الدراسات والأبحاث. ومن المؤكد أن الشهور والسنوات المقبلة ستعرف توسعًا في عدد مَن سيقتربون من عالم هذا المفكر، ومن عالم الخدمة قصد البحث عن أجوبة الواقع الملحة، خاصة بعد فشل الإسلام الأيديولوجي في حلّ ألغاز النهضة.

وإذا كانت بعض التيارات الإسلامية ترى بأن المال وسلطته -بغض النظر عن مصدره- يستطيع شراء كل شيء بما في ذلك النهضة والحضارة، فإن الزمن سيكذّب دعاة هذا التيار الجارف، لأن الحضارة في مفهوم الإسلام لا تقوم على اعتبار المال غاية والدنيا هدفًا. ■

(*) جامعة أبو شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية -الجديدة / المغرب.

المراجع

(1) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٤م.

(2) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠م.

(3) النور الخالد، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٣م.

(4) ونحن نقيم صرح الروح، المقال الرئيس في مجلة حراء، العدد: ٦ (يناير - مارس ٢٠٠٧).

شهادات

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله (سوريا):

أنا رأيت الأستاذ فتح الله مرة واحدة، وفي هذا اللقاء ظهرت لي جوانب متميزة ونادرة في شخصيته: أولاً تواضعه الجمّ، والتواضع شأن العلماء. إن الإنسان كلما ازداد علمًا كلما ازداد تواضعًا كالشجرة التي كلما ازداد حملها ازدادت أغصانها دنوًّا على الأرض، فرأيت هذا في شخصه. الأستاذ فتح الله لا يستأنس إلا بالإسلام وعلومه. أنا أقول له أُهنّئك على هذا الذي أقامك الله ﷻ فيه، بل أهنئك على عظيم محبة الله ﷻ لك، ولولا هذه المحبة لما سيّرك في هذا الطريق، ولولا محبة الله ﷻ لك، لما جعل جهودك مثمرة ترى آثارها في حياتك.. وأسأل الله ﷻ لك مزيدًا من التوفيق، وأسأل الله ﷻ لك العافية التامة حتى تزداد سيرًا في هذا الطريق الذي يُنعشك ويُطربك، والذي هو مظهر من مظاهر محبة الله ﷻ لك.

مولانا وحيد الدين خان (الهند):

في رحلتي الاستكشافية إلى تركيا، تعرفت على رجل النهضة، الأستاذ فتح الله كولن الذي أثّر في كثير من الناس، وتعرفت على عديد ممن استلهموا أفكاره وأنجزوا أعمالا عظيمة.. وأعتقد أن الأستاذ كولن لديه من الحكمة ما جعلته ينتبه إلى وجوب خدمة وهداية البشرية، وذلك من خلال معرفته لروح العصر الحديث. ومن أجل ذلك الهدف النبيل ربّى مجموعة من الناس، أظن أن كل فرد منهم اليوم كالأبطال يقومون بأعمال رائعة.

د. محمد باباعمي*

نموذج الرشد
النموذج الحضاريُّ البديل

١

"التشميس" (Insolation) مصطلح فزيائي له تطبيقات عديدة في حقول الطبِّ والزراعة والصناعة وغيرها، وهو يَعني تعريضَ مادَّة ما إلى كمِّية من أشعَّة الشمس (أو الأشعة المعدَّة مخبريًّا) محضَّرة بعناية، ومكثَّفة بدقَّة، وموجَّهة توجيهًا محسوبًا. وفي مجال الطباعة يُستخدم هذا المبدأ لحفر الحروف من الأفلام الشفافة على سطح صفائح الزنك.

وفي مجال الحضارة وحركية التاريخ، تتعرض "النماذج" (أي الأفكار والحركات والمشاريع...) للتشميس في ظروف خاصَّة قاهرة، أي في حين تعرُّضها "لأزمات"(١)، وحينها فقط تظهر المناطق الحسَّاسة، و"الأسئلة القلقة"، والإشكالات التي لم يوجد لها حلٌّ معقول، والحاجاتُ التي عجز النموذج عن إيجاد جواب "علميّ - عمليّ" لها.

ومن "السنن الكونية" أنه كلَّما كان النموذج كبيرًا كلَّما صار عُرضة للتشميس أكثر من غيره... فالاختبار يكبر مع النموذج ويصغر معه، ومن ثم كان الأنبياء عليهم السلام -وهم "النموذج الأكمل" في "الحراك الحضاري" البشري- عرضةً لأشدّ الاختبارات وعورةً، أي لأشد أنواع التشميس إحراقًا.(٢)

وفي العالم الإسلامي المعاصر، كان الاتصال الأوَّل مع الغرب ما بعد نهضته المادية، اتصالاً شاقًّا وذكرى قاسية، ذلك أنه عرف أثر "التكنولوجيا" الحربية قبل أن يتعرَّف على آثارها السلمية.

ففي مدينة "نزوى" بسلطنة عُمان مثلاً، يمكن أن نزور قريةً صغيرة محاطة بسور حجريّ، دمَّرها الإنجليز بالطائرات الحربية و"قنابل النابلم"، حتى يقضي على "الإمامة" هناك، منتصرًا لنوع من "الولاء السلطانيّ" له، ومِن ثم عرف الإنسان داخل هذه القرية صوت الطائرات وهي تحمل الموت، ولم ير يومًا طائرة تحمل السلام أو تحملُه بسلام، وكذلك الحال في سائر البلاد الإسلامية.

وحين سلِّط الشعاع الحارق للمدنيَّة المعاصرة على الإنسان المسلم، كان قد فقد منذ أمدٍ كلَّ أسباب التنظيم، وفقد معها المبرر للوجود، وصار المجتمع أشلاء متصارعة، أنهكتها الخلافات القبلية، وأكسبها الجهل والفاقة نوعًا من مرض "فقدان الدم"، فلم يجد لحركته ولا لزمنه ولا لذاته معنى ولا تميزًا ولا سبيلاً للدفاع عنها. وأحسن توصيف لهذه الصعقة خلال حملات نابليون إلى مصر، ما دوَّنه عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار".

ولقد أبدع مالك بن نبي حين شبَّه هذه الحال من التلاقي القدري بين الشرق المستعمَر والغرب المستعمِر، بقوله: "قام إنسان أوروبا دونما قصد، بدور الديناميت الذي نسف معسكر الصمت والتأمل والأحلام... وبذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين بهزة انتفض بعدها مستيقظًا"(٣).

هذا الاستيقاظ في عالم المسلمين تشكَّل في نموذجين اثنين هما: "النموذج الإصلاحي" الذي مثَّل عمق الذات المسلمة، و"نموذج التحديث" الذي شكَّل قشرةً سطحية يسكنُها ثلة من المثقَّفين تغطِّي جسد الأمَّة ولا تلج إلى روحها.

والذي يعنينا في "نموذج الرشد" هو "النموذج الإصلاحي" العميق، لا "النموذج الحداثي" الرقيق؛ ذلك أن الشيخين جمال الدين الأفغاني، وبعده الشيخ محمد عبده، قد أعادا للمسلم بوصلته، واتَّبعت الحركة الإصلاحية في كامل العالم الإسلامي، هذا الصوت الصادق المبحوح في آن واحدٍ. ثم تأسَّست في الجزائر -مثلاً- "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" برئاسة ابن باديس وثلة ممن معه من العلماء المجاهدين، وكذلك الحال في سائر البلاد العربية بالخصوص.

الحق أننا لو تتبعنا سيرة الأستاذ فتح الله، ولو قرأنا واقع "الخدمة" عبر العالم، لما جاز لنا إلا أن نقرر أن "البراديم كولن" حلقة بارزة ومتقدِّمة ضمن "البراديم الحضاري البديل"، أعني "نموذج الرشد".

حراء

غير أن الشعاع المسلَّط على هذا النموذج ما كان ليتناقص، بل إنه مع مرور الوقت بدأ يتكثَّف رُويدًا رُويدًا، ويلقي أسئلة جديدةً من نوع جديد... استطاع أمثال الإمام حسن البنا، وبديع الزمان النورسي، أن يجيبوا على بعضها بأصالة وفاعلية، وبقي بعضُها الآخر مرهونًا على أجوبة أصيلة لكنَّها لم ترق إلى الفاعلية المرجوة حسب السياق والمرحلة، ونوع ثالث من الأسئلة للأسف لم يجد الجواب الكافي أصالة ولا الشافي فعالية، من مثل: أزمة الحكم، والاقتصاد، والإعلام، والمرأة، والإستراتيجات... ولعلَّ بعضها لا يزال ينتظر في الطابور إلى حين.

ومن بين الملاحظات التي تسجَّل على هذا النموذج (أعني النموذج الإصلاحي) ما ذكره بعض النقاد من مثل: الذرِّية، والحروفية، وأزمة التعليم، والانفصام بين النظر والتطبيق، والتشرذم، وضعف آلة النقد والتصفية الذاتية، وغياب التخطيط العلمي المحكم.

في هذه الظروف، كان ثمة جنينٌ يتخلَّق بعيدًا عن الأنظار، داخل رحم الأمَّة المِعطاء، التي لا ينقطع الخير منها -حتى وإن قلَّ وضعُف- إلى يوم الدين.(٤) ولا ريب أن أعضاء وأجزاء هذا الجنين لم يكن بينها بالضرورة اتصالٌ وتواصل مباشر، غير أن صفات "المتَّحد العلمي الحضاري"، ومواصفات "الجماعة العلمية الفكرية"، بخاصة صفة "سؤال الأزمة المشترك"، كلُّ هذا كان الرابطَ الأساس بين هؤلاء الذين مثّلوا بذرةَ "نموذج حضاري بديل" بوعي من المؤرخين والدارسين، أو بغير وعي منهم.

والحقُّ أن "سؤال الأزمة المشترك" الذي هو شرط أساس للاتحاد في المنطلق، والتناغم في الحركة،

hiramagazine.com

وتوحيد الوجهة، كان سؤالاً عن "حركية الفكر والفعل"، وعن كيفية "تحويل المعرفة إلى سلوك" والذي سمي فيما بعد "سؤال نموذج الرشد" المحوري الرئيس.

يؤكد طه عبد الرحمن هذا المنحى في كتابه "العمل الديني وتجديد العقل" بتسجيله لهذه الملاحظة الدقيقة فيقول: "مِن شروط كمال العقل، أن لا ينفكَّ العلم عن العمل في الممارسة العقلية. فلا نكاد نجد عالمًا اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وقف عند هذه الرابطة بين العلم والعمل، معبِّرًا عنها بهذه الصيغة أو تلك"(٥).

حتى يتبين حقيقة ما ذُكر، سنعرض أبرز أعضاء "الجماعة العلمية المرجعية" التي أعتبرها "نموذج الرشد" هي الشعلة الأولى، والقطرة الأولى، والنسمة الأولى لهذا "النموذج الحضاري البديل"، وهي تتكون ابتداء من العلماء المفكرين: محمد إقبال، ومالك بن نبي، وعلي عزّت بيجوفيتش، وعبد الوهاب المسيري، ومحمد مهاتير، وفتح الله كولن... مع ضرورة التعجُّل بملاحظة أنَّ هؤلاء يشكِّلون "المثال والعيّنة الأساس" ولا يقتصر الحكم عليهم وحدهم فقط.

محمد إقبال: ومبدأ الحركة

لعل إرهاصات هذا السؤال ولِدت مِن رحم محمد إقبال، وهو يخطّ الصفحات الأولى من مؤلفه "تجديد الفكر الديني" حين قال في تقديمه للكتاب: "يؤكِّد القرآن على العمل أكثر من تأكيده على الفكر، ومع ذلك فسنجد أناسًا عاجزين بطبيعتهم عن أن يتمثلوا عالمًا غريبًا عنهم"(٦). ثم جاء الفصل الأوَّل من كتابه معبِّرًا عن هذا التوجُّه، وقد انتقى له هذا العنوان الدال: "المعرفة والتجربة الدينية".

غير أن الفصل المعنون بـ"مبدأ الحركة في بناء الإسلام" هو بؤبؤ مشروعه، وهو لبُّ مخطَّطه الحضاري، وقد قرَّر من خلاله أنَّ "الإسلام -كحركة ثقافية- يرفُض النظرة الاستاتيكية القديمة للكون، ويبني نظرة ديناميكية، يتَّسم فيها الكون بالحركة والتغير".

ثم يسأل على إثر جدلية الثابت والمتغير، التي كانت السبب في مصادمة أوروبا لروح الإنسان ولروح الثقافة باعتبارها التغيُّرَ هو السمة لكلِّ شيء، بينما تسبَّب هذا السؤال في جمود العالم الإسلامي وركوده، وهو الذي راح يثبت كلَّ ما من شأنه التغير، ويقدِّس كلَّ ما من شأنه التجربة والواقع، راح إقبال يسأل بحقٍّ: ما هو مبدأ الحركة في الإسلام؟ ثم يجيب باختصار ووضوح: إنه ما يعرف باسم "الاجتهاد".

ولقد نفخ محمد إقبال من خلال أشعاره، الروح في الملايين من القرَّاء والمثقفين في العالم الإسلامي، غير أنه لم يكن شعرًا أدبيًّا صرفًا معنيًّا بالمحسنات الأسلوبية بقدر ما كان شعرًا ثوريًّا حركيًّا حضاريًّا، يحمل همَّ سؤال التخلف للمسلمين، ويثير فيهم بعناية سؤال الأزمة، ثم يُنشد صداحًا:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ولا دنيا لمن لم يُحيِ دينا
ومَن رضي الحياة بغير دينٍ
فقد جَعل الفناء لها قرينا
وفي التوحيد للهمم اتحادٌ
ولن تبنوا العُلى متفرِّقينا

مالك بن نبي: عِلمٌ لم يولد بعدُ

مِن خلال معادلة الحضارة يصوغ مالك بن نبي معيارًا يجعل الوقت عنصرًا أساسًا وليس تابعًا؛ فالحضارة عنده تساوي "الإنسان والوقت والتراب"، ثم يشرِّح عنصر الوقت بمقاربات عديدة منها "التوجيهُ العملي"، و"الفعالية"، و"توجيه العمل".

ففي مستوى الفعالية يرسو ابن نبي على قمَّة "نموذج الرشد"، وبالتالي تتحوَّل "العلاقة بين الفكر والفعل" عنده إلى صبغة لازمة لكلِّ فكرة ومشروع في جميع كتاباته ومحاضراته. فهو يقول -مثلاً- عن عقيدةٍ إنها: "تجرَّدت من فاعليتها؛ لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية"، ثم ينتهي إلى النتيجة الآتية: "وعليه، فليست المشكلة أن نعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نردَّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوَّتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعيَّ. وفي كلمة واحدة: إنَّ مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على

hiramagazine.com

وجود الله، بقدر ما هي في أن نُشعره بوجوده ونملأ به نفسه باعتباره مصدرًا للطاقة"(٧).

ويعيد ابن نبي كلَّ حركية وفعل حضاري إلى مستواها الإيماني، أي إلى حقيقة العلاقة بالله، ومِن ثم فهو ينبّهنا إلى أنَّ هذه المهمَّة (أي مهمة تغيير النفس) وإقدارَها على أن تتجاوز وضعَها المألوف، هي من شأن "علمٍ لم يوضع له اسمٌ بعدُ"، ثم يقترح له اسمًا ويقول: "يمكن أن نسمِّيه علم تجديد الصلة بالله"(٨).

ويؤكد في سياق آخر "أنَّ العقل المجرَّد متوفِّرٌ في بلادنا، غير أنَّ العقل التطبيقي الذي يتكوَّن في جوهره من الإرادة والانتباه، هو شيء يكاد يكون معدومًا". ثم يقول ملاحِظًا: "إننا نرى في حياتنا اليومية جانبًا كبيرًا من اللافعالية في أعمالنا"، ذلك أننا نفتقد "الضابط الذي يربط بين عملٍ وهدفِه، بين سياسةٍ ووسائلِها، بين ثقافةٍ ومُثلِها، بين فكرةٍ وتحقيقِها"(٩).

وعن القرآن الكريم وعلاقتنا به ينبّه ابن نبي أنه "قد يقال: إنَّ المجتمع الإسلامي يعيش طبقًا لمبادئ القرآن، ومع ذلك فمن الصواب أن نقول: إنَّه يتكلَّم تبعًا لمبادئ القرآن".

ثم ينتهي إلى نتيجة مفادها أنَّ "الذي ينقصُ المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكِّر ليعمل، بل ليقول كلامًا مجرَّدًا. بل أكثر من ذلك، فهو أحيانًا يُبغض أولئك الذين يفكّرون تفكيرًا مؤثرًا، ويقولون كلامًا منطقيًّا، من شأنه أن يتحوَّل إلى عمل ونشاط"(١٠).

بمثل هذا الطرح الديناميكي الحضاري تبوأ مالك بن نبي موقع الصدارة في "المتحد العلمي" المؤسِّس "لنموذج الرشد"، حتى وإن كان في مستوى الثمار المباشرة على الواقع غير محظوظ، شأن علي عزت بيجوفيتش، وفتح الله كولن مثلاً.

والحقُّ أنَّ الظروف والمرحلة، و"النسيج الحضاري"، و"الوعاء الحضاري"(١١)، كلُّ ذلك وقف حائلاً أمامَه وأفقده التمثُّل الواقعي المباشر، غير أنَّ الملايين من القرَّاء من مختلف بلاد العالم، يتنفَّسون أفكاره ويفعّلون مناهجه بصورة أو بأخرى، لعل أبرزهم محمد مهاتير

اكتشفتُ ما أحسب أنه أعظم من اكتشاف "كريستوف كولومب" لأمركيا الجديدة. اكتشفتُ "البراديم كولن"، أي "الجوابَ على سؤال الانفصام بين الفكر والفعل في واقع الأمة اليومَ".

الذي ذكر أنه تأثر من فكر ابن نبي، وفعّله في مشروعه النهضوي.

علي عزت بيجوفيتش: المجتهد المجاهد

حياة علي عزت بيجوفيتش تتمحور حول سؤال الأزمة، وتجيب بفعالية على إمكانية الجمع بين العلم والعمل، فهو "ليس مجتهدًا وحسب، وإنما هو مجاهد أيضًا، فهو مفكّر ورئيس دولة، يحلّل الحضارة الغربية ويبيّن النموذج المعرفي المادي العدمي الكامن في علومها وفي نموذجها المهيمن، ثم يتصدَّى لها ويقاوم محاولتها إبادة شعبه"(١٢).

وفي المعالجة الفكرية يعتبر علي عزت الإسلامَ طريقًا ثالثًا جامعًا في تعاليمه "بين السماء والأرض"، و"الله تعالى خلق الإنسان ليكون سيِّدًا في الأرض أي خليفة"(١٣). ثم يؤكِّد على غرار محمد إقبال، أنَّ "الصلاة ليست مجرَّد تعبير عن موقف الإسلام من العالم، وإنما هي أيضًا انعكاس للطريقة التي يريد بها الإسلام تنظيم هذا العالم"(١٤).

ثم يعرِّف الإسلام -في ذات السياق المرجعي- أنه "دعوةٌ لحياة مادية وروحية معًا، حياةٍ تشمل العالمين الجواني والبرّاني جميعًا، أو كما يقرر القرآن الكريم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(القصص:٧٧)"(١٥).

أمَّا عن سبب تخلُّف المسلمين، فيعيده علي عزت إلى "الانفصام بين التعاليم والعمل"، بين "النص والآخرة من جهة، والواقع والحضارة من جهة ثانية" فيقول: "لقد انشطرت وحدة الإسلام على يد أناس قصروا الإسلام على جانبه الديني المجرد، فأهدروا وحدته وهي خاصيتُه التي يتفرَّد بها عن سائر الأديان. لقد اختزلوا الإسلام إلى دينٍ مجرَّد أو إلى صوفيَّة، فتدهورت أحوالُ

hiramagazine.com

المسلمين؛ ذلك لأن المسلمين عندما يضعف نشاطهم، وعندما يُهملون دورهم في هذا العالم، ويتوقَّفون عن التعامل معه، تصبح الدولة الإسلامية كأيِّ دولة أخرى، ويُصبح تأثير الجانب الديني في الإسلام كتأثير أيِّ دين آخر، وتصبح الدولة قوَّة عريانة لا تخدم إلا نفسها".

نعَم، يواصل علي عزت في قوله "حين يبدأ الدين (الخامل) يجرُّ المجتمع نحو السلبية والتخلُّف، يشكِّل الملوكُ والأمراء... وفرق الدراويش والصوفية... يشكِّلون جميعًا الوجهَ الخارجي للانشطار الداخلي..." إنَّ هذا النمط المنحرف المنشطر "يمكن أن نطلق عليه اسم نصرنة الإسلام"(١٦).

عبد الوهاب المسيري: النماذج وتقليص المسافة مع الواقع

يقف عبد الوهاب المسيري مفكِّرًا شامخًا فريدًا، وهو يحلِّل ظاهرة اليهودية والصهيونية، باعتماده "النماذج الإدراكية" أداةَ تحليلٍ وآلة كشفٍ عن الخفايا، وبالتالي فهو يضع الإصبع على محلِّ الداء، ويقول تحت عنوان "النموذج والأقوال والنوايا": "النموذج أداةٌ تحليلية يتمكَّن الدارس من خلالها من الاقتراب من جوهر الظاهرة، بحيث يمكنه أن يعرف ما هو جوهري فيها وما هو فرعي، وما هو نماذجي، وما هو عرَضي. ونحن نُطلق على ما هو عرضي اصطلاح "قول" أو "أقوال" بمعنى أنها مجرَّد كلمات زُخرفية لا تُعبِّر عن حقيقة النموذج".

ويصف البنيةَ الكامنة للصهيونية، والتي طالما فضحها القرآن الكريم فيقول: "حاولنا تَجاوُز الادعاءات والأقوال الصهيونية لنصل إلى البنية الكامنة التي تشكَّلت في الواقع. ونحن نميل إلى التفرقة بين النوايا والديباجات من جهة، والبنية من جهة أخرى".

ومصطلح "الديباجة" مفتاحيٌّ في فكر المسيري، وهو يعرفه لغة، ثم يؤسس عليه حكمه فيقول: "تفترض الكلمةُ (ديباجة) وجودَ مسافة بين الشكل والمضمون، وبين الظاهر والباطن، وبين الواقع والاعتذاريات، ولكنها لا تستبعد في الوقت نفسه إمكانية التوافق التامّ والامتزاج. ومن ثم، فهي كلمة يمكن أن نصفها بأنها مركَّبة".

ثم يلاحِظ على المصطلحات والمفاهيم أنها كثيرًا ما تكون مجرَّد "ديباجة فكرية لغوية" تُخفي وراءها مدلولات كامنة غير ظاهرة، ومثال ذلك "الثلاثي الديني: كاثوليك - بروتستانت - أرثوذكس، يقابله تقسيم ثلاثي عرْقي: لاتين - أنجلو ساكسون - سلاف. وهذا يدلُّ على أنَّ الدين إن هو إلا ديباجة وقشرة رقيقة تغطي المصالح الاقتصادية والرؤى العرْقية". ثم يؤكِّد هذا التطبيق بالقول: "سنتناول اليهودية الليبرالية واليهودية التجديدية باعتبارهما حركتين تدَّعيان أنهما "دينيتان" ولكنهما في واقع الأمر علمانيتان بشكل واضح. فالديباجة الدينية شاحبةٌ، وفكرةُ الإله تتأرجح بين مرحلة شحوب الإله وموتِه الكلي، بل اختفاءِ ظلاله الباقية في مرحلة ما بعد الحداثة. فكلاهما مرجعيته النهائية هي الدنيا أو التاريخ أو الطبيعة، ولذا فهما يحاولان تكييف العقيدة لتتفق مع الدنيا".

وفي مستوى الظاهرة الإنسانية يراجع المسيري "النموذج الماديَّ الواحديَّ الاختزاليَّ" مراجعةً مستميتة؛ ويظهر بالدليل التاريخي والمعرفي أنَّ "اختزال الظاهرة الإنسانية" في سببٍ واحد، أو في تفسيرٍ واحد، مانعٌ من العمل؛ وأنَّ "اعتبارها مركَّبة" ذات أبعادٍ مختلفة، وأسبابٍ متراكبة متراكمة، يمكِّن من "الفعالية والفعل الإيجابي".

ومثال على ذلك ظاهرة اليهودية حين تختزل إلى تفسير واحد، على أنها مثلاً "شرٌّ كله"؛ أو أنَّ "اليهود يتحكَّمون في العالم"... فتكون النتيجة أن لا عمل ولا حركية ولا إمكان لتغيير الواقع، وبالتالي يتم الرضوخ لهذا التفسير المختزل، ومن ثمَّ الإقرار به.

ويقاس إلى ذلك الخطاب التعبويُّ الاختزاليُّ (السياسي غالبًا)، بمقابل الخطاب التفسيري المركَّب (الفكري - الحضاري عمومًا)؛ وكذا المعرفةُ المختزلة والمعرفة المركَّبة. وكلُّ ما من شأنه أن يعيد الصلة وثيقة بين العلم والعمل، بين الفكر والفعل، بين الحقيقة والواقع.

محمد مهاتير: نحو حراك حضاري آسيوي

في "موسوعة" رئيس ماليزيا السابق "محمَّد مهاتير"

hiramagazine.com

وفي مؤلَّفاته الأخرى -بخاصَّة "صوت آسيا"- نقرأ الكثير حول أزمة المسلمين.[١٧] ولعل "الجدل" الذي يعني افتقادَ القدرةِ على الفعل المؤسَّس على القول، أو الكلامَ لأجل الكلام لا غير، هو الإشكال الأوَّل الذي عانى منه مهاتير، واستنكرَه في شعب "الملايو" بخاصة، وفي الشعوب الإسلامية الأخرى بعامة، وفي ذلك يقول: "في كلِّ مرَّة تناقَش فكرة، تُستخدم الطاقات والأفكار، لا من أجل تطبيقها وإنما لإخضاعها لنقاش ممتدٍّ ومناظرة طويلة"[١٨].

ثم يدعو مهاتير إلى كسر الانفصام "بين الواقع والنص" ويقول: "عندما يتصارع الواقع والمنطق والعقيدة نتيجة هذه الحيرة، سيكون اختيارًا ليس فقط غير حكيم، بل ربما كان ضارًّا بالفرد وبالمجتمع"[١٩] وبالتالي فإن الإسلام لا يعرف مثل هذا الصراع الموهوم، فهو "دين غيرُ عادي، وإنه منهجٌ متكامل للحياة.[٢٠]

ولقد كان واقعيًّا بحقٍّ حين عرض هذا المثال: "إذا كنَّا نُريد أن نحافظ على الإسلام وعلى الروحانية، فلابد أن يقوّي الواقع درجةَ الإيمان. عندما يعاني شخصٌ ما، ويكون مجبرًا على أن ينسى احترامَه لذاته، يصبحُ من الصعب عليه أن يصدِّق أنه يعيش حياةً سعيدة بالفعل، أو أنه أسعدَ حالاً من جاره الذي يعيش في رغد، بالرغم من عدم وجود إيمان ديني لديه. بالنسبة له يكون الواقع متناقضًا مع الإيمان، ولن يقبل عقلُه أيَّ زعم واضح بأنه حقيقي"[٢١].

وما من ريب أن الأمة وهي في مرحلة استعادة الرشد والعودة إلى مقامها الذي خُلقت له، هي في حاجة إلى الربط بين كلام الله تعالى ومبادئ الإسلام الحنيف من جهة، والواقع والفعل الحضاري من جهة ثانية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥). "العمل الجادُّ، والمثابرة، وبذلُ الجهد، وعدم الاستسلام... كلُّها وسائل لتحقيق النجاح في الحياة"[٢٢].

وكم يعجب المرء بمحمّد مهاتير وهو يقيّم التجربة الماليزية تقييمًا صحيحًا يمتاز "بالقابلية للصدق" في حوار مع صديق لي التقى به في كوالانبور، يقول فيه:

كلَّما فكَّرت في حال أمَّتي "العربية بالخصوص"، وجدتُ أنها عطشى إلى "الخدمة"، جوعى إلى "فكر فتح الله"، مؤمِّلة النجاة -بحول الله- في مرشد ودليلٍ خرِّيت، هو شخصكم الكريم. ولقد -واللهِ- حظيتم "بالخرِّيتية" التي تفتقدُها أوطاننا وبلادنا في كثيرٍ من روَّادها وقوادها اليومَ.

"إنها تجربة لم تنجح؛ لأن أبناء الملايو المسلمون -للأسف- لم يتخلَّوا عن أسباب التخلُّف: الجدل، والكسل، والانفصام بين الفكر والفعل... وغير ذلك".

فتح الله كولن: ورثة الأرض

والأستاذ فتح الله كولن بروحه التجديدية يلخِّص رسالة "الخدمة"، ومبرِّر وجودها، في سؤال الأزمة، الذي يعالج تلك "العلاقة بين الفكر والفعل"، ويكتب في مستهلِّ مقال بعنوان: "الحركية والفكر" ما يلي: "يمكن تلخيص خطِّ كفاحنا كورثة الأرض بكلمتيْ "الحركية"، و"الفكر". وإنَّ وجودنا بوجهه الحقيقي يمرُّ عبر الحركية والفكر، حركيةٍ وفكرٍ يغيِّران الذات والآخرين. ومن وجهة أخرى، يبدو كلُّ وجود وكأنه حاصل حركة ومجموعة أنظمة، وبقاؤه مرتبطٌ بالحركة وبتلك الأنظمة، وإنَّ أهمَّ شيء وأشده ضرورة في حياتنا هو الحركية"[٢٣].

وفي مقال آخر له بعنوان "إنسان الفكر والحركية"، يؤكِّد الأستاذ هذا المعنى في وصفه لرجل القلب، الذي يكون دومًا في "خطِّ الحياة الممتدِّ على مدى فصولها من الحسّ إلى الفكر، ثم إلى الحياة العمليَّة، يتنفَّس النظام دومًا، وينشغل بحس البناء والإنشاء أبدًا"[٢٤].

ويصف الأستاذ فتح الله رسولَ الله ﷺ بأنه "كان صرحًا للإيمان والحركية"، ثم يقول عنه، وهو القدوة في كلِّ شيء وبخاصَّة في هذا الربط المحكم بين العلم والعمل، بين الفكر والحركية، يقول عنه ﷺ: "ليس في البشرية مَن قَرَن بين الإيمان والحركية قِرانًا لازمًا متوازنًا، فريدًا من نوعه إلا حضرة النبي محمد عليه أكمل التحايا. فقد ارتبط وتعلَّق بالله بإيمان غامر، وآمن -بكلِّ كيانه- بأنه

رسولٌ لله، وسلَّم له سبحانه تسليمًا مطلقًا، وعَمِل -في كل وقت- بشعور عميق بالمسؤولية، ولم ينزغه نزغ من التردُّد والتلكُّؤ في اعتقاده أو دعوته أو استقامة سبيله أو توفيق الله له"[٢٥].

والحق أننا لو تتبعنا سيرة الأستاذ فتح الله، ولو قرأنا واقع "الخدمة" عبر العالم، لما جاز لنا إلا أن نقرر أن "البراديم كولن" حلقة بارزة ومتقدِّمة ضمن "البراديم الحضاري البديل"، أعني "نموذج الرشد". ولقد سعيت لهذه القراءة وتفرّغت لها لمدة تزيد على العامين، ثم انتهيتُ إلى هذا الإقرار الذي أودعته رسالةً بعثت بها إلى الأستاذ، ثم نشرت في مقدمة كتاب "ذي قربتي"، وفيها ذكرت أنه: "هنا، ومن هنا، وهكذا، وبهذا، ولهذا، وفي هذا، وعند هذا... اكتشفتُ ما أحسب أنه أعظم من اكتشاف "كريستوف كولومب" لأمركيا الجديدة، اكتشفتُ "البراديم كولن"، أي "الجوابَ على سؤال الانفصام بين الفكر والفعل في واقع الأمة اليومَ"؛ ولم يكن الجواب "نظريًّا تنظيريًّا"، وما ينبغي له أن يكون... كذلك لم يكن "عمليًّا صرفًا، وميدانيًّا خالصًا" ولا يليق به أن يكون... وإنما كان خيطًا من ذهب يصِل الفكر بالفعل، ويربط العلم بالعمل... فالتقى السالب (الإيماني-الخلقي) بالموجِب (الجهادي-الحركي)، فسطع على الكون ضوءُ الإيمان، وغمر الوجودَ ضياء القرآن..."[٢٦].

الفيلم والصورة: نسبية النموذج البديل

من خصائص "النموذج الحضاري" أنه ليس "أبديًّا"، فهو مرتبط عضويًا بالمرحلة وبـ"حركية التاريخ"، و"النموذج المعياري" الوحيد هو "الرسول ﷺ" فردًا و"عصر السعادة والصحبة" مجتمعًا. وإذا كان الرسول الكريم ﷺ مبرَّأً من العيوب والنقائص (أي إنسانًا كاملاً بالمعطى البشري) إلا أن معيارية الصحابة نسبيةٌ، فلا يمكن أن ينسب إليهم "الكمال المطلق" وإن كانوا أوفرَ حظًّا وأسمى مقامًا ممن سبقهم وممن لحقهم، فهم أصحاب "المعية النبوية": ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾(الفتح:٢٩). وعصر السعادة هو "أكمل نموذج" و"أمثل معيار حضاري بشري" بكلِّ الخصائص والمعالم.

ومن ثم، فلو جاز لنا أن نستعير من صناعة الطباعة صورةً إدراكية ثانية، فإنما نمثِّل "النموذج الجزئي" بالفيلم الذي يحمل خلفية لون معيَّن، وبتجميع الأفلام بعضها إلى بعض، أي بضم النماذج بعضها إلى بعض، تكتمل الصورة والمشهد الممثل للأمة في كلياتها، وأيُّ إلغاء أو إقصاء لأيِّ شريحة أو لونٍ، سيكون له بالضرورة أثر سلبي على وضوح ونصاعة ودقة الصورة.

إلا أن ثمة ألوانًا غالبة صابغة، وأخرى مهيمنٌ عليها تابعة حسب "فعالية النموذج" وقدرته على استيعاب "أسئلة الأزمة" الخاصة بتلك المرحلة، ولا اعتبار للكم والعدد والرقم والحجم، بل العبرة في النوع والصلاح و"الصدقية"، والأثر الإيجابي.

أمَّا التحدي اليومَ، فيكمن في تقبل الآخرِ جزءًا من المشهد حتى ولو كان سلبيًّا أحيانًا، وهذا لا يعني قبول السلبية مبدءًا، وإنما القبول بها وفق "السنن الكونية". ولعل هذا يفسر تطمين الله تعالى لرسوله الكريم وحملِه على قبول أنَّ الهداية لا -ولن- تعمَّ الناس جميعًا: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(يوسف:١٠٣). ولننتبه إلى الجملة الاعتراضية الاستباقية الدالة على علم الله تعالى بخفايا قلب نبيه الحبيب ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾، وعادة الأسلوب البشري أن يقال: "وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصتَ"، لكن في مستوى التقبل يكون الفرق بيِّنًا.

فهل آن الأوان "لنموذج الرشد" -باعتباره "نموذجًا حضاريًّا بديلاً"- أن يسجِّل بصمته في جميع مناحي الحياة، وأن يبلِّغ أثره إلى جميع الجيوب الجغرافية للمسلمين ابتداء، وللبشرية قاطبة؟!

هذا هو المأمول، وهذا ما تشير إليه صراحةً الآياتُ الكريمات: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾، ﴿كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾، ﴿مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾... وغيرها.

والظلُّ العملي الحضاري الواقعي لهذه الآيات، لا -ولن- يتحقَّق إلا بتحويل هذا المعنى إلى حركية دائمة وإلى برامج شاملةٍ. ولن يتأتَّى هذا -بالضرورة- إلا بين يدي "متَّحَد معرفي حضاري" عامل حسب السياقات، لإحلال الإسلام معطىً كونيًّا مفتوحًا، لا مجرَّد شعائر مجتمعية مغلقة.

hiramagazine.com

رسالة "ذي قربتي" إلى الأستاذ فتح الله كولن

الصلاة والسلام على "شجرة الوجود، والعلَّةِ الغائية لكتاب الكائنات، وأقوى صوت للدعوة إلى الحقّ سبحانه".

التحيةُ والإكرام لسيدي وحبيبي ونور قلبي "صرحِ الإيمان والحركية"؛ محمدِ بن عبد الله ﷺ في ذكرى مولده... صلَّت عليه الخلائق شوقًا، وتشوَّفت إلى جماله القلوب عِشقًا.

وبعدُ، فلقد حملتُ منذ أمدٍ سؤالاً صغيرًا كبيرًا، أحسب أنَّ المسلمين في كلِّ العصور حين يسقطون في امتحان التمكين والاستخلاف، إنما يُخفقون في الإجابة على هذا السؤال الخطير الجدير، وهو: كيف نحوِّل الفكر إلى فعل، وكيف نصل العلمَ بالعمل؟!

ولقد سافرتُ به، وسافرت معه، فقطعت مسافات زمنية مديدة، وعبرت مساحات مكانية عديدة... بحثًا، وحفرًا، وتنقيبًا... وكلّي يقينٌ أنَّ حقيقة القرآن وحقيقة الإيمان، ثم على إثرهما الحقيقةُ الأحمدية والحقيقة الراشدية... إنما تدعو إلى "القِران بين الإيمان والحركية قِرانًا لازمًا متوازنًا، فريدًا من نوعه"، وذلك ما لم يحقّقه على إطلاقه "إلا حضرةُ النبي محمد عليه أكمل التحايا"

(ونحن نبني حضارتنا).

ولقد قلت في نفسي ولنفسي يومها: "لو ألفيتُ مفكّرًا، أو مجدِّدًا، أو مشروعًا، أو حركة... استطاع أن يصل ما أمر الله به أن يوصل، فلم يقطِّع أرحام الإيمان والفكر والحركية، ولم يبدِّد -في تصوراته وتصرفاته- جمالَ "شمولية" النور السرمدي وجلاله... ولم يظلم كماله البديعَ، واكتمالَه"... قلتُ: "لو اهتديتُ إلى ذلكم المرتقى الراقي، وإلى ذلكم الركن الركين، فسأعقِد النية -بحول الله- أن أتّخذه إمامًا، وأسوةً، وقدوةً... ولا أبالي".

ولقد كتبتُ يومها عهدًا بيني وبين خالقي ومُرشدي ومدبِّر أمري سبحانه... فعقدتُ العزم، وشمرت عن ساعد الجدِّ حسبَ طاقتي وعجزي وقلَّة حيلتي... ثم انطلقت...

إلى أن فتح الله تعالى عليَّ بـ"فتح الله"، فانكببتُ على

وحسبي أن أقول، وقد جاءكم أهلُ "الخدمة" بدلائهم، بل وأنهُرهم ووديانهم وبحورهم، وجئتكم أنا بقربةٍ، لعلَّها جفَّت منذ أمد... جئتكم باحثًا عن الحقيقة، عاشقًا مصادرَها ومواردَها.

ما تُرجم من مقالاته وكتبه ألتهمها التهامًا، وأهتبِل الفرصةَ في العبِّ من معينها اهتبالاً، ويشاء المولى الكريم -بعد ذلك- أن أزورَ بعضًا من آثار ذلكم الميراث الزكي، وألتقي بشباب "الخدمة" الذكي، وهم شموس في سماء الأفق الرحيب، وهم ثمرةٌ لشجرة الملَّة المحمَّدية المعطاء: دماثةَ خلقٍ، وسعة أفقٍ، وصفاء طويةٍ، وحضور بديهة، وعلو همَّة.

هنا، ومن هنا، وهكذا، وبهذا، ولهذا، وفي هذا، وعند هذا... اكتشفتُ ما أحسب أنه أعظم من اكتشاف "كريستوف كولومب" لأمركيا الجديدة. اكتشفتُ "البراديم كولن"، أي "الجوابَ على سؤال الانفصام بين الفكر والفعل في واقع الأمة اليومَ". ولم يكن الجواب "نظريًّا تنظيريًّا" وما ينبغي له أن يكون... كذلك لم يكن "عمليًّا صرفًا وميدانيًّا خالصًا" ولا يليق به أن يكون... وإنما كان خيطًا من ذهب يصِل الفكر بالفعل ويربط العلم بالعمل... فالتقى السالب الإيماني -الخلقي بالموجِب الجهادي-الحركي، فسطع على الكون ضوءُ الإيمان، وغمر الوجودَ ضياء القرآن.

أستاذي، معذرةً، لقد جاوزت حدِّي، فأطلت في شرح همِّي، وأضعت من "شريحتكم الذهبية" وقتًا غاليًا عزيزًا، في مثله تزيدون البشرية رواءًا وسقيًا؛ لكن حسبي أن أقطع رسالتي بأن أقول لكم: "أحبكم في الله، ولله، ومن الله، وعلى الله، وبالله"... ثم إني أعتقد فيكم "الإمامَة"، لي ولكلِّ باحث عن الحقِّ في أمة المصطفى ﷺ، وملَّة المجتبى... دع عنك الفروقَ الوهمية التي لا نملك اختيارًا فيها من جغرافيةٍ، وعرقيةٍ، واعتباريةٍ، بل وحتى مذهبية... حين يتحوَّل المذهب -خطأً وانحرافًا وسقمًا في الفهوم- إلى جزيرةٍ نائية وسجنٍ مميت.

معلّمي، لم أجلس يومًا إليكم، وإنما جلست طويلاً إلى فكركم وتلامذتكم، وتأمَّلت عميقًا -ولا أزال-

آثارَكم وإنجازاتكم... ومن سوء حظِّي وإن كنتُ أرضى بالقدر، أن لا أنال هذه الحظوة؛ ولذا تجدني أغبط مَن كان سببًا وواسطة بيني وبينكم، وأعلِّل النفس أني تابعيٌّ لأصحابٍ، أعني بهم أساتذة أفذاذًا، وهبوا نفوسهم للحق، ثم رابطوا مؤمنين موقنين على حصون نفع الخلق.

إمامي ومعلِّمي، كلَّما فكَّرت في حال أمَّتي "العربية بالخصوص"، وجدتُ أنها عطشى إلى "الخدمة"، جوعى إلى "فكر فتح الله"، مؤمِّلة النجاة -بحول الله- في مرشد ودليلٍ خرِّيت، هو شخصكم الكريم. ولقد -والله- حُظيتم "بالخرِّيتية" التي تفتقدُها أوطاننا وبلادنا في كثيرٍ من روَّادها وقوادها اليومَ.

هي صفة وسمة فيكم تمثَّلت؛ ولذا فكلُّنا أملٌ ورجاء وطلبٌ وإلحاح... أن توجِّهوا جيشًا من الطلبة والباحثين لترجمة جميعِ مؤلَّفاتكم وأعمالكم، القلمية والصوتية، إلى اللغة العربية، لغةِ القرآن ولسان سيد الأنام... إذ كلُّ حرفٍ وكلمة، وكلُّ جملة ومقالة، وكلُّ فكر وفكرة... هو غيثٌ هامر، ونهرٌ هادر، يسقي أراضينا القحلة المحلة، ويشفي قلوبنا المَشوفة المَشوقة.

مرَّة أخرى، أستحيي، وأنا العييُّ، في مخاطبتكم، وحسبي أن أقول، وقد جاءكم أهلُ "الخدمة" بدلائهم، بل وأنهُرهم ووديانهم وبحورهم، وجئتكم أنا بقربةٍ، لعلَّها جفَّت منذ أمد... جئتكم باحثًا عن الحقيقةِ، عاشقًا مصادرَها ومواردَها... لأنشِد مع المنشد، مخاطبًا أحبّتي في الأكاديميا، وقد قبلوني بأمرٍ منكم وفضل، تلميذًا في صفِّهم، وطالبًا مبتدئًا في صرحهم... أهمس في أذن كلِّ واحد منهم صادحًا مغرِّدًا:

ذي قربتي يا أخي في الحبِّ أرسِلْها

إلى الحبيب، فهل يُرضيه متَّسمي؟

أرجو أن تصلك تحيتي، يا حبيب... وآمل أن يصلك معها سلامي، يا طبيب... مِن ابنك، ومحبّك، والحامدِ اللهَ أن هداه إلى اكتشاف رحابك وسفوح ربيعك، والمردِّد مع أرباب المعنى مقولتهم البديعة: "أجل! "السلطنة تليق بالسلاطين، والتسوُّل يليق بالمتسوِّلين". ■

---

[*] مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) قد تكون هذه الأزمات فتنًا، أو نكسات، أو اختبارات... أو أحيانًا تكون حتى انتصارات تستدعي أجوبة ملائمة للمرحلة، مثل استقلال بلد ما، أو الرفاه الاقتصادي.

(٢) القرآن الكريم يولي عناية خاصة للامتحانات التي يتعرض لها الأنبياء عليهم السلام، وكأنه يقول لنا: "إذا اخترتم سبيلهم، فترقبوا معاناة من نوع معاناتهم"؛ وهنا نستذكر جميع الأنبياء الكرام، منهم: أبونا آدم عليه السلام ومحنة الخروج من الجنة، وإبراهيم عليه السلام وإلقاؤه في النار، وموسى عليه السلام وظلم فرعون، وعيسى عليه السلام ومحاولة القتل والصلب... إلى سيدنا محمد ﷺ، الذي تعرَّض لأكبر الامتحانات: التهجير، التكذيب، المقاتلة، الحصار، التهم والافتراءات... إلخ. يقول تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(فاطر:٤)، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾(الذاريات:٥٢).

(٣) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ص:٤٨.

(٤) ورد في الأثر، واعتبره البعض حديثا ضعيفا: "الخير فيّ وفي أمّتي إلى يوم القيامة".

(٥) العمل الديني وتجديد العقل، طه عبد الرحمن.

(٦) تجديد الفكر الديني، محمد إقبال، ص:٩.

(٧) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ٥٤/١.

(٨) وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ٥٤/١.

(٩) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص:٩٥.

(١٠) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص:٩٥.

(١١) "النسيج الحضاري"، و"الوعاء الحضاري" مفهومان من قاموس نموذج الرشد؛ وقد كتب عنهما مقالات، وأعدت محاضرات، منها: "مدخل إلى نظرية الوعاء الحضاري، القطب أطفيش أنموذجا".

(١٢) مقدمة "الإسلام بين الشرق والغرب"، عبد الوهاب المسيري، ص:٩.

(١٣) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص:٢٧٢-٢٧٣.

(١٤) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص:٢٧٨.

(١٥) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص:٣٠١.

(١٦) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص:٢٧٤.

(١٧) ينظر: المؤلَّف الذي أعددتُه، على إثر دراسة الظاهرة الماليزية فكرا، ومعاينتها واقعا، بعنوان: "القاموس الحضاريّ للمجدِّد محمد مهاتير".

(١٨) التحدي، مهاتير محمد، ص:٩.

(١٩) التحدي، مهاتير محمد، ص:١٢٦.

(٢٠) الإسلام والأمة الإسلامية، مهاتير محمد، ص:٦٢.

(٢١) التحدي، مهاتير محمد، ص:٨٨.

(٢٢) التحدي، مهاتير محمد، ص:٩١.

(٢٣) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٥٧.

(٢٤) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص:٦٣.

(٢٥) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، ص:١٥٤.

(٢٦) ذي قربتي، محمد باباعمي، ص:١٦.

hiramagazine.com

د. سمير بودينار*

"هُوجَا أفندي" السيد الأستاذ
أو حين تصوغ التربية نموذجًا مجتمعيًّا

ليست هذه الكلمات قصة معتادة ينسجها كاتب مع مكتوب تبدأ ثم تنتهي بانتهاء الكتابة، لتندرج بعد ذلك في رصيد الغيب وذمة القارئ.. ذلك أن ليس من اليسير أبدًا على مَن عرف "نموذج" الأستاذ فتح الله كولن سواء قرأه فكرًا أو تتبّعه مسيرًا أن يكتب حوله نصًّا عابرًا؛ ولو كان ذلك محاولة إضاءة جانب واحد من جوانب هذه الشخصية المركبة.

لكن لنبدأ قبل المحاولة بالسؤال: هل يمكن في الأساس الإحاطة بالمشروع الذي يمثّله الرجل ولو في إحدى تجلياته؟ الحق أنه صعب غاية الصعوبة اختصار مشروع الأستاذ فتح الله كولن في مثل هذه السانحة، ليس لأنه تجلى -ولا يزال- من خلال تجربة مديدة وغنية فحسب، بل لأنه مشروع مركّب متعدد الأبعاد كذلك. لذلك يحسن الوقوف الموجز عند جانب واحد منه، وليكن المسار التربوي، في سياق السعي إلى بناء نموذج إنساني مجتمعي خاص.

يكتسي الحديث عن ثلاثية: "الشخصية/الفكر/

> أبناء الخدمة الذين يشكلون جميعًا "جزُر سلام" حقيقية في عالم مضطرب، كلهم عنوان صلاحية النموذج، ومعيار دقيق في الحكم، لا على الأداء التربوي والتعليمي وفعاليته فحسب، بل على قوة النموذج الكامن في المنظومة المؤسسية، الذي أنتج هذه المدارس وصنع هذه التجربة الإنسانية الحية في عالمنا.

النموذج" (التي تتّحد في الدلالة هنا) بالنسبة للأستاذ فتح الله كولن أهمية استثنائية في هذه اللحظة الشاهدة من عمر مشروعه التربوي، ذلك أن نقاشًا واسعًا دار ولا يزال في منهج دراسة مدارس الإصلاح في عالم المسلمين إجمالًا، ومنها مدرسة/نموذج الأستاذ كولن. ولكي لا نستعيد نقاشًا واسعًا ليس هذا مجاله، نحاول أن نتعرض لما يسمّى بـ"عنصر الامتياز في المشروع"، أو "دراسة النموذج" بناء على نقطة جوهرية كامنة فيه، قادرة أكثر من غيرها على الإمداد بالمعنى المراد.

لنبدأ بسيرة مختصرة لنموذج التربية عند هذا العالم، الذي مثّل امتدادًا للميراث العلمي والتربوي العميق في بلاده تركيا، وهو الميراث الذي لم ينفصل لا في صلاته بعالم المسلمين ولا في أبعاده ومضامينه.

ولعل بعض المحطات في حياته تكون أولى من غيرها للاستدعاء في هذا السياق، إذ تجسد معالم في شخصية الأستاذ ومفاتيح في استيعاب نموذجه كما ترجمته -جزئيًّا حتى الآن- مسيرته في العمل التربوي والمجتمعي على امتداد خمس وأربعين سنة. هذه المحطات هي اختيار بيئة عمل الواعظ الشاب، ومنهج العمل ومداه، والمثال الإنساني الكامن في النموذج المنشود، القادر على كسب معارك القيمة والمعنى والمثال في عالمنا.

لقبُ الأستاذ فتح الله كولن عند مَن عرفه مِن قومه هو "هُوجَا أَفَندي" أي السيد الأستاذ.. ولا أرى أن اللقب ولا الصفة جاءت اعتباطًا، بل هما تعبير موجز بليغ عن استحقاق المكانة من خلال السيرة والمسيرة.

"الواعظ" الفنان في نحت الصخر

يعتبر الأستاذ فتح الله كولن بألاّ حدود أمام القيمة والفكرة، على تعدد البيئات في عالم واحد، حتى تلك التي تبدو بالمعايير الظاهرية "صعبة" و"إشكالية" يراها أولى بالخطاب وأجدر بأن يتّجه إليها المربون بخطابهم ويبلغوا رسالتهم، بل أن يقصدوا إليها فعلاً لتكون مجال عملهم الطبيعي مهما بدت "غير متقبلة"، أو أن أصحاب الدعوة لا زالو أصغر من مواجهة تعقيداتها وأقل خبرة، وهذه قيم تستبطن إيمانًا قويًّا بقوة الأسوة (لسان الحال)، كما تجلّت من خلال حضورها العملي على امتداد مسيرة تربوية بالغة الغنى، وهنالك مثال حي بليغ يجسّد من خلاله الأستاذ هذه المعاني بسلوكه.

كان عمره ٢٠ سنة حين أنهى الخدمة العسكرية الإلزامية، وكان الأستاذ "يَشَارْ تُونَاغُور" الواعظ الشهير في مدينة إزمير قد عُيّن حديثًا في منصب آخر وكيلاً للشؤون الدينية بالعاصمة، فتأسف أهل المدينة الذين كسب الرجل محبّتهم وإعجابهم بمواعظه في مساجدها، فما كان منه إلا أن أجابهم بأنه سيُعيّن مكانه في كرسي الوعظ مَن لن يخيّب معه ظنّهم قاصدًا الأستاذ فتح الله كولن الذي كان يعرفه ويقدّره. المفاجأة كانت أنه حين فاتح الأستاذ في الأمر طلب منه أن يعيّنه في مكان لم يخطر للأستاذ يَشارْ على بال.. مدينة "سمَنْدَاغ" المشهورة بصعوبة الحالة الدينية فيها، وتعقد الوضع الفئوي والطائفي بها. ورغم إلحاح الأستاذ كولن على طلبه، إلا أنه اضطر في النهاية للنزول عند أمر الأستاذ يَشَار تُونَاغُور الذي كان يقدّره بالذهاب واعظًا في إزمير.. بداية بليغة في الإصرار والتحدي بمقدار الإيمان بخيرية الناس.

أما تجربة "الواعظ" فكانت تشجيعًا دؤوبًا على احتضان النشأ وتربيته. هكذا بدأ فتح المبِيتات (اليُورْت) في نهاية الستّينيات، حيث فتح أول مَبِيت سنة ١٩٦٧، بينما فتح أول سكن للطلاب سنة ١٩٧٠، وما إن عرفتْ هذه الإقامات بنموذجها التربوي اللافت حتى أخذ المجتمع التركي المبادرة في إنشائها، فانتشرت انتشارًا كبيرًا مع نهاية السبعينيات في مختلف مدن تركيا.

بعد انقلاب سنة ١٩٨٠ في تركيا، فتح المجال لأوّل مرة أمام التعليم الخاص في البلاد، من خلال شعار شهير للحكومة في تلك المرحلة هو "افْتحْ مدرستك". اعْتبر الأستاذ هذا الانفتاح فرصة كبيرة، فدفع المحبّين إلى تأسيس مدارس خاصة، وكذلك تم في هذه المرحلة فتح سكن ومدارس للبنات، حيث لم يوجد لهن سكن ولا تعليم خاص قبل تلك الفترة، بل إن تعليم الفتيات لم يكن شائعًا في كثير من البيئات الاجتماعية، التي فضلت

hiramagazine.com

"أمية البنت على فساد أخلاقها" بتأثير من جو التعليم ومناهجه. وفي بداية الثمانينيات جاءت مدارس التقوية (المدارس التحضيرية للجامعة التي ذاع صيتها لاحقًا).

في تلك المرحلة ظلّ الأستاذ فتح الله كولن مطارَدًا بسبب وضع اسمه على لائحة المطلوبين، بعد الانقلاب لمدة ست سنوات، إلى أن اعتقل سنة ١٩٨٦، فثبت أنه لم يكن مطلوبًا للعدالة ولا لأي جهة أمنية، وأن وضع اسمه في لائحة المطلوبين بعد الانقلاب، كان لأسباب سياسية طارئة، فأخلي سبيله. وكان خلال هذه الفترة يتنقل -رغم ظروفه- لبناء المدارس، ويسهر على نجاحها وتأهيل الأساتذة فيها تربويًّا، والحرص على تميزهم في بناء نموذج لمدرسة متميزة وناجحة.

بعد ذلك وخلال السنوات الأربع اللاحقة ١٩٨٦-١٩٨٩ بدأ يدعو بشكل واسع إلى محاربة الأعداء الثلاثة الألداء :الجهل والفقر والفرقة (الخلاف) بشكل عملي، وطبّق نموذج المدارس على نطاق واسع.

خارج تركيا بدأ فتح المدارس في دول أخرى منذ بداية التسعينيات، حيث تأسّست أول المدارس خارج البلاد سنة ١٩٩١، وذلك في آسيا الوسطى إثر انهيار الاتحاد السوفياتي. ففي صيف عام ١٩٩٠ وجّه الأستاذ فتح الله كولن دعوة إلى الشعب التركي من على كرسي الوعظ في المساجد السلطانية إلى "نجدة إخوانه في الدم والدين الذين خرجوا من الاستعمار، قبل أن يدخلوا تحت سيطرة استعمار ثان"، وبأثر من تلك الدعوة استضاف الشعب التركي في تلك السنة ما يناهز الثلاثين ألف عائلة من آسيا الوسطى، وهو ما أعطى المدارس فيما بعدُ قاعدة شعبية من كل الناس بعد موجة التعاطف والانخراط الشعبي في المبادرة. ألاّ تستصعب بيئة للعمل، مقتضاه إتقان فن النحت في صخر الواقع على صفحات الأنفس والعقول.

"المربي" سالك الطريق الأطول والأصعب

في نهاية الستينيات، كان الأستاذ الذي بدأ يلتف حوله مجموعة من المتأثرين بخطابه وسلوكه، ينظم مخيمًا تربويًّا لبضعة عشر من "الأصدقاء"، كما لا زال يدعو

إن "نمـوذج فتح الله كولـن" في المجال التربوي، نموذج يعيد الاعتبار بدأب وإصرار لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة، مركّزًا على بناء الإنسـان هدفًا مركزيًّـا، ليكون مؤهـلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسـالته في الكـون كما قررهـا الوحي، بمقاصدهـا الكبرى في بناء العمـران، فتصير تلك المقاصد الكلية محددًا لأهداف حركته في الواقع.

حراء

من تأثر بفكره وانسلك في مشروعه؛ عندها جاءه واحد ممن أصبحوا بعد ذلك شخصيات عامة مشهورة في تركيا، طالبًا إليه أن ينضم إلى مجموعته في مشروعهم السياسي الإسلامي الواعد، محدثًا عن تأسيسهم حزبًا جديدًا، وعن الانتخابات القريبة التي ستحملهم إلى الحكم... مؤكدًا أن ذلك كله أولى من حصر جهد رجل محبوب ومؤثر مثله في بضعة عشر طفلاً، وأهم من هدر طاقة كبيرة في نفع قليل. كان جواب الرجل واضحًا وصارمًا، اعتذر بأدب لكنه أكّد أن ذلك ليس طريقه، وأنه يفضّل عملاً صبورًا وطويلاً مع هؤلاء ومَن يأتي بعدهم على أيّ طريق آخر.

واحدة من أزمات "النموذج الإسلامي" في عصرنا، خاصة من جهة معيار تقويمه والحكم على فعاليته في تحقيق أهدافه، نزوعه المتسارع إلى المعايير المادية السائدة، بحيث تسود هذه المعايير بشكل متدرج في الحكم على مدى نجاحه؛ هذه الخاصية وإن كانت تتلبس بالعواطف الجماهيرية، إلا أنها تؤدي إلى تآكل حضور النموذج المعرفي القائم على أساس الوحي ومقاصده في الأنفس والآفاق، أو الإنسان والعالم. تمامًا كما تعبر عن تسلط النموذج المادي على الوعي، حتى لدى فئات من المتدينين، بل ممن تحركهم الآمال والعواطف الدينية لتغيير واقعهم.

وبقدر ما تتجلى خطورة هذا المسار على اتجاهات الإصلاح في عالم المسلمين، تتجلى أهمية "نموذج كولن" في المجال التربوي، ذلك أنه نموذج يعيد الاعتبار بدأب وإصرار لقيم الوحي في حياة الإنسان

hiramagazine.com

والجماعة، مركّزًا على بناء الإنسان هدفًا مركزيًّا، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون كما قررها الوحي، بمقاصدها الكبرى في بناء العمران، فتصير تلك المقاصد الكلية محددًا لأهداف حركته في الواقع. لذا نجد أن أهدافًا كبرى بسعة العلم مقابلاً للجهل، والكفاية مقابلاً للفقر، والحوار والتفاهم مقابلاً للفرقة والصراع، ظلت أهدافًا قارة لهذا النموذج؛ بل هي المؤهلة وحدها –كما أكد حديثًا- لتوجيه مساره في المستقبل المنظور كما يبدو، لأن المقاصد الكلية الحاكمة لها، والكامنة في النموذج واضحة ثابتة.

علاقة بذلك كله؛ تبدو الدراسات الكثيرة والمتتالية التي أنجزت حول "المشروع/التجربة" التربوي التعليمي لنموذج كولن، كما تجلت في المدارس التي تأسست بناء عليه عبر العالم، مهتمة بشكل واضح بالنجاحات التعليمية لهذه المدارس، إنْ على مستوى الانتشار في أغلب دول العالم، أو في تصدرها تصنيفات الجودة في مجالاتها، وذلك في أغلب تلك الدول يستوي في هذا الغني منها والفقير.

إن هذا المقترب في دراسة النموذج التربوي على أهميته التي لا تخفى، لا يفسر لوحده قوة النموذج، ولا هو جدير ببيان أبعاده الكاملة. القيمة الأهم التي ينفرد بها هذا النموذج هو مثاله الإنساني. صحيح أنه يشترك مع كثير غيره من نماذج الإصلاح في إنزال النبوة في مقام الاستمداد، واعتبار شخصيته ﷺ المثال الأكمل للاقتداء، غير أن هذه المقولات وتلك الدعاوى كثيرًا ما تسقط على محك الواقع ومكابداته إخفاقًا في مستوى التمثل العام. هذا مكمن الصعوبة في الطريق وتفسير سالكيه لطوله.

ألا ما أصعب التحدي بـ"المثال الإنساني"

المقصود بالمثال الإنساني هنا، هو نوعية العنصر الذي يحرك هذه المنظومة، فتعيد إنتاجه على امتداد الأمكنة والبيئات والظروف؛ المعلّمون المهاجرون والمضحّون بمصائرهم الشخصية والأسرية والمهنية، الأساتذة المتفانون في رسالتهم حد التماهي، الرجال والنساء الباذلون من أموالهم في تسابق عجيب تشهد عليه "مجالس الهمّة" لبناء هذه المدارس والجامعات والمؤسسات ورعايتها في تركيا وعبر العالم، خرّيجوها من الطلاب الذين يعيدون إنتاج هذه الدائرة الصالحة من الخدمة والبذل... هؤلاء الذين يشكلون جميعًا "جزُر سلام" حقيقية في عالم مضطرب، كلهم عنوان صلاحية النموذج، ومعيار دقيق في الحكم، لا على الأداء التربوي والتعليمي وفعاليته فحسب، بل على قوة النموذج الكامن في المنظومة المؤسسية، الذي أنتج هذه المدارس وصنع هذه التجربة الإنسانية الحية في عالمنا.

يمكن حقًّا لنموذج فكري أو تربوي أن يقدم نفسه للعالم اليوم، معتمدًا على مؤشر قوي من مؤشرات الجودة، ويمكن لهذا النموذج أن يعرف الانتشار والقبول سعيًا للإفادة الجزئية من هذا المؤشر. وليس صعبًا أن نجد أمثلة عديدة على ذلك في زمن الإنتاج والاقتصاد والمعرفة المعولمة. لكن الصعب حقًّا هو أن يكون التحدي بالمثال الإنساني... أن تكون علامتك المسجّلة موضع الثقة والفعالية، إنسانًا مؤهلاً تتحدى به ظروفًا معقدة في بيئات صعبة عبر العالم، واثقًا من نجاعة مسلكه القيمي والتربوي، وكفاءته في التعامل معها في كل مكان. أما الاستثناءات البشرية هنا فمؤكدات للقاعدة العامة.

ولعل وضوح الرؤية بالدقة المتناهية في هذا النموذج، يتبين في أنك لا تجد فروقًا بين تجاربه المختلفة عبر العالم، لا في مستوى الأداء، ولا فيما يمكن أن يعتريه من الاتجاهات المذهبية أو الفئوية، ولا في ثوابت فهمه لقيم الإسلام اليوم، والتعامل معها من منظور إنساني رحب. وبهذا يمكن أن تجد من ينتقده بوصفه محافظًا في بيئة وأنه متحرر في بيئة أخرى، أو أنه نصي في بلاد أو روحاني في بلاد أخرى، صارم في منطقة متساهل في منطقة أخرى... والواقع أنه نموذج ثابت رغم مرونة تغيره في الأشكال والوسائل بما يناسب تعدد البيئات والمناطق، مع حفاظه على جوهر ثابت كامن في نواة العمل التربوي الصلبة... إنه الـ"نموذج كولن".

وإذا كان لنا أن نعد التغيير الأكبر لنموذج كولن

hiramagazine.com

فهو أنه صيَّر تربية الإنسان وتعليمه غاية مجتمعية، تتجه إليها طاقات المجتمع كلها، لا بوصفها أولوية مجتمعية فحسب، بل فريضة شرعية ورسالة حضارية. ثم إن اتخاذ التربية والتعليم مركب القيمة والرسالة والمثال إلى العالم، هو الذي أدى إلى تقويض سلطة الجغرافيا على الفكرة، وهي -كما لا يخفى- واحدة من أهم التحديات التي واجهت رسالة الوحي في تاريخنا، بل ولا زالت تواجهها إلى اليوم. نحن بإزاء دفقة حضارية تنفتح أمامها عوالم "دار الخدمة"، عنوانها "أنك لكي تثبت وجودك في مكانٍ ما، يجب أن تكون في كل مكان".

ربما استحق الأستاذ فتح الله كولن أن يكون "هُوجَا أَفَنْدي" عند الأتراك الذين خبروه أولاً، فهذا الرجل الذي لم تتقو صلته بمتعلقات الحياة الدنيا يومًا، والعالم الذي شكل امتدادًا لميراث المعرفة الإسلامية، والواعظ الذي تفنن في نحت الصخر صانعًا منه آيات من الجمال الإنساني... لا يشغل نفسه بما يقال عن نموذجه، ولا يحتفي أبدًا بنجاحه. لكنه يقدم مثالاً تربويًّا صعبًا غاية الصعوبة تقديمه في عالمنا، قائمًا على الإيمان بالله، ثم الثّقة في أجيالنا وتوحيد مقاصد الفعل كلها لإعداد الإنسان، خدمة للإنسانية وعمرانًا للعالم.

ختامًا

"قال الأعرابي لأهل البصرة: مَن سيدكم؟ قالوا: الحسن (البصري) قال: بِمَ سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم. فقال: ما أحسن هذا".

أما الأمل من الكلمات السابقة، فهو أن تكون ثمرتها هدية لكثير من ذوي النهى، المعانين واقعًا أليمًا؛ ثمرة قوامها نموذج حضاري حي وفاعل، يستمد الحياة من مصدر معنوي عميق الغور، ومن مكابدة واقع مركب ومتعدد المستويات رحب الآفاق. ■

(*) رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

شهادات

أ.د. وهبة الزحيلي (سوريا):

وجدتُ في تركيا مَثلين فريدين في توعية الأمة يعملان على تحقيق طموحات كبرى في بناء الأجيال والمستقبل المشرق الوضاء. الأول هو العلامة الملهم المفكر الأستاذ بديع الزمان "سعيد النورسي" رحمه الله. والمثَل الثاني إنما هو الرجل المخطِّط والمنفِّذ لكل خطة، ألا وهو الأستاذ "فتح الله كولن". فهو -كما لمستُ من آثاره القيمة وتوجيهاته الهادئة- وراء كل عمل خيّر عظيم، وفضل عميم في نفع أمته وبناء شخصية الجيل والشباب بطاقات عملية وأنشطة حيوية مفيدة جدًّا ورائعة شملت أنحاء الحياة كلها؛ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعرفية والعملية الهادفة، المتميزة بالحركية الفاعلة، والديمومة الناجحة من معين الإسلام الخالد. لا أذكر هذا على سبيل الإشادة والمديح، وإنما ألقي الضوء على خطوات النجاح في العمل الدعوي الإسلامي الذي يعد أنموذجًا ليستفيد منه الآخرون.

د. جيل كارول (الولايات المتحدة):

لقد عشت مع فتح الله كولن من خلال كتاباته أثناء إعداد كتاب "محاورات حضارية" وما زالت أفكاره تلهمني، ولقد عرفت بعد لقائه لماذا أَلهم هذا الرجل ما يقرب من ثلاثة أجيال في تركيا ومنَحهم الدافع رجالاً ونساء لإنشاء عالم جديد. إنه رجل يتمتع بقدر هائل من الروحانية والإخلاص والتعاطف، وهو شيء واضح للغاية في كتاباته وفي شخصيته.

د. أحمد قعلول*

مداخل الإصلاح
في العالم الإسلامي وتحدياته

أحد مميزات تجربة الخدمة، هو أنه يقوم على مؤسساتها أفراد عاديين، إلا أن هــؤلاء الأفراد العاديــون يحملون قيمًا غير عاديــة تحرّكهم في حياتهــم اليومية وفي أعمالهم بشكل تمكّنهم من تفعيل عالم الأسباب في أحسن صوره وربطه بعالم الغيب.

حراء

١

استفاق المسلمون خلال القرنين الماضيين على واقع لم يألفوه بخصوص آلية التجدد الحضاري للأمة. إذ -ولأول مرة منذ ما يزيد عن اثنتي عشرة قرنًا- انتبهت الأمة إلى كون عملية الإصلاح الداخلي لم تعد قضية إرادية وداخلية، بل أصبحت مرتبطة برهانات خارجية؛ وذلك أنه برز عاملَين جديدين في معادلة الإصلاح الداخلي يربكان الآلية الذاتية التي كانت تضمن التجدد الداخلي للأمة ولدوره الحضاري والإنساني.

• أما العامل الأول: فقد تمثل في بروز نموذج جديد للنهوض الحضاري وللحكم والدولة.

• وأما العامل الثاني: فهو سقوط نموذج الحكم الإسلامي بسقوط الخلافة العثمانية وغياب السقف الذي كان يؤوي الأمة في بيت واحد.

وقد أدى هذين الحدثين الهامين في تاريخ الأمة إلى إحداث شرخ كبير بين نخبها، فانقسمت فسطاطين بخصوص رؤيتها لعملية النهوض واللحاق بركب الحضارة. إذ رأى فريق أن حال الأمة لا ينصلح به آخرها إلا بما صلح به أولها، بينما رأى الفريق الثاني أنه لا أمل في الأمة إلا بأن تتبع خطى النموذج الحضاري الغربي اتباعًا فكريًا وثقافيًا ومسلكيًا، وأن لا أمل في الموروث الحضاري.

كما أن هذا الانقسام لم يتوقف عند هذا الانشطار العمودي بل هو حقق انقاسامًا أفقيًا، كذلك داخل صف الشق الذي يروم الإصلاح من خلال عملية تجديد الذات والعودة إلى الأصول. إذ برز تياران أساسيّان على الأقل؛

• أحد هذين التيارين يسعى لتحقيق الهدف من خلال استعادة الحكم وبرفع شعار الدولة الإسلامية، وذلك من خلال التنافس والسعي لركوب مركب الدولة القطرية الحديثة.

• ويسعى التيار الثاني إلى العمل على إعادة إنتاج نخبة إسلامية قادرة على إحياء المشروع الإسلامي، معتبرًا أن العملية التربوية هي الآلية الأساسية المحققة لهذا التجدّد.

وذلك أن المدرسة الإصلاحية قد نشأت في ظل دولة الخلافة، فركّزت جهدها على كيفية تجديد نخب الدولة والمجتمع بما يمكّن العالم الإسلامي من الحفاظ على هويته الجماعية وعلى عطائه الحضاري.

وقد أدّى سقوط الخلافة إلى صعود شعار الحكومة الإسلامية في وجه الحكومة العلمانية التي جاءت كوريث عضوي للاحتلال المباشر وللهيمنة الغربية على العالم.

وإذ دخل التيار الداعي للحكم الإسلامي في صراع وجود مع نخب الدولة الجديدة، وجد التيار التربوي نفسه في مرمى عملية الاستئصال المنهجي الذي قامت به الدولة الجديدة.

تمثل تجربة "الخدمة" أحد أهم تجارب الإصلاح الإسلامي، وتكْمن أهمّيتها في قدرتها على تحويل القيم الإسلامية الأصيلة إلى نموذج نجاح وإبهار. وهذا يعني أننا نقف أمام نموذج جديد للنجاح والتميز وهو نموذج قادر على الجذب والإلهام.

فكان الأمر المشترك في العواصم الأساسية للعالم الإسلامي السني على الأقل، متمثلاً في تهميش المؤسسة التربوية التقليدية ومنظومتها في إنتاج النخب واعتماد الدولة القطرية الحديثة على المؤسسات المستحدثة وعلى معاييرها في إنتاج النخب والترقي الاجتماعي. وقد وقع هذا في كلٍّ مِن شبْه القارة الهندية والعراق والشام وتركيا ومصر وتونس والمغرب.

لم يبق لهذا التيار من أثر معتبر إلا من خلال تجربتين مختلفتين من حيث درجة النجاح والاتساع، تمثّل تجربة المعهد العالمي للفكر الإسلامي إحدى هذين التجربتين وهي في العموم لم تستطع إلى حد الآن إنتاج نخبة مؤثرة، ولا هي أنتجت إلى حدّ الآن نصوصًا تأسيسية ولا شخصيات نموذجية، بل بقي تيار الدولة هو التيار الأساسي المنتج لهذه النصوص والشخصيات.

أما التجربة الثانية فهي تجربة فذّة نشأت في قلب عاصمة العالم الإسلامي في تركيا وهي تجربة "الخدمة".

الخدمة نموذج إسلامي للنجاح

تمثل تجربة "الخدمة" أحد أهم تجارب الإصلاح الإسلامي، وتكْمن أهمّيتها في قدرتها على تحويل القيم الإسلامية الأصيلة إلى نموذج نجاح وإبهار، وذلك من خلال قدرتها على إنتاج مؤسسات تعليمية وصحيّة ومالية ناجحة قادرة، ليس فقط على منافسة مؤسسات الدولة الحديثة، بل على التميز عليها ضمن مناخات وجغرافيات متعددة ومتنوعة. وهذا يعني أننا نقف هنا أمام نموذج جديد للنجاح والتميز وهو نموذج قادر على الجذب والإلهام. وهذا الأمر هو من أهم شروط التجديد والحياة والانتشار.

الأمر الثاني الذي تتميز به تجربة الخدمة، هو كون

هذه المؤسسات يقوم عليها أفراد عاديون، والقصد هنا أنهم في مظهرهم ونمط حياتهم لا يشكّلون طيفًا مختلفًا عن الإنسان العادي؛ فهم من أبناء الشعب، لا يحملون مضمونًا يمكن أن يرى فيه المجتمع حالة غريبة تساهم في تعطيل عملية التواصل معهم أو التشبه بهم ونقل تجربتهم وتكرارها.

إلا أن هؤلاء الأفراد العاديين يحملون قيمًا غير عادية تحرّكهم في حياتهم اليومية وفي أعمالهم بشكل يمكّنهم من تفعيل عالم الأسباب في أحسن صوره وربطه بعالم الغيب، وبمفهوم أوسع للمصلحة وللزمان وللمكان، أيْ وبكلمات بسيطة تمكّنهم من تنزيل قيم الإسلام على واقع جديد، وعلى استخراج صور مادية من هذا الواقع مشبعة بهذه القيم.

تتوفر تجربة الخدمة على فاعل آخر مهم جدًّا وأساسي بالنسبة لأي تجربة، وهي حضور الشخصية المؤسسة للتجربة؛ أيْ الشيخ الأستاذ فتح الله كولن.

يمثل الأستاذ فتح الله شخصية تاريخية فذة تمثل شرطًا لنجاح التجربة إجمالاً، وذلك بفضل اجتماع كل الصفات الأساسية للمشروع في شخصه، والأهم من كل ذلك بفضل ما اجتمع في شخصه من شروط التزكية وسموّ القيم. فالأستاذ فتح الله يمثل قيم التجربة في أحسن أحوالها، بل هو ربما يكلف نفسه ما لا يكلفه غيره، وهو ما يكسبه مصداقية قيمية وأخلاقية سامية تجعل منه مثالاً يُحتذى به وأسوة صادقة.

وهذه النماذج من الشخصيات التاريخية، هي نماذج فذة في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ الشعوب عادة ما توجد في مراحل التأسيس، وكلما زاد سموها اتسع أفقها التاريخي ومدى تجربتها في التاريخ.

الخدمة وامتحان الدولة الحديثة

تمثل تجربة الخدمة أحد أهم تجارب الإصلاح الإسلامي من حيث انتماؤها إلى النهج التربوي التجديدي؛ فهي التجربة الوحيدة إلى حد الآن التي صمدت ولم تقع في إغراء الدولة، وهذا خلافًا لما انتهت إليه التجربة الهندية والعربية السنّية. على أن تجربة الخدمة التي عملت واجتهدت من أجل تجنّب سؤال الدولة، تجد نفسها اليوم أمام تحد حقيقي ربما يدفعها في نهاية الأمر، إما لمواجهة مصير المدرسة الهندية والعربية، أو إثبات تميزها التاريخي والمنهجي.

لا يسمح المقام هنا للتعاطي التحليلي مع سوابق التحديات التي تعرّضت لها هذه المدرسة، ولكن يكفينا ضمن هذه العجالة أن نتعاطى مع طبيعة التحدي الحالي.

بغضّ النظر عن التفاصيل والتي يمكن أن تكون مهمّة من حيث فهم مجريات الأحداث، فإنه يمكن إرجاع التوتر الحاصل في تركيا اليوم بين تجربة "الحكم الإسلامي" وتجربة "الخدمة" بما هي التعبيرة النموذجية الوحيدة في العالم الإسلامي عن التيار التربوي في الأمة، إلى أصول بنيوية تتجاوز طبيعة الأفراد والتأويلات المتعددة التي تبحث مكامن مكوث الشيطان.

تمثل الخدمة -من حيث جوهرها وبنيتها- تحديًا جوهريًّا لطبيعة الدولة الحديثة، خاصة الدولة التي ورثت النموذج الفرنسي للحداثة.

يمكن تصنيف الدولة الحديثة إلى صنفين أو ثلاثة أصناف بحسب طابعها العلماني. وذلك أن الدولة الحديثة هي دولة علمانية بالتعريف، ويمكن تقسيم الإرث العلماني بحسب الإرث الكنسي؛

- فهناك علمانية لائكية كاثولكية متطرّفة في موقفها من الدين.
- وعلمانية أرثدكسية، وهي علمانية مركزية كليانية متدينة.
- وهناك علمانية بروتستنتية.

وذلك أن الكنيسة الأوربية التي واجهت أزمة وجودية، انتهت وولدت هذه العلمانيات الكنسية الثلاث. ومن أهم سمات الكنيسة الكاثوليكية والبروتستنتية احتكار التحدث بالحقيقة وفصل المقدس عن الدنيوي، واعتبارها رجال الكنيسة النخبة المنفردة بالتقديس والقدسية. وهذا على خلاف الكنيسة البروتستنتية التي جاءت في إطار عملية تجديد إحيائي للكنيسة، أدخل فيها شيئًا من الدنيوي ووزع بذلك مجال السلطة وعدّدها

hiramagazine.com

في مجتمع المتعبدين.

وعلى نفس الشاكلة نجد أن الدولة الحديثة تلبست باللباس الكنسي، ولذلك فإن هذه الدولة خاصة في صيغتها الكاثولكية والأرثذكسية تعتبر أن صياغة الهوية الفكرية للمواطن المنتمي إليها، هو جزء لا يتجزء من مهامها المقدسة؛ فمثلما تحتكر الدولة شرعية ممارسة الإكراه والعنف، فإنها تحتكر إلى جانب ذلك شرعية القراءة والتأويل، أي قراءة العالم وتأويله بل وتخيله.

وعلى هذا الأساس تحتكر الدولة الحديثة تحديد طبيعة نخبها وبيروقراطيتها التي تنتمي لمؤسساتها وجهات الخطاب والتواصل لديها.

ومن هنا فإن الدولة الحديثة في صيغتها العلمانية الكاثولكية والأرثذكسية، تعتبر أن مهمّة التعليم التربوي هي من صلب مهامها ومن مصادر قدسيتها.

وهذا ما يفسر أن النخب التي أمسكت بعصم هذه الدولة انتهت إلى التلبس بلباسها العلماني، خاصة إذا كانت هذه الدولة سليلة للإرث اللائكي الكاثوليكي، أي نمط الدولة الفرنسية.

إن جزءًا من الإشكال التركي يكمن على المستوى الهيكلي والإستراتيجي في هذه النقطة، وذلك أن الإسلاميين الذين ورثوا الدولة الحديثة، انتهوا إلى التطبّع بطابعها بمثل صورة القرية التي كان يصارع شبابها وحشًا في أعلى الجبل، فإذا ما تغلب أحدهم عليه تحول إليه. من المهم التنبيه إلى أن هذا المأزق لا يخص تركيا فقط، وإنما هو إشكال عام بكل الثوريين والتحرّريين في العالم بما في ذلك الإسلاميون.

إن الإشكال والتحدي لا يواجه الخدمة بقدر ما يواجه التيار الإسلامي الإصلاحي، الذي انتهج مسار أخذ الدولة دون أن يعلم أن الدولة التي يسعى لاستعادتها ليست هي هذه الدولة التي افتقدها، وأن هذه الدولة المستنبتة في العالم الإسلامي ليست وريثًا للحكم الإسلامي، وإنما للحكم المسيحي.

ليس لديّ إجابة باتة اليوم عن كيفية قتل الوحش دون حمل سماته الوراثية وعدواه، ولكن التحدي اليوم لا شك مطروح على الأمة وعلى جميع التيارات الإسلامية، وذلك أن المشروع الإسلامي هو مشروع للمجتمع والحكم، وهو مشروع دولة لا محالة، فهو مشروع صلاح فردي ونظام حياة.

تمثل تجربة الخدمة أحد أهم تجارب الإصلاح الإسلامي من حيث انتماؤها إلى النهج التربوي التجديدي؛ فهي التجربة الوحيدة التي صمدت ولم تقع في إغراء الدولة.

من البيّن أن حجم التحدي ما زال كبيرًا وأن مهمّة الإصلاح في الأمة ما زال الطريق إليها طويلاً، والكدح فيها عسيرًا. ومن البيّن أن الأستاذ فتح الله مدرك لطول هذا المسار، وعلى هذا الأساس يتخذ سياسات تتجنّب الدخول في المعارك من حيث المبدأ والتركيز على مبدإ تكريس حريّة القراءة. وذلك أن الخدمة تقوم على معقولية إسلامية قرآنية؛ إذ إن الإسلام قام على كلمة عامة موجهة للناس كافة... وبها ابتدأ الوحي من الله ﷻ لعبده النبي الأمي ﷺ، ومنه لأمّته وإلى الناس كافّة، إلى كل بيت من حجر ومدَر ما بلغتْ الشمس بين مشرق الأرض ومغربها.

فربط أمر القراءة بـ"اسم الله" وبمعنى "الربوبية" مِن أسمائه ﷻ إعلانٌ لأصل الحرية الخلقية وفردانية سلطان الله ﷻ على وعْي الناس وقلوبهم فوق كل قوة قاهرة، وتصغيرٌ لكل سلطان يسعى لبسط نفوذه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:١-٢)

وقد أحسنت أمة القراءة القراءة، ولذلك رفض علماؤها أن يتحزّبوا لسلطان أمرائها، ولاقوا في سبيل ذلك العنَت؛ فامتحن الإمام الشافعي والإمام مالك وأبو حنيفة والإمام أحمد، وبرهنت الأمة عن ولائها لفكرهم... بينما همشت المعتزلة على جلال معقوليتهم وعقلانيتهم وسموّ فكرهم ونظرتهم لكونهم تحوّلوا إلى فكر سلطاني يريد أن يجد طريقه لقلوب الناس مِن خلال الحكم.

إن هذه الروح الإسلامية الأصيلة تقوم على أساس متين هو من أهم مقاصد الشريعة، ألا وهو أصل الحرية

المعبّر عنه بـ"عقيدة التوحيد"، توحيد الله وتوحيد ربوبيته، فهو ﷻ الخالق والرازق وهو ربّ العالمين.

إن ما يقع في تركيا اليوم هو ابتلاء للأمة في لحظة تاريخية انفجر فيها الأمل. فتركيا جمعت بين تجربة إسلامية للحكم، وتجربة إسلامية للمجتمع. وفي العالم العربي ورود الربيع رفعت عن أوراقها التراب وانبثّت من بذورها براعم خضراء تخرج منها بعض الأوراق على عجل متشوّقة للحرّية.

نحن لا نعلم قدر الله، وإنما نسير بتوفيق منه، انكسر منا الأمل في بلد الكنانة، وحلْمنا في الشام يقطر دمًا، ونعلم أن مصير بلاد الزيتونة والقيْروان في مهبّ ريح عاصف إلا برحمة الله. فلا نعلم هل يرسل الله إلينا عبده الصالح يرشدنا بما أرشد به عبده موسى الذي زاده الله بسْطة في العلم والجسم.

إن تركيا ما زالت تحمل آمال هذه الأمة المتألّمة، ولا شك أن انكسار أي من أعمدتها سيكون له أثر الوبال على أحلامها وآمالها، ولكن أيّ معنى للانتصار إن تَحوَّل شبابُنا وقادتُنا إلى وحوش كلما قتلوا وحش الجبل؟!

أكّد الأستاذ فتح الله على أهمّية ترْك الأبواب مفتوحة، وأوصى بعدم وضع العقبات أمام طريق الصلح ووجْه تأويل ما يؤذي على أحسن الوجوه، وأكّد يقينه بأن بعض الوجوه ستحمرّ وجناتها يومًا خجلاً من مداخل الشيطان.

لا شك أن الصبر على الأذى هو من أخلاق الصالحين؛ فالرجل يعلم أن الخيار الذي ينتهجه هو الخيار الصعب الذي سيغير أمواج القاع، ويؤنس الوحش الرابض على قمّة الجبل. ■

(*) باحث وكاتب في الفكر النهضوي / تونس.

شهادات

أ.د. نادية مصطفى (مصر):

تعرفت على فكر الأستاذ فتح الله كولن من خلال إنجازات المؤسسات التي تجسِّده واقعًا ملموسًا، ومن رجالات يحملون هذا الفكر إلى الإنسانية في داخل وخارج تركيا. إنه الشيخ الفقيه والمفكر والعالم والمُصلِح الذي اجتمعت حوله قلوب وعقول أجيال من الأتراك المتعطشين لتجديد دنياهم بتجديد دينهم، فكانوا جميعًا، الأستاذ وتلاميذه، تيارًا متدفقًا يخدم الإسلام والمسلمين والعالمين في إطار جديد يمتد من الوطن تركيا إلى الأمة الإسلامية والعالم، ويجمع العلم والإيمان، الفكر والحركة، العقل والوجدان، الروح والمادة. لقد تمحور فكر الأستاذ وجهود الخدمة حول "بناء الإنسان"، وهو محور كل إصلاح ابتداءً من الديني مرورًا بالتربوي والمجتمعي ووصولاً إلى السياسي.

أ.د. عبد الرزاق قسوم (الجزائر):

تحس وأنت تهتدي بمصباح الأستاذ فتح الله كولن أنه يتعامل مع القرآن كأنه نزل عليه. فتح الله كولن يُخضع الآية القرآنية لمصباح العقل، لكن العقل المدعَّم بالإيمان، ويستنبط منها لآلئ ثمينة. ولكنه في كل آية يقدّم لنا لوحة فنية جمالية طبيعية وعقلية داعية إلى التأمل وإلى استنباط ما يجب استنباطه من تعقل وتأمل إيماني ليوجه عقلنا به.

hiramagazine.com

أ.د. سليمان عشراتي*

العبادة التنفيذية وقرآنية "الخدمة"

كان النبي ﷺ رجل الشريعة العملية والوحي التطبيقي والسيرة القرآنية بامتياز. وإن معنى "كان خلقه القرآن"، أو "كان قرآنًا يمشي على الأرض"؛ هو أن سيرته كانت تقرن القول مع العمل، لأن الإسلام جاء دينًا لإصلاح الدنيا وليس للروح وحسب.

وإذا كانت السنة هي التقمص الجذري لأفعاله ﷺ ولكل ما صدر عنه -أمرًا ونهيًا- فإن الغاية من التسنن هي أن يكون المرء المسلم قرآنيًّا بالفعل كما كان نبيه محمد ﷺ قرآنيًّا بالقلب والقالب. وعلى نحو ما عاش ﷺ ينجز ويقيم دعائم دين

يبني الشخصية المنوطة بمهمة الإيمان والعمل الصالح، فالمسلمون هم من يجسّدون عن مصداقية صفة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي ركزت عليها الآيات القرآنية، وجعلتها أبرز لازمة تنعت المسلمين الكُمَّلَ.

وإذا كان تاريخ الدعوة الإسلامية قد حفل بالوعاظ والدعاة ومحترفي القصص المنبري، فلقد كان افتقار تاريخنا للدعاة العاملين، جسيمًا، وإن مقابلة أسماء الصالحين ممن عاشوا العكوف الانقطاعي والعزوف عن الحياة، والعيش المتجه إلى السماء لاستمطار شآبيب المغفرة على النفس، مع أسماء مَنْ شقُّوا النهج العملي واحتذوا السنة في مسارها العملي، يكشف عن رجاحة قوائم الصنف الأول. فعدد العاملين الذين ظهروا في مراحل تاريخنا وسجّل لهم الزمنُ صحائف ذهبية، يكاد يبدو ضئيلاً، وتعدادهم لا يكاد يتجاوز عد أصابع اليدين، الأمر الذي يبرز علة تخلف الأمة وانسلاخها عن الدين الصحيح، إذ التجرد من السمة التطبيقية، والاكتفاء بالأداء التعبدي الفرائضي، ينتهي بالمسلم إلا أن يصبح طقوسيًّا، لا ينفذ الدين الحنيف إلى صميم حياته في تفاصيلها كما ينبغي أن يكون النفاذ.

وإذا تحدثنا عن طوائف العلماء ومِنْ شتَّى الاتجاهاتِ والنزعات، فلا نكاد نجد من يماثل الجيلاني ومن سلك مسلكه في التجنيد الجماهيري، وتشكيل الأوساط التي لا تكتفي فقط بزرع مبادئ الطريقة وتلقين التعاليم الروحية، وإنما تقرن -إلى ذلك التلقين- واجبَ النهوض الميداني بتكاليف بذل المال والتضحية بالعمر والجهد الشخصي، في سبيل الانقطاع لأنواع الخدمة والأداء الاحتسابي.

وإن شخصية جبارة مثل الغزالي (على جهة المثال) وما كان له من تأثير فكري في تاريخنا الإسلامي، ظلت تعاليمه على جلال روحيتها تبث السلوى دون القدرة على فتح أفق العمل والتجنيد الفعال؛ إذ كان ينقصها -رغم غناها الروحي النظري- البعد النفعي/العملي، والمقصد التطبيقي الذي يجند الجماهير وراء أهداف حياتية ملموسة، تحيي العزة، وتبعث الهمة، وتجعل النفوس تستجيب لداعي ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(مريم:١٢). هذا الداعي الذي يتجه إلى كل مؤمن موحد، ويندبه إلى التمرس بالحياة بعمق والتزام. فإحالة القوة هنا تعود إلى العزيمة "كن يا مؤمن مِن أولي العزم" وإلى الشخصية "كن حديدي العريكة في تعاطي مسؤوليتك الحياتية".

فالمؤكد أن فصل العمل الروحي الاعتكافي عن بُعده الدنيوي الاحتسابي، لم يرجح كفة اليقين في حياة المسلمين، وإنما كرس استقالتهم من التاريخ. الأمر الذي انعكس على الروحية، إذ عرَّاها من لحاف الإيمان الحق، وجعلها تتكيف -بالتقادم- على التمرس بالكفاف والحرمان، وهو ما أرخى -بل وفصم- العرى في أحيان كثيرة بين الأمة وبين الدين الحق.

لقد سادتنا عقلية التزهيد طيلة عهود وقرون، وكان الحاصل وقوع الأمة في قبضة التخلف مما سهل الأمر على أعدائها كي يستعبدوها. وكان حتمًا أن تسفر ترديات النكبة عن بروز أعلام عملوا على تصحيح الرؤية الدينية إلى الحياة، وسعوا إلى إحياء الأواصر التي تعيد المسلمين إلى الجادة، وإلى ربط الدنيا بالآخرة، وإلى تعمير الروح والكون، تأسيسًا للتوزان الذي فُقِدَ في واقع المسلمين -ومن ثمة في أصقاع الأرض- طيلة قرون من السبات والحيدة عن المحجة.

دعاة العصر العاملين

لا ريب أن من أبرز دعاة العصر العاملين في هذا الاتجاه التعميري، ينتصب الإمام فتح الله كولن في الصدارة؛ إذ عاش -ويعيش- السيرة ميدانيًّا كما تقتضي ذلك تعاليم السيرة ذاتها. فتوجيهات السيرة تقرر أن "المؤمن القائم أفضل عند الله من المؤمن القاعد"، و"اليد العليا خير من اليد السفلى"، و"إذا غربت الساعة على أحدكم وفي يده فسيلة، فليغرسها".

القرآن يزكي النفوس ويتزكَّى. وزكاة القرآن -كما قال بعض المفسرين- هي تفسيره. والتفسير مستويات أعلاها ما كان تفسيرًا عمليًّا، ولقد كان الرسول ﷺ هو المفسر العملي الأسنى، إذ عمل طيلة حياته الدعوية على تفسير القرآن بتطبيق مقرراته في مطلقيتها ميدانيًّا، بحيث جاءت السنة ترجمانًا للقرآن وبيانًا لكوامنه واغتراسًا

hiramagazine.com

لمعانيه على الأرض، يراها المسلمون مشاريع قائمة، ومنجزات ماثلة، ومخططات نافذة وأخرى مستتبعة. وكانت أعمال الخلفاء الراشدين -حقًّا- تفسيرًا عمليًّا للقرآن، إذ استغرقهم التأسيس للمدنية الإسلامية، فكانت اجتهاداتهم ميدانية، قل أن تنفك عن تفعيل الواقع، وإن ما أُثِر عن عمر -مثلاً- من تفسير، هو في حقيقته توثيقات ميدانية، وفتاوى عملية، وتجْليات ترشيدية، نابعة من حراك شمولي كان الخليفة يخوضه مع الأمة في مرحلة شهدت أعظم أطوار دولة الخلافة من حيث التوسع والاستبحار.

ولقد انحسر ظل التفسير العملي عن دائرة التطبيق عبر المراحل المتصرمة من تاريخ المسلمين، ليغدو في عمومه مجرد احتراف لفظي، يشتغل على الدلالة بَدَلَ الواقع، ويشغف من مستوياتها بالبعد الافتراضي -لا الحياتي- بحيث ظل يراوح في الغيبيات التي جعل الله أمرها من شأن الخالق وحده. كما استغرقته التكرارية والسجالات الهامشية التي أحالت المنجز التفسيري -في صعيد عريض من متونه- إلى مدونات باردة، لا يخرج منها القارئ بفائدة تطور واقعه وتثور أوضاعه. لقد أَوْدت الاتباعية الحرفية والمذهبية -فضلاً عن أنواع الفذلكات الجوفاء المشتغلة على التقعيد المدرسي- أَوْدت بالتفسير إلى حال من العقم، بحيث حالت تخريجاته الجوفاء بين القرآن وبين الواقع، فبات القرآن بعيدًا عن الواقع وعن التأثير فيه بقدر بُعْدِ مدونات التفسير عن ملابسة القرآن وترجمة مقاصده.

فالذي "أنهك" المعاني القرآنية في حياتنا، وغيّبها تحت ركامات من التفسير الضحل، هو التواطؤ الاقترابي الهزيل، والمراوحة على تداولية معنوية لم تغص في أرضية القرآن، ولم تجدد رؤيتها بحيث تشمل آفاقه، وهو ما جعل المنجز التفسيري يظل خطابًا ظليًّا لتلك التداولية، لا يكاد يخرج عنها قطميرًا. الأمر الذي استبقى القرآن في وضع الانقطاع عن الواقع، إذ لم يفكر المفسر في أن يتمرس بالقرآن عمليًّا، ويخرج من شرنقة التجريد ومن سجالية عقيمة تنظر إلى الصدى لا إلى الصوت، إلى الوهم التمثُّلي لا إلى الحقيقة الموضوعية.

لا ريب أن من أبرز دعاة العصر العاملين في الاتجاه التعميري، ينتصب الإمام فتح الله كولن في الصدارة؛ إذ عاش -ويعيش- السيرة ميدانيًّا كما تقتضي ذلك تعاليم السيرة ذاتها. فتوجيهات السيرة تقرر أن "المؤمن القائم أفضل عند الله من المؤمن القاعد"، و"اليد العليا خير من اليد السفلى"، و"إذا غربت الساعة على أحدكم وفي يده فسيلة، فليغرسها".

وربما عرف العصر الحديث حلحلة بسيطة في حقل التفسير على يد بعض رواد النهضة، من أمثال عبده وابن باديس؛ إذ سعوا إلى أن يفتحوا الأفق في وجه المعاني القرآنية، ويدمجوا مساحة من واقع المسلمين الانحطاطي في دائرة اهتمامهم، جاعلين القرآن -على ذلك النحو- مادة المقاومة والإيقاظ.

ولقد أمكن القول إن الدرس القرآني أضحى الأرضية التي بنى عليها فريق من أعلام الأمة فلسفتهم الإيقاظية، فمفكر مثل مالك بن نبي لم يخلّف تفسيرًا، ولكن أعماله في مجملها كانت ترجمة للقرآن وتفسيرًا لمعانيه، ومنطلقات نظرية لنواميسه في مضمار الأخلاق والجمال والحضارة وسواها من حقول المعرفة التي تطرق إليها في بحوثه ومقارباته.

الداعية كولن يفسر القرآن بجلائل الأعمال

وينهج اليوم قريبًا من هذا النهج التنفيذي، الداعيةُ فتح الله كولن، إذ أقام حياته في تفاصيلها وأحداثها وتطوراتها على مبدأ اللحمة والترابط مع القرآن والسنة.

لقد احتذى الأستاذ فتح الله خُطى نبيه المصطفى ﷺ في سيرته العملية هذه؛ إذ سلك سبيل التفسير العملي للقرآن، من خلال السعي بلا هوادة إلى إرساء فلسفة الخدمة التي تنبني على تحقيق الإنجازية الواقعية لتعاليم الإسلام. فجاءت من ثمة برامج الخدمة صعيدًا للتأسيس الخيري، وفضاء للتباري الإحساني والتشييد المشاريعي الذي ينهض بالأمة وتستعيد به روح دينها العملي على النحو الفعلي: "الدين ما وقر في القلب وصدّقه العمل"،

hiramagazine.com

"الدين المعاملة". فمشروطية العمل والتنفيذ هي ركن العقيدة الإسلامية، ولا يكتمل أداء الفرض الشرعي إلا بالثمار، إلا بالبعد الواقعي والمعادل الموضوعي على أرض الواقع، وفي حياة الأفراد والجماعات.

زكاة القرآن تجسدها حركة فتح الله من خلال هذا الخروج المتزايد لأبناء تركيا ممن استقطبتهم -ولا تزال- أنوار الخدمة، وتُشَرِّعُ في وجوههم إمكانات العمل وتحقيق الذاتية المتفانية في ذات المصطفى ﷺ وتفعيل أوامره ونواهيه في مجال بناء النفس والإنسان، وإرساء الوقفيات ذات النفع الأصيل التي تهيئ لنهضة الأمة.

في عصر البطالة التي تجتاح الأمم اليوم، وتضغط -بالأخص- على واقع الشباب، وتربك مخططات أولي المال والثراء، وتضيّق في وجوههم مجالات الربح والفائدة، يَتَشَرَّع باب ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾(التوبة:١٠٥) في وجه أهل الخدمة، وتتسع بوابات ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾(التغابن:١٧)، فيزداد بذل المنخرطين من أهل السبق الذين كانوا في طليعة من انطلق يستجيب لداعي الله، ويتجاوب مع نداء الخدمة الذي أرسله فتح الله منذ مطلع التسعينيات[١]، أولئك الذين بادروا بما كان معهم من مال، وفي الحقيقة لم يكن مع الكثرة من أولئك القلة الطلائع، إلا نواياهم المتفجرة صدقًا وشوقًا لاحتضان أيّة سانحة تتأتّى لهم، فيتقربون بها إلى الله، ويسهمون من خلالها في وضع حجر الأساس لمشروع الخدمة، الذي كان فتح الله يقترحه ويحدو الناس إليه.

اطَّرحتِ البركة في الجهد، وزكت القربات بالتدرج، وزادت النتائج والمحاصيل رغم ما صاحبها من مكابدات عركت أولي العزم، فما أثنتهم عن الاستشهادية، وكادت الإحصاءات أن تخلو جملة من أي حالة ارتداد أو نكوص.

الانجذاب كان عجيبًا، فكان النفر القليلون ينجزون بهممهم المباركة، وانطلاقًا من شبه خواء الوفاض من التجربة والرصيد والخبرة، ما ينبئ أن الأمر لم يكن أمر إرادات، بقدر ما كان أمر قدريات شاءها الحق أن تنبت على الأرض، لتكون منها الخميرة والزريعة والنقلة، ولتنتشر مفالح الخير والخدمة في الآفاق.

تروي سيرة الأولين من شباب الخدمة ورجالها، أنهم طالما دخلوا أوطانًا[٢] تشتعل بنيران الحرب، وقد خربت الديار والحواضر، وفرغت من أهلها، وكان القصد من وراء ذلك الاستبسال، الوفاء بحق الموثق الذي واثقوا الله عليه، واستفراغ ما كانت تحبل به النفوس من شحنات تلقوها من روح الإمام "فتح الله".

كان أهالي أولئك الأوطان المنكوبة يتقاطعون في الطريق مع الأنفار المنتدبين من تلاميذ فتح الله، فيرون فتية عزلاً، هزلاً، شبه حفاة من طول المدى الذي سلكوه على الأقدام، ففي أوقات الحرب، تنقطع المواصلات، وتشح الحياة، ويسود الجوع والمرض والموت.

كانوا يرون أولئك الفتيان على ما بهم من وعثاء ومكابدة، يَظهَرون مطمئنّين، ويبدون من الحرص على النفاذ إلى قلب الأرض المشتعلة، ما يضاهي حرص الأهالي المنكوبين على الإفلات ومغادرة الجحيم. كانوا يسألونهم بذهنية مذهولة، وروح هلعى: "إلى أين متجهكم، وماذا جئتم تفعلون، أم ترى أنتم مرتزقة تبغون الالتحاق بالفيالق، تزيدون من استعار جهنم؟".

يتطلع الفتية إلى الآفاق، وراء دخان المدافع، ووهج القصف وحمم التفجيرات النازلة من السماء، ويتكلمون بصوت هزيل لكنه حار: "جئنا لنفتح مدارس الخدمة".

يرتعب الأهالي ويقفزون خطوات إلى وراء، غير مصدّقين أنهم بإزاء بشر أسوياء، ثم لا يبرحون أن يغادروا المكان، لا يلوون على شيء، وحين يلتفتون وراءهم لا يجدون أثرًا للفتية... ترى أبَلَعَتْهم الأرض أم رفعتهم السماء... يمضون وقد نهض في نفوسهم إِحساس بأن الطريق قد جمعهم مع مخلوقات من غير أهل الدنيا... كان أولئك الشباب طرازًا من خرّيجي مدرسة فتح الله.

كانت حلقات الوعظ التي يجتمعون فيها إلى الإمام، اعتراكات لا يخرجون منها إلا منهزمين، طالما اختنق بعبراته وهو يلقنهم سبل الفوز... طالما أمسك بالكرباج وانهال عليهم داخل الصحن، يلهب ظهورهم

hiramagazine.com

ويدميها... ما أقسى تقريعاته لهم، وما أشد لذعات بيانه عليهم..! يدخلون المسجد على رخاء نفسي، واستعداد لمصافحة ملائكة المسجد، والتناجي القلبي مع البارئ ﷻ، يستغفرونه على هنات وأخطاء وخطايا اقترفوها، واثقين من أنه ربٌّ غفور، يمسح الآثام ويغض عن الزلات، لكن ما أن يصعد الإمام على الصهوة، حتى تدب البلبلة في الصفوف، فيتفشى الوهن، وتخطئ الجموعَ الرباطةُ، وتتزلزل الأرض من تحت الأقدام، كم يكون المنظر مهوّلاً لمرأى أهل الشأن والأسنان وهم يتعفرون تحت ضربات صاحب السيف البتّار، كم هو مخز مرأى الشباب يتدافعون مذعورين، يشقُّون الأثواب ويتناوحون بصوت الالتياع..! أين رجولة القوم، ما الذي دهاهم؟ وتمضي المعركة دائرة، وتتلاحق جولات الكر والفر، تكتنس الغافلين، وتبعثر غير المتحوطين، ومن كان الاعتقاد الخاطئ يملأ نفوسهم بأنهم الغالبون، وأن سحابة يومهم سوف لا تلبث أن تنجلي عن نصر وانبساط يعودون به إلى دورهم راضين مطمئنين بما أدّوا من فرض، وسمعوا من وعظ.

ألفوا الظفر بالسكينة وبما يشبه الوثوق من أنهم بعد غشيان الجوامع وحضور حصص الوعظ سيؤوبون إلى أهليهم مغتسلين من الآثام، على حال أشبه بخروجهم من الحمام وقد تطهّرت جنوبهم ولانت جلودُهم، لكنهم باتوا عند حضور مجلس "فتح الله" لا يجدون من ذلك قطميرًا... كانوا في تلك المجالس على موعد مع الدفع والهز والمعانفة، بل واللطم واللكز أحيانًا، بل ما أكثر ما كانوا يغادرون الجلسة بجروح نزفت، وندوب انبعثت، وكلوم نفطت. كانت خطب الإمام تستثير فيهم مكامن الأدواء، تذكرهم بأوجه العقوق التي ما عبأوا بها من قبل، والاقترافات التي سدروا وما التفتوا إليها، وبالخطايا التي تداعت إليهم مع إرث الآباء والأجداد... فما استشعروا وطأتها، وما ذاقوا علقم الإحساس بكارثيتها حين نبذوا الموثق، وقعدوا عن تأدية ما سلف للأجداد من خدمة وبأس على نهج المحمدية. كم هي فجيعية تلك النداءات الاستغاثية بالقرآن، كم هي مروعة تلك الضراعات المتشفعة بحرمة النبي ﷺ والآل والصحب والأتباع.

زكاة القرآن تجسدها حركة فتح الله من خلال هذا الخروج المتزايد لأبناء تركيا ممن استقطبتهم -ولا تزال- أنوار الخدمة، وتُشَرِّعُ في وجوههم إمكانات العمل وتحقيق الذاتية المتفانية في ذات المصطفى وتفعيل أوامره ونواهيه في مجال بناء النفس والإنسان، وارساء الوقفيات ذات النفع الأصيل التي تهيئ لنهضة الأمة.

حراء

لا زالت حدة ذلك الصوت الرعدي تنكأُ الأغوار، وتستحيي ما انطفأ من أوزار.

كان مرتادو المسجد يتبادلون النظرات، قلوبهم وجلة مما سيسمعون، كم من أحد بيّت في نفسه عدم معاودة المجلس، لكنه كان يجد نفسه في كل مرة، ينقاد إليه بباعث غامض، فيمضي ويجلس في الموضع ذاته الذي جلسه بالأمس... وما أسرع ما كانت تنقضُّ عليه نفس المخالب، ونفس الضراوة، وإذا هو مخذول يتهاوى بين براثن خطاب لا رحمة له، يعركه، ويُعيده إلى حال من السفور، كأنما جُرِّدَ من ثيابه، كأنما قوة خفية فضحته في القارعة وتحت الأنظار، فلا يملك إلا أن يتحامل مغادرًا الميدان، مدمىً، مكلوم الباطن والأعماق، لا يرتاب قط في أنها آخر معركة يخسرها، لكن القوة نفسها التي اقتادته أمس ستقتاده غدًا، وربما بأقوى ما يكون الجدب، وربما بأعجب ما يكون الباعث.

على ذلك النحو أدمنوا على ازدراد الغصص، على الارتواء من دمع الحسرة، على التقوي على رؤية ما سلف من غفلة بلَّدَت الحس، أو ذنوب اقترفتها النفس في رعونة، أو بدافع شيطاني، أو بتسفل وتهافت روحيين.

اكتسبوا من حلقات الإمام روح المكابرة والجلد ومطاولة النزال... تعلموا كيف يَنْقَضُّون على أنفسهم يهدمونها ويقيمون أرشتكتورًا جديدًا... تلقّوا الصفعات فتفطّنوا إلى النهج الذي يجنبهم الوصم بالنقائص والسفالات والترديات... باتوا يعشقون حشرجة الصدر المعبإ بالعشق، يتبردون بالدمع الحارق المذروف لأدنى ذكرى ولأبسط توق، ولأقل نسمة من حنين. طالما

hiramagazine.com

هيّجتهم نعوت الإمام التي تعقد المقابلة بينهم وبين أبي بكر وعمر وذي النورين وحيدرة... باتت أصداء الهزائم في الدنيا بواعث نهوض قوي، تتحطم له قيود الخنوع والصغار والقصور عن استبانة الأفق المليء بالوعود.

من الحلقة الصحنية إلى الائتلاف الجماعي الورشي

تخطى فقه الأستاذ كولن بالمسلم المُتَرَوِّح[٣] سياجَ العزلة والمصادرة المكانية التي طالما تبرَّج[٤] فيها أولو الشأن من المتعبدين، واستبدل جو الخلوة بجو الاجتماع، ووضْع التفرد بوضْع التكثُّر، وحال التوحد بحال التعدد.

تقوم فلسفة الخدمة على اعتماد الاستقطاب النوعي للعاملين، وتجهيزهم بالطاقة الروحية الكافية التي تجعل منهم رجال دعوة وتبليغ، ينتقلون برسالة الله في الأرض، يبشرون وينوّرون، يسيرون على هدي النبي المصطفى ﷺ وعلى موثقه... يحملون الكتاب إلى كافة أهل الأرض تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(سبأ:٢٨).

الخدمة رهان مبرأ من أحمال التعصب العرقي أو الثقافي أو الأيديولوجي، ومقاصده دعوية بحتة تتوخى توصيل الدين الحنيف إلى العالمين... فمحمد ﷺ نبي خاتم، والإنسانية جمعاء معنية برسالته، وأهل القرآن موكلين بحمل تعاليم تلك الرسالة إلى الآفاق، لتبرأ ذمتهم من حيث الائتمان والتكليف... فمسؤولية أمة محمد التبليغية قائمة إلى يوم الدين، ولا عذر لها في القعود عن تأدية واجب التبليغ مهما كانت الظروف التي تشرطها. وإن عهود الانتكاس التي سلخها المسلمون في غيبوبة تاريخية منكرة قد أزف انجلاؤها، إذ تهيأ اليوم للأمة من أسباب اليقظة ما يقتضي منها النهوض والمبادرة إلى تقمص دور الهداية الذي هو دورها.

منطلقات تكليفية لا تحد، نصّ عليها القرآنُ، ونوَّهت بها السنةُ، تدفع المسلم نحو التواصل الكوني... فمبدأ الوسطية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣)، يقتضي بناء سبل التواصل مع العالمين، وشق الدروب نحو الأمم والشعوب من أجل استكمال المهمة التوصيلية التي أعطى إشارة الانطلاق فيها الرسول ﷺ، لولا أن الأمة انكبحت وحادت عن وجهتها ولم تستكمل مهمّتها، حيث أقامت السياسة الدنيوية التي تَوَحَّلتْ الأمة في حمئها هوةً لم تزل منذ العصر الأول تتسع وتعمق من واقع القطيعة بين المسلمين وأمم الأرض.

لا مطعن قط في طرق باب الأمم اليوم، ووضع كتاب الله بين أيديها، حتى تلك الأمم التي تتوفر على عقيدة وتتجهز بدين تحتاج أن تطلع على رسالة الإسلام الحق؛ إذ إن الإنسانية بلغت اليوم حدًّا من التفتح، يتيح لأوساط متنورة منها أن تتقبل الحوار... وإن الاعتراكات الحياتية المؤلمة التي طفق العصر يفرزها وينال بها من المعنى الحياتي، ويشوه من روح التمدن، قد هيأت قطاعات لا تفتأ تتسع من الرأي العام الإنساني، لتقبل الرؤية المغايرة، والبحث عما يفيد ويجدي في التخفيف من وحشية المدنية المادية.

هناك ديانات توفرت على البعد الروحي والزهدي شبه المطلق، لكن طبيعة هذه الديانات تناسب حصرًا أوساط الترهب والفئات الجانحة إلى القعود والإشاحة عن الحياة... فطبيعة تلك الديانات طبيعة سكونية غير حراكية، إذ الانقطاع التعبدي يتنافى تمامًا مع شرط الاستمرار الحياتي والوجودي... والإسلام نصَّ بقوة على منحاه الدنيوي المرشد "أما أنا فأصوم وأُفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" أو كما قال عليه الصلاة والسلام. لذلك يترشح دين محمد ﷺ ليكون بديلاً مطلقًا عما سواه من العقائد والأيديولوجيات، لشمولية مبادئه، وواقعيتها، وسموها المتأهل لتصفية الزمان والمدنية من الشوائب الناتجة عن التطور المدني والترقي الحضاري. ذلك لأن امتياز الإسلام يكمن في قدرته على مصاحبة الفعل الإنساني عبر سيرورة الزمان والمكان من موقع الاحتواء التطهيري والتهذيبي، فهو لا يكبح جماح الرقي، لكنه يعطيه الصبغة الاتزانية والمسحة التوازنية، بحيث لا يسف التطور المادي بالإنسان، ولا يخرج به عن نطاق إنسانيته السوية.

ليست الدعوة الإسلامية اعتداء على أحد أو تدخلاً في شؤون أحد، لأنها ديانة لم تخص قومية بعينها أو بقعة بذاتها أو عصرًا بحصريته، كشأن أكثر الديانات

hiramagazine.com

المبنية على الاعتبار الخصوصي. ثم إن مبادءها تعلو بالبعد الإنساني من منظور وحدة الجنس البشري وتساويه في الآدمية وفي المقومات التي تعصم للآدمي الحق الأساسي في الوجود والكينونة والامتيازات؛ ذلك لأن الإسلام يجعل البشر وكافة المخلوقات يعودون في النسب الوجودي والكينوني إلى الله الواحد الأحد، وهذا الاشتراك في الربوبية الأحدية هو الذي يكفل التآخي والتراحم، وهو ما يعطي للحياة معنى التكافل والمسؤولية المشتركة.

لا ريب أن الحياة خلقت للتمحيص، وهي معرضة لاستشراء أدواء الأنانية والتغالب والتظالم، وقد قرر القرآن أن الظلم والعدوان والتدني والغيرة الشرسة غرائز مجبولة في النفس الإنسانية منذ البدء، وقصة هابيل وقابيل تلخص هذا المغزى وتشخصه، لذا كانت البشرية مهدَّدة بالتوحل في رماد التدافع والاقتتال والتمحيص الذي يعرض للإنسان كلما فرَّط في وصايا الله، وحاد عن كمال الفطرة.

إن الإسلام كتاب يقترح على البشرية تعاليم يغدو بها الترابط الإنساني حقيقة قابلة للتجسيد متى التفتت المجتمعات للمبادئ التي ينشدها الإسلام.

في هذا الاتجاه تندرج الدعوة الخدمية التي أعد الأستاذ الداعية كولن هياكلها، وأتم دستورها، ولا يفتأ ينشطها عبر شبكات متوسعة من المجاميع البشرية، والمؤسسات الإنشائية، والائتلافات التعميرية، والتعاليم التوجيهية، والتوسلات الدعائية للحراك الخدمي بالتوفيق والذهاب في النماء إلى الغاية التي يتاح فيها للعالمين تلقي الكتاب المبين.

وجّه كولن الأمة -من خلال الطلائع- إلى فقه صناعة المدنية المؤمنة على أسس من الدعوة إلى الله... لأول مرة في تاريخ المسلمين، تتداعى الفئات والكتائب، وتتزايد عددًا وعدة، وتتواثق على الذهاب بالدعوة والتبليغ إلى أبعد الآماد.

نهضت الحفنة من طلاب كولن بلا رصيد، إلا زادًا من الروح، وانضم إليهم رعيل من الميامين، أقبلوا بما ملكت أيديهم، وغالبوا النفس، وأجروا جراحة قاسية

تندرج الدعوة الخدمية التي أعد الأستاذ الداعية كولن هياكلها وأتم دستورها، ولا يفتأ ينشطها عبر شبكات متوسعة من المجاميع البشرية، والمؤسسات الإنشائية، والائتلافات التعميرية، والتعاليم التوجيهية، والتوسلات الدعائية للحراك الخدمي، بالتوفيق والذهاب في النماء إلى الغاية التي يتاح فيها للعالمين تلقي الكتاب المبين.

على مناطق الشح من أرواحهم، ثم التفتوا إلى الله يحمدونه أن جعلهم يلتحقون بمنزلة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۞ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(الانشراح:١-٥). كم هو عجيب أمر أولئك الأفراد الذين استيقظوا صبحًا على نية بذل العُشر من رأسمالهم للخدمة، وتدرجوا عبر ساعات النهار يرفعون تلك النسبة من البذل، حتى إذا كان وقت العشاء، وجلسوا في مجلس الهمة، رأوا أنفسهم يفرغون الوفاض حتى القاع، ويخرجون وقد ارتدوا إلى حال الفقر، لكنهم ما يئسوا وما قنطوا وما أحسوا بفداحة ما صنعوا، لأن النفس كانت قد تلقنت تعاليم البذل من القرآن، ولأنها كانت أجرت عملية استئصال في منطقة الشح من النفس، فلذا استقبلت واقعها الجديد، حيث فرغت اليد وخلا الجيب بكل الطمأنينة التي ينتفي معها كل قلق وكل ضغط، وينعدم كل ندم ووجل من الخصاصة.

تجرّدوا من المادة دفعة واحدة، وآمنوا أن الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا[٥]، فهم إذن بعد مجلس الهمة أضحوا طيرًا، يضمن الله لهم اللقمة على أي نحو، ولا يعنيهم بعدئذٍ اعتبار للثروة أو للتمول والسيولة.

انتقلت التجربة إلى البلاد الشقيقة، فللعرف سريان وإن كان مشؤومًا، فكيف وهو كله سعد وخيرية وبركات. بعض تقربوا من الخدمة تيمُّنًا، وبعض استئناسًا وتواصلاً مع أربابها، واستلهامًا لأساليبها في الإخصاب والزكاوة؛ فالتوفيقات تلوح من كل ملمح في المشاريع، وتجتذب أهل الحمية والكسب والمتعطشين لملء ذات اليد.

بدأت خطوات الانخراط تَترى على بطء، لكنها لا

تفتأ تَعِدُ بالإدرار، فأول السيل قطر، والجلائل تبدأ دائمًا نُقطية، نادرة، يبدؤها أفراد تسكنهم اندفاعة الحرقة إلى الكمال، ورغبة التحرر من ضغط الكزازة، فيفرغون ما في الجعبة بذلاً وعطاء، مختارين طريق الكدح ومداومة العطاء والاحتساب بما يصيبهم من حظ، لا يسوؤهم أن تخلو أيديهم من المال المبارك، وأن يتحملوا أعباء الكد وتحمُّل العيش الكفيف، ثم يهش لهم الحظ، ويذللون الصعاب، ثم ترتد إليهم الحياة طائعة منقادة، وهنا يلتحق اللاحقون، وتتكاثر الأيدي للمبايعة على البذل، ويفشو الخير وتعم المحامد.

المدرسة الأرقمية

أول مدرسة أمها القرآنيون تأسست على يد النبي ﷺ في أول البعثة، واتسم نظام ارتيادها بالسرية والحذر، هي مدرسة الأرقم، "ولم تكن إلا دويرة ضيقة، جدرانها ملأى بالثقوب، وفي سقفها تُسَدِّي الرتيلاءُ أعشاشها"... فيها تكاملت أول جماعة اشتُحِنت على يد الرسول ﷺ بطاقة القرآن؛ كانوا يدخلون رحابها ولم تتمصمص أوعيتهم الباطنية من سُعْر الكفر، فإذا هم بعد جلسة أو جلستين في حضرة النبي ﷺ يتشللون، ويغدون يلمعون كأنما هم قوارير سكب عليها ماء ثجاج، فجددها وأعاد لها طغرائيتها الأولى، أو كأنما هي تخرج من غلافها التَّوَّ.

وكانت الصُّفَّةُ مدرسةً أخرى ذات طابع عمومي، مفتوحة على التعليم المتواصل، لا تنقضي حلقاتها، تتوزع مرتاديها مجالس تحفيظ القرآن، وحلقات المذاكرة وفهْم وصايا الرسول ﷺ، ومضارب الخلوة والتوبة، أو معاكف التأمل والتدبر في معاني ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢) و﴿قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ﴾(الإخلاص:١).

وجردت الهجرة أصحابه ﷺ من كل ما يملكون، إذ خرجوا متسلّلين، لا يتوفرون حتى على الراكوبة، يقطعون المفاوز لحاقًا أو استباقًا إلى دار الهجرة حيث شاء الرسول ﷺ أن يبني نواة لمدنية فاضلة تكون كعبة أخرى تهوى إلى بركاتها وتعاليمها أفئدةُ العالمين.

شَلَّلَت الهجرةُ قلوبَ الصحابة وأعادت تطهيرهم، وستتوالى عليهم التمحيصات المُورِّثَةُ لليقين؛ بدر، وأحد، وفاجعة انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ومثيلاتها، فتكون كل واقعة تمحيصًا للمؤمنين، وتزكية لهم، وتثبيتًا لأقدامهم على الموثق. ذلك لأن الله شاء لهذا الدين أن ينتهي إلى العالمين على يد أطهار عركتهم الامتحانات وعجمت عودهم وهم يشدون على الراية، فما زادتهم الابتلاءات إلا جذرية في الثبات، وصميمية في الصمود على الحق والقرآن. لقد جازوا أنواع الإنفاق الشاقة، فما وهنوا وما استكانوا، إلى أن انتهوا بالإسلام إلى الشاطئ حيث انتصب عقيدة الحق التي لا تبلى، والتي ستكون -حتمًا- ملاذًا للعالمين، يأوي إليها البشر، بعد أن تترداهم طويلاً الضلالاتُ، وتحطمهم الجهالاتُ.

المال حاضن الدعوة وسندٌ لخطواتها

قيّض الله أنفارًا منذ البدء للدعوة أن يكونوا سندها الحسي، وداعمها العملي، من بين رجال المال والأعمال، أولئك الطليعة الموسرون الذين احتضنوا الدعوة ساعة المخاض، وتعهدوها وهي في القماط، ثم صاحبوها وهي تحبو، إلى أن وقفت ودبت على قدم.

كانت أمّنا خديجة ؓ أولى من طرح الثروة في حجر محمد ﷺ، وأطلقت له اليد في الإنفاق، وزادت على ذلك -حين يجب- الرأي والمشورة والتأييد في القرار... ماتت أمّنا خديجة وقد رأت مالها قد استنفد في الخدمة، وألفت نفسها في أخريات حياتها تعيش الإِعواز والشوق إلى اللقمة الجافة، هي التي قضت حياتها تضع يدها على مصادر المال، وتدير التوريد والاستيراد، تغدو قوافلها بالبضائع وتروح بين اليمن وعُمان والشام، تستجلب الثروة إلى سيدة مكة وعميدة تجارها خديجة بنْت خُوَيلد.

كان سيدنا أبو بكر ؓ ثاني اثنين يَهُبُّ إلى التصديق، ويسارع إلى وهْب ثروته إلى الرسول ﷺ، لم يخامره في كل أطوار الدعوة شك أو استرابة، ولم يشب عزيمته فتور أو وهن، كأنما وحي الرسالة كان يتنزل عليه هو، وكأنما وقائع الغيب التي كان النبي يخبر عنها، كانت تتجلى له (سيدنا أبي بكر ؓ) عيانًا، وتتكشف له بيانًا؛ ذلك لأن الله ربط بين الرجلين بحميمية وصحبة توطدت على السمو الفذ، إذ لم ير سيدنا أبو بكر من صاحبه (المصطفى ﷺ) طيلة ارتفاقهما قبل الدعوة إلا ما

hiramagazine.com

يبهر ويجعل الرفيق يوقن عميق اليقين بأنه إزاء مخلوق ليس على النَّجْر البشري الذي ألفه أو يتخيل وجوده... لذا كان أبو بكر ﷺ نموذجًا للمثالية في سيرته الإيمانية سواء في عهد الصحبة والدعوة، أم بعد وفاة الرسول ﷺ، وما أعقب ذلك الحدث الجلل من تمحيصات أجلت الألماس من النحاس.

إن من يتأمل الاستجابة التي كانت من أبي بكر وهو يتلقى خطبة النبي ﷺ للصغيرة عائشة، يدرك أن الصلة بين النبي وصاحبه الأوفى كانت تجاوزت خطوط الاعتياد، لأن الصاحب كان قد خبر في صاحبه من الآيات البينات ما بات يضعه في عينه فوق كل استرابة أو تساؤل.

مات أبو بكر ﷺ وهو يتسبب لرزقه في الأسواق، بعد أن أنفق ثروته دون حساب، وكان سهمه في كل اكتتاب هو الأجزل والأوفى.

ومثله كان سيدنا عثمان ﷺ، إذ كانت ثروته في حياة الرسول ﷺ هي الرصيد المذخور لدفع التكاليف الكبرى، لا غرابة أن نرى الأستاذ كولن يؤكد أن ما شاع عن إنفاق سيدنا عثمان ﷺ على قرابته وهو خليفة، إنما كان إنفاقًا من صميم ثروته التي لم يفرق يومًا بينها وبين ما في خزينة مال المسلمين، ولم تكن الخزينة تحوي شيئًا في عهد الرسول ﷺ، لأن ريع الفيء والزكاة كان يُصَبُّ لأصحابه في الحين، إنما أداء كلفة المصاريف الكبرى كلما طرأت، كان ينهض بها عثمان ﷺ ونظراؤه من ذوي اليسار، سواء في تغطية حاجة الفقراء الدائمة، أم في تجهيز الحملات العسكرية وتغطية مقتضيات الدعوة حين الضرورة.

ولقد أمكن للرسول ﷺ أن ينشئ السوق في دار الهجرة، ويضبط الأسوام (والعملات)، وأن يُحيِّدَ الحركة اليهودية في المدينة، ويقلص منها على مستوى مراكز التجارة في الجزيرة العربية، وأن يحرر التجارة من نفوذهم، ويعطي للعملة السعر القار بتحريم الربا... الأمر الذي جعل "بُورْصة" ذلك الزمان تسير على التقييم الإسلامي، بعد أن ظلّت دهورًا في يد الربويين اليهود، ويترتب عنها توسع اقتصادي عم المجتمع الإسلامي،

يجمع اليوم مشروع النهضة كما يقوده كولن، أركان الخدمة بأطرافها المتكونة من خرّيجي المدارس، ومن المموّلين أهل الخير، ومن حولهما جموع المحبّين ممن يناصرون النهج، كل حسب دوره وأهليته، الواعظ يدلل عليهم ليجد الخيّرون السبيل للسير معهم بالدعاء وبذل المحبة في الله، والكتاب أهل الإعلام يحلّلون الفلسفة، ويجلّون مقاصدها القرآنية، ويقربون المعاني الكامنة في أفكارها إلى الناس.

حراء

ومكَّن للحراك التجاري أن يدر الرخاء على الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها، ممهّدًا لفرْشَةِ ازدهار شملت القارات من خلال شمول النظام التداولي الإسلامي للأرجاء الحيوية من العالم القديم.

لقد تم للرسول ﷺ كل ذلك التوفيق، لأن الله أوجد في الأمة أثرياء ورجال أعمال موفّقين إلى الخير وحسن العاقبة، من أمثال سيدنا ابن عوف ﷺ ومَن احتذاهم في لاحق الأعصار، يعرفون كيف يسوسون الأسعار، وكيف يروّجون للحلال، وكيف يديرون الثروة والمال في خدمة الدعوة، محقّقين بالفعل ما قرره القرآن في شأنهم من كونهم مستَخلفين في مال الله، إذ هم المعنيون بهذا النداء الذي خص الله به أهل الحظوة: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾(الحديد:٧).

إن منهج الأستاذ فتح الله كولن اليوم، وهو ينتدب أهل الثروة، إنما يريد أن يحتذي في مشروعه الإنهاضي خطى الرسول ﷺ، ولأنه واثق من أن حب الخير والإحسان جبلة في الناس متى ما توفرت لهم أسباب الانتفاض على أنفسهم، والتمرد على شيطان النفس الذي يقيّد الروح ويعيقها عن التجنيح في معارج الكمال.

ما ظفر أبو لهب، الغنيُّ القريب من الرسول ﷺ، وامرأته الحسيبة النسيبة، إلا بالذكر السيئ، والصورة المسفة والرمزية الشائهة، عكس ما نال الصادقون الأبرار الذين أفرغوا الجيوب، وأخلَوْا الأيدي من الثروة، تقربوا بها إلى الله المانح الباذل المغني المفقر.

hiramagazine.com

يُشَيِّدُ الرجلُ الدنيوي الصروحَ، ويُعلي البروجَ، ويؤثثها بكل زينة تَفنَّنَ في ابتكارها شياطينُ أهل الدنيا الغَرور، ثم يقف حيالها، فينتفخ ضحوةً زهْوًا وخُيَلاء، وسرعان ما يسري إليه فتورُ التعودِ على الوهج، ثم تتراكم السآمة في نفسه، فيزداد جموحه إلى تجديد الوهج، وإلى تجريب طبوع الرفث، وما أكثر القاتل من تلك الطبوع، ثم تتصرم السنون والعقود، وتحل الشيخوخة وقد حفيت الأضراس وصدئت المفاصل في غير ما يكرم ويشرف، وكم هي خسيسة شهوات الدنيا إذا لم نسْمُ بها، فجورٌ ومقاصف ورهاناتٌ قمارية أو تنافسية أو تنازعية تكاثرية، وكلها مفاتن تطحن العبد وتتعرَّقُه دونما طائل يخلده ويستبقي ذكره، وأي أغنياء الأرض من أهل ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(التكاثر:١) جلس إلى طعامه يومًا خليَّ الذهن من الحساب والتوتر؟!

يجمع اليوم مشروع النهضة كما يقوده كولن أركان الخدمة بأطرافها المتكونة من خرّيجي المدارس، ومن المموّلين أهل الخير، ومن حولهما جموع المحبّين ممن يناصرون النهج، كل حسب دوره وأهليته، الواعظ يدلل عليهم ليجد الخيرون السبيل للسير معهم بالدعاء وبذل المحبة في الله، والكتاب أهل الإعلام يحلّلون الفلسفة، ويجلّون مقاصدها القرآنية، ويقربون المعاني الكامنة في أفكارها إلى الناس... والنيرون أهل الإيمان ينشرون محامدها أينما حلّوا، رابطين الجهد كما يتجسد على أرض الواقع اليوم، بما سلف من الجهاد المحمّدي الذي أرسته الدعوة في عهد سيدنا محمد ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين ﷺ، وكما احتذتْه أعمالُ التابعين من الأسلاف عبر العصور.

لا حاجة للحركة الخِدمية في الدعاية الإشهارية إلا ما كان خالصًا لله، صادقًا في الإدلال على أبعادها البنائية والإحيائية؛ ذلك لأن الأمة -التي لم تستوف بَعْدُ ترابطَها، نتيجة قرون من التفكك المترتب عن عهود الانحطاط ثم عن عهود الاستعمار- ما زالت في حاجة إلى أن تتلاقى على المشاريع المشتركة، بحيث تصب الإحواض والجهود مجتمعة، فتخلق النهر الذي يشق الأرض ويعمر الصحراء.

ولأن الدعوة إلى الله تقتضي إعادة تشكيل الأمة الناهضة، فلذا تنشد دعوة الخدمة أسباب التوسع، فهي تتفتح لكافة أهل الخير ولجماعات أهل البركة واليُمْن أن تلتحق بالله والرسول، فَتحْيَا القرآن جهودًا فعالة، ومساعي بنّاءة، وبرامج خلاقة.

لا ريب أن الدعوة إلى الله دعوة عالمية، وأن تبليغ الرسالة إلى العالمين هو الشرط الوجودي للمسلم، لذا تَوَجَّبَ على المسلمين أن ينهجوا إلى الدعوة بفكر العصر وبيداغوجيته... ولمَّا كانت المهمة جسيمة ومحفوفة بالصعاب، كان التكاثر النوعي والطلائعية النيرة من وسائل الخدمة ومن عوامل التقوي والقدرة على الحراك.

يرى كولن أن المحركات الفاعلة عديدة لاستحداث البعثة، لكن الاحتياط من الطليعة المؤمنة، أهل الحرقة والعشق والدأب الذي لا ينقطع، يأتي في مقدمة العوامل التي تنهض بالخدمة؛ فأهل الدينامية والموثق يتموقعون في رأس المقدمة، لا ينحرف الخط بمسارهم، ولا يَميلُ نظرُهم عن الغاية العظمى، ولا بصيرتهم عن كتاب الله وتعاليم رسول الله، ولا يحيدون عن سيرة الإمام الملهم مجدد العصر، الذي ما اقتنى قرشًا ولا فرشًا، ولا ملك نشبًا ولا كسبًا... عاهدوا الله على خدمة الإيمان، واختاروا الأبقى والأدْوم، وصمّموا على أن تكون جماجمهم جسرًا تعبُره الأجيال المحمدية ومعها الإنسانية إلى غد إسلامي رقراق بالفضائل والخيرات.

إن طليعة الخدمة هي القاطرة التي تجر اليوم عربات الخدمة، وتوصل رسالة الإسلام، وتبث فكر النهضة والتجدد في أقاليم الأرض وأرجاء الكون.

إنهم أهل العشق الذين نموا في كنف الترشيد، وتخرجوا بيد الإمام فتح الله على منهج القرآن، الذين ينتشرون اليوم، يزرعون الخدمة في أقطار الأرض، ويُعرِّفون العالمين بحقيقة الإسلام دين الناس كافة.

كما أن من الطليعة فئاتُ البذل ممن استقطبتهم الدعوة إلى الله، فأصاخوا السمع، ثم تحركوا صوب الداعي، ثم افترشوا الرصيف يتابعون شهيقه، ثم حدث لهم الزلزال، فتخرب كيانهم من الداخل، وساروا ذاهلين

hiramagazine.com

عن نفسهم لا يدرون من حقيقتهم شيئًا، ثم أشرق من طيات الادلهمام بصيصُ نورٍ، سرى يعمر الخرابات الداخلية ويجددها على أسس من تقوى ودعائم من يقين. هنالك نفضوا الأيدي وشدوا الأحزمة، وأعلنوا تجنيديتهم، مقدمين ما بين أيديهم وما خلفهم من مكسب، قد استحالت نظرتهم إلى الكون وإلى النفائس، فلكأنهم خلقوا خلقًا جديدًا... باتوا ينظرون من نفس الكوة البهيجة التي نظر منها الأطهار، باتوا يسيحون حيثما ولوا الأبصار في ممالك الخلد، فكأن مَسَّةً من الفردوس نفذت إليهم، فأصارتهم جنسًا آخر مبرأ من كل مخازي الأنانية والشح والانغماس والتهافت.

للفئات والأوساط والجماهير دَورها في تبنّي الخدمة من خلال تفهم مقاصدها الإحسانية الخالصة لوجه الله، والانخراط -إن أمكن- في برامجها بروح لا يشوبها طمع في محظوظية دنيوية، ولا يمازجها مطمح في سمعة أو جاه أو رتبة؛ إذ من أساسيات المصداقية في الإيمان -كما يقول كولن- أن يحسب المسلم حساب فائدة الإسلام قبل نيل الرتبة... إن هذه القبْلية تعني الامّحاء، إذ لا تَقدّم للفرد على السلم العروجي إلا بالامّحاء والتجرد التام من الغرَضية، ولا نهوض للأمة ومجتمعاتها على نهج الحق واستعادة حرارة الإيمان إلا بالتنصل الكامل عن الأهواء والضلالات، والتحزب لله وحده.

يسري التأثر إلى الجماهير أينما حل فرسان الخدمة، فمدارسها لا تبرح أن تحقق التميز، وتضحى مطمح الأهالي في احتياز مقعد للأبناء بها، ولأن الدعوة تتم على أيدي رجال الخدمة ميدانيًّا من خلال التواصل المباشر، والقيام بزيارات إلى الديار التركية، حيث يتاح للزائرين من كل صوب أن يطلعوا على المنجزات والمفخرات التربوية والاجتماعية والصحية والثقافية والإعلامية والعلمية وسواها من أصناف الحقول البنائية... ترتدّ الوفود إلى أوطانها قد تهيأت إلى العطاء، وما أكثر ما تفتّحت النفوس أمام ما ترى من جليل أعمال المحسنين للعطاء، وما أكثر ما بادر أهل العزم إلى حبس الأراضي والتعهد بإقامة العمارة المناسبة عليها احتسابًا لله... كثيرون هم الذين واثقوا الله في السرّ

يقرأ كولن النص القرآني بروح النهضة والتعمير، ويستمد من روحية تعاليمه الربانية ما يبني الإنسان العامل، ويحشد الجماعة المجندة، ويبرز الطائفة المنتخبة الظاهرة على الحق، التي ترتد إليها أنظار العالمين فترى الفتوح تترى على يديها، وتتلقى الترشيدات منها، فتقبل على ما تحمل من رسالة، تحضنها وتعتنقها، وتضحى جزءًا مليًّا فيها.

حراء

أو العلَن على مشاطرة الخدمة محاصيلهم من الدخل والكسب، وهكذا يفلح مشروع الأستاذ كولن في جعل أهل البصائر يهتدون إلى طرق من الخير تعمر الأرض اليباب، وتمكن للنهضة أن تكسب من الأسباب المادية والروحية ما يعجّل بعَودتها إلى ديار الإسلام.

مساحة الخير تبدأ صغيرة ثم قد تتقلص وتتراجع؛ فالشيطان رصّاد لكل بادرة إحسان، لكن الوعي وتتابع العمل وتواصل التنبيهات والتحفيزات التي ينهض بها رجال الخدمة في كافة أقطار الأمة، يجعل تلك المساحة تتّسع بتدرج وريث، لتعرف التسارع متى ما تناهى العلم بالمشروع إلى أولي الألباب وأهل الجنة.

ليس كل ذي مال مؤهّلاً لأن يدخل صفّ الخدمة، فما أكثر ما رأينا رجال أعمال يُدعَوْن إلى مجالس تنوير، فما يكاد المتحدث يطرق باب الإحسان والتطوع إلى الخير حتى تلقاهم فرّوا من المجلس فرار الخزي.

لا يقبض أهل الخدمة العاملون خارج تركيا مال محسني الأوطان التي يطرقونها، ولا يتصرفون فيه إلا إذا أوكلوا به، فإنما دعوتهم لأهل كل بلد أن يبنوا المدارس والداخليات، وأن يقيموا المستشفيات والمصليات، وأن يفتتحوا الأسواق والمؤسسات الكسبية، ليكون الريع لصالح العباد، ولتتوسع المرافق الخدمية وتتوطد نِعَم الله أمام الفئات، ولتتجند الإرادات، وتتوجه إلى ترقية الإيمان وتبليغ رسالة الله لأهل الأرض في هذا الزمن الوبيء.

من جهتها هيئةُ الخدمةِ تتطلع إلى أن تؤسس مرافق التكوين العلمي والرعاية الاجتماعية والثقافية في بلاد الله كافة وبلاد المسلمين على وجه الخصوص... وإذا كان هناك من الدول ما فتح الباب في وجه الخدمة

وأتاح لها أن تنشئ وتؤسس، فإن هناك بلادًا أخرى تواصل الإغضاء عن الدعوات المتكررة الموجهة إليها من أجل فتح باب العمل الخدمي والترخيص له ضمن شروط التقيد بقانون تلك الدول.

الأنظمة القاصرة ترى أن الانغلاق يطيل أعمارها، وهو اعتقاد بليد، والدليل ما نراه من أمر الصين وكوبا، فالصين نفسها التي كانت مثالاً في مجال التحجب والامتناع عن المؤثرات، ها هي اليوم تسير على طريق الانغماس التغربي رغم التحوطات الكبرى التي يتخذها أساطين نظامها القومي الشيوعي سنة الله في الأرض، ولن تنجو أمة أو زمرة أو نظام من طائلة التحلل، إلا تلك التي تتوفق إلى هضم الواردات وتأصيلها وإضفاء الروح المحلية عليها.

وكان الأولى بالبلاد المنغلقة أن توجد العقلية الفعالة التي تتلقى الأفكار والمناهج الواردة، فتكيفها وتدمجها في الوجهة الوطنية، فتكون تقوية ونفعًا لها.

الضغوط الخارجية في حقل الأفكار والقيم تطرق الحدود اليوم بكل قوة وعناد، وكل ما تسد الأنظمة الباب في وجهه، لا ينفذ من النافذة بل ينزل من السماء، تتلقاه الأسطح والأفنية والرحاب والأصعدة، وإن مشاريع الخدمة التي لا تفتأ تقيم لها أوطئة ومواطئ قدم في مختلف البلاد، ستشق الأنفاق، وتجسِّر الأجواء وتمد الأسلاك والقنوات مع كل أرض منغلقة، وستجد الأنظمة نفسها أمام ظاهرة خيرية لا سبيل إلى الاعتراض عليها.

لا ننس أن تأدية حق الله لا يتأتى إلا لأهل الله ممن يؤسسون كسبهم على الحلال، ولذا فإن الشيطان أقرب إلى نفس صاحب المال المنهوب، والجهد الزائف والثروة المربية. فالذين نراهم عزفوا عن الاستجابة إلى مجالس التزكية، وفزعوا منها وغادروها كأنما سمعوا ما يسيء لهم ويؤذيهم إنما هم أشقياء، يستعبدهم الشيطان ويرغم أنوفهم في تراب المادة، فلا يزيدهم ذلك إلا شقاء وغفلة.

كثيرون في عهد العولمة والدعوة إلى الاستثمار سارعوا إلى الاقتراض من بنوك الربا، وانخرطوا ينمون ثروة بروح هوجاء، لا تراهن إلا على الكسب، تتحايل على الظروف، ولا تتردد على ارتكاب أنواع الإفك، فهي كما طابت نفسًا بنيل مال الربا، تعمل بذات الظمإ لتمريره في قنوات من التزوير والخيانة والتنصل من موثق استرداده، متواطئة في كثير من الأحيان مع الأجهزة البنكية الحكومية التي باتت تحترف مهام التزوير، وتحذق طرق المسح والعتق من الدين، لكون موظفيها مرتشين، يشاركون في تحصيل القروض ومحوها بمقابل.

هؤلاء الشريرون لا يحملون في ذواتهم ذرة من خير، فلذا تكون دعوتهم إلى مجالس الهمّة ضربًا من النفخ في الرماد الذي لا يجني فاعله إلا تغبير وجهه وتشويه طلعته.

عكسهم الأريحيون الذين يسكنهم حب الخير، فإنهم يجدون في التجند وراء مشاريع الاحتساب ما يبدل حياتهم، ويرتفع بهم إلى صعيد من الرضى عالٍ؛ إذ أنهم كلما أعطوا وبذلوا، يستشعرون الوجود الحق، ويحسون أن حياتهم باتت تمتلك المعنى الذي ظلت تبحث عنه من قبل أن تهتدي إلى طريق الخدمة.

وتسمع بمآثرهم، فتتوقع أن ترى رجالاً على طراز بدري، لكنك تلتقيهم فلا ترى إلا أناسًا في تمام البساطة، بل ترى أفرادًا يجللهم الامّحاء، فكأنهم ما أنفقوا وما بذلوا..! وتعلم أنهم يزاولون العمل الربحي، فلا ترى عليهم أثرًا لتوتر ولا انشغالاً بمواعيد... يتصرفون في إدارة حياتهم على إيقاع الصلاة... يجنحون للصمت فلكأنهم في قنوت دائم، تتفتح قلوبهم للأذكار وسماع المخشعات... يبدأون نهارهم بقراءة الرسائل الإيمانية أو حضور مجالسها، وحين يتصدون للمهام تراهم يباشرونها في وثبات لا تزيغ عن السكينة... فالبركة تشملهم حين الحركة وحين السكون.

إنهم يعمرون بواطنهم -نتيجة ما يداومون على وضعه في يد الله من بذل- بحبور ليس وليد اللحظة، ولا هو سريع الانطفاء... حبور يستوطنهم ويلازم أعماقهم في أحوال اليقظة والمنام، الحل والترحال... لا يساومون بضاعة أو عقارًا أو معطى كسبيًّا آخر إلا وسبق إلى أذهانهم حق الله فيه... فهم من ثمة يحوزون

hiramagazine.com

شرط البركة والجزاء سواء أتمت الصفقة أم لم تتم، بل سواء أو كسبوا منها أو لم يكسبوا؛ لأن الضمير انصرف في المنطلق إلى تحقيق مرضاة الله، فهم من ثمة جذلين الجذل الباطني الدائم الذي اكتسبوه ونمته فيهم روحية الإحسان والاحتساب.

من المحسن البياني إلى المحسن البنائي

القرآن غادر محطة التفعيل الدلالي التي طالما مارسها المفسرون عليه، إلى محطة الفقه التعميري الذي اقتضته بواعث الاستفاقة واستعادة الدور والابتعاد عن موقع الذيلية الذي بوأنا فيه سوء فهمنا لمقاصد ديننا، وخطؤنا في التعامل مع فحوى كتابنا وسنة رسولنا ﷺ.

وإذا كان "عبده" -ومن قبله الأفغاني والأمير عبد القادر- يُعَدّون في طليعة من سعى إلى التحلحل بالدلالة القرآنية عن محطة الجمود، بحيث عملوا على استشراف شيء من أبعادها الدنيوية، بعد أن ظلت تكرارًا مولعًا بالغيبيات والقدريات التي أرشد القرآنُ نفسه المسلمين إلى تجاوز التركيز عليها في مواطن عدة، توجيهًا للعقل الإسلامي أن يأخذ بشرطي الإسلام الكامل وهما الإيمان المقرون بالعمل الصالح، أي بالتقوى وبالتعمير؛ فقد بيَّن المولى في كتابه من خلال قوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(الإسراء:٨٥)، كيف يصرف المسلم ذهنه عما هو خارج نطاق العقل، أو عما يدخل في إطار علم الله، إلى ما يندرج ضمن دائرة العقل فينشده، مسلّحًا بالعبادة والعبودية التي ترجع كل توفيقاتها إلى الله ﷻ.

بل إن قصة التساؤل عن عدد أصحاب الكهف بقيت معلقة، ولم يبينها القرآن رغم أن الموقف كان سجاليًّا، وما ذلك إلا لأن الإسلام شاء أن يرسم بيداغوجيته الأدائية/الترشيدية الوجه المثمرة الذي على العقل المسلم أن يشتغل به وعليه، فلا تستهلكه الافتراضات التي تخرج عن علم الأرض وعلم الإنسان إلى علم السماء وعلم الله.

لا ريب أن القرآن اليوم يتخطى المشاغل البيانية والبلاغية التي استغرقته دهورًا، إلى مشاغل البناء والتعمير بُعديه الإنساني والمادي.

لقد رأينا الأستاذ كولن يمارس التفسير، لكنه تفسير نقطي، يحتلب من ضرع الآية ما يرمم به نفسية المسلم المأزوم المهزوم، ويعيد إليه التماسك والعزة.

فصورة محسّناتية مثل التي قرأ بها فقيه إعجازي هو عبد القاهر الجرجاني، قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾(مريم:٤)، وهو أن الإعجاز حصل في هذه الآية جراء تعاقب حركة الشيب حين يدب في الرأس، مع حركة النار حين تسري في الهشيم، وإن السقفية التي احتلّتها هذه التخريجة البلاغية الجرجانية عند سائر أجيال البيانيين والمفسرين وعلماء الإعجاز، قد باتت ذهنية العصر الراهن تتجاوزها، لا لعدم كفايتها في التحليل التذوقي، ولكن لأن القصد التعميري الملح اليوم، يستوجب أن تتفتق المعاني القرآنية عن أبعاد أخرى تكمن فيها، ومرامي أجَدَّ تحتويها.

لقد رأينا الأستاذ كولن يمارس التفسير، لكنه تفسير نقطي، يحتلب من ضرع الآية ما يرمم به نفسية المسلم المأزوم المهزوم، ويعيد إليه التماسك والعزة.

وإن استلهام طريقة الأستاذ كولن في التفسير، يجعلك تتوجه بمعنى آية "اشتعال الرأس" السالفة، إلى مجالي أخرى قريبة من الذهن، وأكثر صلة بواقع المسلم الحياتي، فإن المسخ المدني لحضارة لائكية قد بات يكتنف المسلم ويلفه في شرنقة من الغفلة، بحيث بات يعيش مفتونًا، نهبًا لضغوط العيش والجري وراء المستهلكات، فلا يعبأ الفرد إلا وقد جلله الشيب وطواه الهرم، كل ذلك والسجل فارغ من الحسنات، طافح بالسيئات، فلا سانحة للعودة إلى الفتوة وتجديد القوة لشق طريق ملؤه الإيمان، بدل طريق الغفلة والجحود والإفلاس الذي سلخ فيه العمر.

بل إن اشتعال النار في الرأس هو إيحاء إلى الرماد، وإلى نفاد الذخيرة، وإلى انعدام ما يجعل النفس تأنس وتطمئن... ولعمري إن مفهوم "الوهن" و"الهرم" ومشارفة عتبة الهلاك، ليحيل إلى شيخوخة المدنية

hiramagazine.com

التي تعدم الروح، المدَنية العقيم، الغافلة عن الإيمان بالله، والعاملة على غير وفق نواميسه وتعاليمه... كشأن مدَنيتنا اليوم، وإن تورّطنا في أوحالها، بوصفنا أمة تهيأت برسالتها لتكون الشاهد والرائد والمؤطر، قد أحالنا أمة واهنة، عقيمًا، لا وزن لها ولا حرمة، إلا باللواذ من جديد بالخالق، نسأله التوبة، ونستمد منه القدرة والتوفيق في النهوض بالدعوة من جديد، وعلى أسس من التواثق الخالص المكين.

فآية "اشتعال الرأس" هي آية المتاب الذي يتجدد به الميثاق مع الله، والذي به تغادر الأمة مضيق العقم الروحي إلى فسحة الرخاء الحضاري التي يكفلها لها الإيمان والعمل الصالح.

إن منهج كولن في التفسير يرتكز على خطة الغوص تحت السطح، ومجاوزة الإطار الشكلي الحرفي، إلى استنطاق روح الدلالة، واستخراج إيعازاتها التي تفيد في محاصرة الحطة، والدفع بالروح إلى آفاق التجدد والعبودية والاقتدار التاريخي والاعتداد الحضاري.

ويمكننا أن نتحسس الرؤية الكولنية إلى الدلالة من خلال تمثله لـ"اللفظ القرآني"، فهو يرى أن كل كلمة في القرآن هي نافذة إلى الجنة، وإن هذا التمثل يبتعد -حقًّا- بالمفردة القرآنية من حقل التفعيل الافتراضي الغيبي والمحسناتي الذي حاصرها فيه التفسير طيلة القرون، ليتحول بها إلى فضاء التحقق والتجسيد الواقعي، من خلال استكناه معاني تبني الروح وتقوي النفسية المؤمنة، واستشفاف مدلولات تحفز على البناء والتعمير وامتلاك القوة التي يتعزز بها الإيمان الحق.

"الخدمة" تفسير للقرآن

ومما لا ريب فيه أن القرآن الذي لم يستغن عن المفسر حتى في حياة الرسول ﷺ وحياة الخلفاء من بعده، أي خلال العهد الذي كانت فيه العربية لغة المسلمين الأوائل، لن يستغني في كل عصر عن المفسر، لأنه دين مفتوح على العالمين، يدخلونه أفواجًا وأعدادًا، ويقتضي ذلك منهم المرشد والموضح والموجه، أي المفسر (العملي والنصوصي)... فهو من هذا الجانب يُعتبر كتاب الأمّيين بالفعل، إذ كل طارئ عليه يحتاج إلى تعلم أولياته ومبادئه قولاً وفعلاً، عبادة وأخلاقًا... فكما فسّر الرسول ﷺ القرآن للأميين، ظل السلف يواصلون مهمة التفسير، غير أنهم ضيّقوا مجالها، إذ ظلت الحرفية والافتراضية الغيبية والأسطورية الكتابية تطغى على التخريجات القرآنية... الأمر الذي انعزل به القرآن عن الواقع، فلم يعد الموجه المرشد، ثم لبث يتراجع مع الزمن إلى سطحية شكلية وتخويفية نفّرت أكثر مما حبّبت، أبعدت أكثر مما قرّبت.

ينتحي اليوم مشروع الخدمة تفسيرًا عمليًّا للقرآن، فالخدمة نهج يفسر القرآن ميدانيًّا من خلال إحلال الدلالة محلاًّ إنجازيًّا، فكما أن الرسول ﷺ عاش وجعل الصحابة يعيشون القرآن على أرض الواقع، يحدو اليوم كُولَن الطلابَ وأهلَ الهمّة إلى أن يكونوا قرآنيين قولاً وفعلاً؛ فإذا تحدثوا عن التقوى كانوا تقاة بالقوة والفعل، وإذا تحدّثوا عن الفلاح كانوا مفلحين بالقلب والقالب، وإذا تحدثوا عن الموت كانوا أمواتًا بالاحتساب والامحاء والرقابة ونكران الذات وهم أحياء، وإذا اعتكفوا اعتكفوا في قلوبهم، فهم يعيشون في قلاع الروح حتى وهم يسيحون في الأوطان، شاغلهم العمل لله من حيث يحسب الجاهل أنهم يشتغلون لأنفسهم.

إن الخدمة تقرأ التفسير اليوم على أنه النهوض للدعوة والتبليغ بالوسائل المتجاوبة مع العصر، إذ توفير المدرسة كان المشروع الأول للرسول ﷺ في رهان تشكيل الصفوف الأولى للجماعة والأمة، وكذا بناء المصلى والمرفق الاجتماعي والخدماتي، إذ هي وسائل يوفرها الإسلام من خلال جهد المسلمين، يفيد منها ذوو الحاجة، ويطمئن بها الطارئ على الدين، إذ لا يكفي أن نردد أن الإسلام هو دين العالمين ولا ننهض بما يقتضيه منا واجب التهيىء لاستقبال واستقطاب الأفواج التي لن تتردد في الإقبال على الدين الحق متى ما تلقت التحسيس الصحيح.

إن الإسلام منوط بمهمة التبليغ مدى الدهر، فهو الدين المطلق الأحكام، تعاليمه لم تلبّ حاجات مرحلية فحسب، ودلالته فوقية عابرة للعهود، وتخصيصاته تعميمات... ولعل مفتتحات كثير من سوره دالة على هذه

hiramagazine.com

اللازمنية والفوقية المعنوية التي تميز الفحوى القرآني، من حيث صلاحيته لكل زمان ومكان، إن قوله تعالى: ﴿الم﴾، ﴿المر﴾، ﴿المص﴾، ﴿حم﴾، ﴿حم ۞ عسق﴾، ﴿طسم﴾، إلى آخر ما هنالك من البنى اللامعنوية، أو التي معانيها فوق عقلية، يرمز إلى هذا البعد اللازمني الذي يميز القرآن، فما صلح به أول الأمة يصلح به آخرها، وأجَل هذه الآخرية مفتوح لا يعلمه إلا الله.

كما أن تنصيص القرآن على المحورية الكونية من خلال قوله تعالى ﴿أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الأنعام:٩٢)، هو إشعار بالموقع الوسطي الذي شاء الله أن يكون للأمة الوسط، فمن هذه الوسطية تنتشر الأنوار، ويتعدى الإسلام والقرآن الشرط المحلي إلى العالمية، وهو ما تنطلق منه الخدمة، إذ توجهت وجهة عالمية إنسانية كونية.

إن القرآن هو النص الأم، الاستيعابي، الاحتوائي، الذي يعلو ولا يُعلى عليه مهما اطَّرَدَ التطور بالإنسان، وامتدت به الأشواط الحضارية وتعرجت مسالكها.

يقرأ كولن النص القرآني بروح النهضة والتعمير، ويستمد من روحية تعاليمه الربانية ما يبني الإنسان العامل، ويحشد الجماعة المجندة، ويبرز الطائفة المنتخبة الظاهرة على الحق، التي ترتد إليها أنظار العالمين فترى الفتوح تترى على يديها، وتتلقى الترشيدات منها، فتقبل على ما تحمل من رسالة، تحضنها وتعتنقها، وتضحى جزءًا مليًّا فيها.

طالما قرئ القرآن بغرض ترسيخ التزهيد في الحياة، والتنصل من مسؤولية العبودية التي لا يترجمها إلا العمل الصالح الذي يتهيأ به الإنسان لأن يكون من السائرين على ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٦-٧).

مع الخدمة بدأ خيار روحي، توجه فيه المسلم خريج الخدمة إلى العمل بالقرآن عملاً تطبيقيًّا، متجاوزًا الذهنية التي طالما اعتقدت أن القرآن كتاب تهميشي، يحول بين المسلم والحياة.

مع مشروع الخدمة بدأ الأخذ بالقرآن الذي يعمل لأجل الآخرة، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾(التوبة:١٠٥)، وتراجعت الرؤية التي طالما

إن منهج كولن في التفسير يرتكز على خطة الغوص تحت السطح، ومجاوزة الإطار الشكلي، الحرفي، إلى استنطاق روح الدلالة، واستخراج إيعازاتها التي تفيد في محاصرة الحطة، والدفع بالروح إلى آفاق التجدد والعبودية والاقتدار التاريخي والاعتداد الحضاري.

جعلت من القرآن العظيم كتاب التعطل وانتظار الموت ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾(الفرقان:٧٧)، والدعاء عمل وأخذ بالأسباب.

نهج كولن في تفاعله مع القرآن، الطريق الذي كفل له أن يستخلص العدة المفاهيمية والاصطلاحية، فضلاً عن استقراء قوانين الحضارة حياة ومواتًا... واستنبط من سيرة قصص القرآن وشخوصه كما عرضتهم السردية الإعجازية، مدونات لضبط السيرة والسلوك، ومضابط لفقه المقاومة والصبر... ففتْية أهل الكهف مثلاً، رسموا بصمودهم -كما صوره القرآن- الإطار الأمثل للإيمان الثابت، والهجرة إلى الله، واحتضان الموثق، والانبعاث بالعقيدة، من أجل إعادة غرسها وإنماء شجرتها الباسقة تُظل العالمين.

إن القصص القرآني لا يروي وقائع سلفت، وإنما إلى ذلك يلهم الإنسان كيفيات ومناهج لضبط الحياة، وبناء الخطط، واستمداد ما يعين على مغالبة الضغوط، والخروج من العراك بما تحمد به العاقبة، ويكفل سعادة المصير. بل إن القرآن لبث يقدم لنا من المنبهات والموضحات ما لو تعمّقنا معانيه لسعدت حياتنا... وإن حفول القرآن بالعبر ليشمل قصار السور على نحو ما يشمل طوالها؛ فسورة مثل "اللهب"، لم تأت فحسب لتسجل السخط والنقمة الإلهيين على أبي لهب وامرأته الشرّيرة، وإنما جاءت تعرض أيضًا النموذج الأُسري الشقي، وتؤكد مسؤولية المرأة في بناء سعادة الرجل والأسرة أو تدميرها.

وإن سورة مثل "النصر"، لم تأت فحسب للإيعاز للرسول الأعظم ﷺ بدنوّ أجَله، وإنما إلى ذلك أبانت

الكيفية المتّزنة التي ينبغي للمسلم أن يتلقى بها البشائر والنجاحات ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(النصر:٣)... إن مغزى هذه السورة يعيد فضل الإنجازات إلى الخالق، وبذلك يظل الاحتساب هو مبتغى المسلم، دونما طمع أو تطلع إلى انتحال اعتبار يتجاوز نطاق العبدية... إن الآدمي كما يبرزه القرآن كائن عابد، فبالعبادة تَمَّحي العبدية بمعنى الشيئية (البعد عن الله)، وتترسخ العابدية بمعنى المعراجية (القرب من الله).

وإن سورة مثل "الكافرون" لتمثل التوجيه الإلهي الذي يؤكد مبدأ التمايز في عالم معولم، عالم ستزداد اختلاطية أممه، الأمر الذي يقتضي الإبقاء على الفارق الروحي ضمن إطار الاعتراف بالغيرية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٦).

تنفتح الآفاق في وجه رجل الخدمة، فيجوب الأصقاع، ويتعرف على العالمين، مجسدًا في سياحته الخدمية تلك، مستوى من الإيمان ساميًا، بل إنه في تطوافه بين البلاد عاملاً ومؤسسًا ومبلغًا، لينهض بدور تمثيل نبيه ورسوله المصطفى ﷺ المبعوث للناس كافة.

ولا تفتأ البيوت تستقبل أصناف الطلاب من رجال الغد ونسائه، فهي مشاتل تخرّج دفعات العمل الخدمي الدعوي والتعميري المراهن على المستقبل. وينتظر أن تتوسع الاهتمامات الخدمية، فتشمل قطاعات حياتية مهمشة لكنها تعتبر من صميم الفعل الثقافي والتأصيلي العضوي، إن بيوت الخدمة ستضع في اهتمامها مستقبلاً تلبية حاجات لا تزال الأمة مرتهنة فيها لروحية الآخر، المختلف في توجهاته الحضارية والوجودية عن روحية الإسلام... إن تعمير بيوت الطلاب بالعنصر النسوي والرجولي الذي يهتم بالموضة الأصيلة وبالتفصيل اللباسي المنسجم مع أخلاق الإسلام -مثلاً- هو أفق لابد وأن تقتحمه الخدمة، ولابد أن تتشكل المصانع التي تُعوِّم بلاد الإسلام بالتفصيلات المستمدة من أرضيتنا الغنية بالأنماط، والخصيبة من حيث تنوع الأزياء، حتى لا نبقى نعيش العري الذي تمضي في فرضه علينا عقلية التهتك والخنا الغربي، وأخلاقياته السفورية المتهجمة.

ويقال الأمر نفسه عن مجالات الصيدلة وصناعة العلاج، واستغلال الإمكانات التي تتوفر عليها بلاد الإسلام من حيث غنى الطبيعة النباتية، وحفول الأرض بأصيل الأعشاب والبواقل.

لا ننسى حقول التكنولوجيا، فخريجو الجامعات المتزايدو الأعداد، يمكن أن تختلق لهم الخدمة فرص إنشاء المؤسسات والمخابر، حيث يتاح لهم تحقيق عبقرياتهم... إن التعليم الذي ينشده الأستاذ الإمام، هو تعليم يحفز على الإبداع والابتكار، ويستجيب للحاجي والكمالي، ترسيخًا للتمايز الذي يعمق نموذجيتنا القرآنية المتّزنة والمتوازنة.

إن الخدمة مهيأة لأن تغدو نشاطًا تأهيليًّا نوعيًّا، فالعلوم التي تتلقاها الأجيال الراهنة ستعرف التوسع إلى "ما لا تعلمون"، وستعرف التنوع والشمول، بحيث يتحتم على رجال الخدمة أن يصنعوا النماذج الحياتية في كافة شعب الحياة، بدءًا من دور التمثيل والفنون والأذواق، إلى إقامة مؤسسات صناعة السيارة المستقبلية، والطائرة السيارة، ووسائل الاتصال والأدوية واستغلال ما لدينا من قدرات وموارد لا تحصى. وهو ما لبثت كتابات(٦) الداعية كولن تلح عليه. ■

(*) جامعة وهران / الجزائر.

الهوامش

(١) الحقيقة أن حركة فتح بيوت الطلبة وتوفير التأطير لهم بدأ في ستينات القرن الماضي، حين اكترى الأستاذ فتح الله وأفراد من المحسنين أول بيت طلابي بمدينة إِزْمِير، استقر فيه عدد من الطلبة المحتاجين إلى الإيواء. فكانت تلك المبادرة فاتحة خير وانطلاقة ميمونة في مجال إرساء مشاريع الخدمة.

(٢) البوسنة، أفغانستان، الصومال، الشيشان وغيرها.

(٣) أي المشتغل بثقافة الروح وبالرياضة السلوكية.

(٤) أي اتخذها بُرْجَه العاجي الذي ينزله فرارا من ضغوط الحياة.

(٥) روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا".

(٦) انظر: كتاب "ونحن نقيم صرح الروح"، وكتاب "ونحن نبْني حضارتنا" للأستاذ فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

hiramagazine.com

أ.د. خالد الصمدي*

كيف نبني حضارتنا بقيم تدبير الاختلاف

إن البحث عن الصواب حيث يكون، والأخذ بالحكمة ولو من فم المخالف، واعتبار المنتوج العلمي البشري مجالاً للبحث والاختيار في ضوء مقاصد الإسلام وغاياته الكبرى التي تستدمج كل اجتهاد إيجابي نافع، هو "المسلك القويم".

حراء

و"ونحن نبني حضارتنا"[1]... تلك العبارة الخالدة الجامعة التي أضحى العالم اليوم في حاجة ماسة إلى فهمها، واستيعاب مختلف أبعادها، والرؤية التي شغلت بال المفكرين والمصلحين الساعين إلى خير البشرية من مختلف الأمم والشعوب على مر التاريخ. فما عبارة "نحن" التي تتصدرها إلا دعوة إلى إحياء الضمير الإنساني الجمعي الذي يسعى إلى توطيد قيم التعايش والتساكن باستثمار إيجابيات التنوع والاختلاف... وما حرف "نا" الدال على الجمع إلا اعتراف مزدوج؛ فهو اعتراف بأنْ لا حضارة خارج تلك التي تسعى إلى العمران بذراع الإنسان وفكر الإنسان وعلاقات الإنسان، واعتراف في نفس الآن بالتعدد والاختلاف المفضي إلى التكامل والتعاون...

فلا جمع إلا بين متعدد، والنتيجة في النهاية عمران حضاري مشترك عند التفكير بهذا الضمير الجمعي، أو خراب مهين عند طغيان الفردانية وسيادة "بؤس الدهرانية" حسب تعبير الفيلسوف طه عبد الرحمن.

وإن الأمة الإسلامية اليوم وهي تسعى إلى بناء مقومات الحوار مع الذات ومع الآخر، في حاجة ماسة إلى استيعاب هذا المفهوم أكثر من أي وقت مضى؛ ذلك أن حدة الصراعات بين مكوناتها قد تفاقمت، وكشف واقعها المعاصر عن فقر كبير في قيم تدبير الاختلاف، مما تقوم معه الحاجة ماسة إلى إعادة بناء الوعي الجمعي المشترك بهذه القيم وترسيخها في الممارسة والسلوك.

ومعلوم أن عالمنا اليوم يعرف احتكاكًا غير مسبوق بين الثقافات والحضارات، وبين الأجناس والأعراق والديانات، مما تبرز معه الاختلافات والتناقضات الفكرية والسياسية والثقافية والاجتماعية التي تتفجر أحيانًا في شكل صراعات حادة، وقد تكشف في أحايين أخرى عن خبرات ومؤهلات وإمكانات هائلة للتقارب والحوار والتعايش، حين تزول الغشاوة ويحضر النظر الجلاء الصافي والمتبصر.

ولئن كان الاختلاف سنة كونية لا محيد عنها لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩)، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾(الروم:٢٢). فإن عالمنا اليوم يحتاج إلى فكر يستوعب هذه السنة الكونية، ويسعى إلى الاستفادة مما يتيحه التنوع في الطاقات والقدرات والأفكار والآراء والتوجهات والاختيارات في بناء الحضارة المشتركة، والتخفيف من حدة الصراعات والخلافات التي تضعّف الذات الإنسانية برمتها، لأن العالم اليوم انتقل من مرحلة "بناء الحضارات المختلفة المتعاقبة" إلى "بناء الحضارة الواحدة المشتركة" التي تجمع في داخلها تنوعًا واختلافًا، مما يعني أن الإيمان باستمرار الحضارة الإنسانية قائم بالضرورة على قدرتها على تدبير هذا التنوع من خلال ترسيخ ثقافة تدبير الاختلاف.

وفي هذا الإطار يجد شبابنا اليوم نفسه معنيًّا بقيادة حركة التنمية في سياق تشكل هذه الحضارة المشتركة في عصر العولمة بما تحمله من تطورات هائلة في تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وتَحوُّلٍ عَميقٍ يتجاوز عالم الأفكار إلى عمق منظومة القيم التي تشكل جوهر الإنسان، مما تبرز معه حاجة ماسة إلى التربية على قيم ومهارات تدبير الاختلاف.. ولن يتم ذلك إلا من خلال التوعية بأهمية توسيع مساحة المشترك من خلال إطار نظري عميقِ المحتوى متأصّلٍ في المصادر الإسلامية، والتدريب الميداني من خلال تطبيقات عملية تنمّي مهارات تدبير الاختلاف وترسخ قيمه المتجذرة في مصادر الوحي، وفي صور مضيئة من تاريخنا وحضارتنا الإسلامية.

ولا يخفى ما للطبقة المثقفة برمتها من أهمية في قيادة حركة التغيير الثقافي والاجتماعي، فإذا آمنت هذه الطبقة بقيم التعايش والتساكن والحوار، وكانت قادرة على تدبير الاختلاف في بناء ونشر مواقفها وآرائها وتصوراتها واجتهاداتها في المحيط، فإن ذلك سيشكل الإطار الخصب لنقل هذه الخبرة والتجربة إلى جيل الشباب من خلال صياغة خطاب يروج لهذه القيم ويعمل على نشرها.

وهذه رسالة إلى القيادات الفكرية والثقافية المؤثرة في مسارات المجتمعات من القائمين على المنظومات التربوية والتعليمية، والقائمين على برامج التوعية الدينية والثقافية في وسائل الإعلام، والمشتغلين في مؤسسات المجتمع المدني من جمعيات ومنظمات وطنية ودولية، وينبغي أن يركز خطابهم في هذه المجالات المختلفة على جوانب ثلاثة:

• **الجانب المعرفي** المتعلق بمفهوم الاختلاف والحكمة منه ومجالاته، ووضعه في سياق خريطة المفاهيم التي يتحرك فيها من أجل تكوين رؤية واضحة لدى المتلقي عن هذا المفهوم وتصحيح بعض التشوهات التي تحيط به، كل ذلك استنادًا إلى مصادر

hiramagazine.com

الوحي، ومقاصد الشريعة الإسلامية.

• **الجانب المهاري** المتعلق بقواعد وآليات ومهارات تدبير الاختلاف وفوائدها ومكاسبها، وما ينتج عن غيابها من سلبيات ثقافية واجتماعية. وذلك بالاستناد إلى التوجيهات الإسلامية في هذا المجال، والاستدلال بالنماذج العملية في الثقافة والحضارة الإسلامية، وكذا الكتابات الحديثة في مجال التواصل الناجح(٢).

• **الجانب القيمي** المتعلق بمنظومة بيان وتحديد القيم الحاكمة التي ينبغي ترسيخها في المجتمع ضمانًا لحسن تدبير الاختلاف، وكشف ما يناقضها من التصورات والسلوكات التي تبرز عند الفشل في تدبيره، مع الحديث عن طرق ووسائل نشر هذه القيم في المحيط الثقافي والاجتماعي والسياسي.

وإن المتأمل في النص القرآني المؤسس الرحمة المهداة للعالمين، يقف على التكامل بين هذه الجوانب الثلاثة في أبهى تجلياته النظرية والتطبيقية. فهو مصدر تأسيس للمفاهيم والتصورات، ودليل ينمي المهارات العملية بالنماذج والأمثلة والخبرات، ويرسخ القيم الحاكمة لتدبير مختلف مجالات الحياة، ومنها تدبير التنوع والاختلاف باعتباره أساسًا لبناء للحضارة والعمران.

فالكتاب الحكيم يسعى إلى ترسيخ مبدأ تدبير الاختلاف بمختلف أبعاده المعرفية والمهارية والقيمية عبر مسارين متوازيين ومتكاملين يفضيان إلى نفس النتيجة:

١- المسار الأول: ترسيخ المفاهيم والقيم الداعمة للاختلاف الطبيعي، وهي المفاهيم والقيم التي تسهم في ترشيد هذا النوع من الاختلاف، وتواكبه وتحصنه بالتوجيهات التي تحافظ على وحدة الإنسانية، وتقوي من لحمة القيم المشتركة التي تربطها حتى وإن اختلفت في المعتقد، ضمانًا لاستمرار العمران، وجعل الحوار والجدال والتعامل بالحسنى هو السبيل إلى القرب من الحق، وهكذا تجد في القرآن الكريم:

دعوة إلى الإقرار بالحرية وقبول الاختلاف

وهما مفهومان وقيمتان متلازمتان وأصيلتان في الإسلام،

إنْ كان الاختلاف سنة كونية لا محيد عنها، فإن عالمنا اليوم يحتاج إلى فكر يستوعب هذه السنة الكونية، ويسعى إلى الاستفادة مما يتيحه التنوع في الطاقات والقدرات والأفكار والآراء والتوجهات والاختيارات في بناء الحضارة المشتركة، والتخفيف من حدة الصراعات والخلافات التي تضعّف الذات الإنسانية برمتها.

سواء كان هذا الاختلاف في الخلقة، أو اختلافًا في المعتقد، أو اختلافًا في الرأي. وقد كان لهذا المنهج نتائج عظيمة في تاريخ الإسلام خاصة، والحضارة الإنسانية بصفة عامة.

دعوة إلى التعارف والتعايش والتساكن

وذلك من أجل توفير البيئة السليمة الآمنة للحوار، وإتاحة الفرصة للتعريف برسالة الإسلام من غير إكراه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

ترسيخ مبدأ الحوار في حل الخلافات

ذلك أنه من مستلزمات تحقيق التعايش والتساكن، الإقرار بحق الآخر في حرية الاختيار، وكذا قبول مبدأ الاختلاف. وكل ذلك يعززه القرآن الكريم بالدعوة إلى فتح باب الحوار مع أصحاب الاختيارات المختلفة، وجعله الملاذ الآمن للوصول إلى حل النزاعات في كل الظروف والأحوال.

ومن أجل أن يكون هذا الحوار هادفًا ومجديًا، أحاطته الشريعة الإسلامية بجملة من التوجيهات؛

• **كالدعوة إلى البحث عن المشترك**؛ وهو ما أسماه القرآن الكريم بالكلمة السواء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٤).

• **والدعوة إلى المجادلة بالتي هي أحسن**؛ قال تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ

hiramagazine.com

ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(العنكبوت:٤٦).

• **والدعوة إلى الإحسان إلى المخالفين** ومد جسور التواصل معهم بمختلف الطرق والوسائل؛ لأن ذلك مدعاة إلى استمرار الحوار، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:٦).

• **والدعوة إلى العدل والإنصاف حتى مع المخالفين؛** فالعدل والإنصاف أساس العمران، والله تعالى ينصر الأمة العادلة وإن كانت غير مسلمة، ويستبدل الظالمين ولو كانوا من المسلمين بقوم آخرين غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم.. ولذلك أمر الإسلام بترسيخ قيمة العدل والإنصاف بين الناس على اختلاف مللهم ونِحَلهم وتوجهاتهم، فذلك من مقتضيات ترسيخ الثقة المتبادلة من أجل وضع أرضية مشتركة للحوار البناء، ومن مقتضيات التعايش وتبادل المنافع والمصالح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأنعام:١٥٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨).

ومن مظاهر الإنصاف عرض آراء الغير كما هي دون زيادة أو تحريف قبل مناقشتها أو الرد عليها، وهذا منهج القرآن الكريم في عرض أقوال وحجج المخالفين؛ إذ يعرض أقوال إبليس وأقوال المشركين، ويرد عليها بمنطق العقل وخاصة ما تعلق منها بقضايا العقيدة كالتوحيد والبعث وغيرها. والنماذج من هذا كثيرة ومتعددة خاصة في القرآن المكي.

٢-المسار الثاني: تحديد الأسباب المؤدية إلى الاختلاف غير الطبيعي ومحاربتها، ومن تلكم الأسباب:

التفرقة بعد معرفة الحق والانقياد له

والإسلام يذم هذا السلوك سواء وقع داخل الجماعة المؤمنة التي عرفت الحق واسترشدت بهداه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران:١٠٥)، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(آل عمران:١٠٣)، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(الأنفال:٤٦).

الظلم والعدوان

جرم الإسلام كل أشكال الاعتداء والظلم والطغيان بغضّ النظر عن الجهة التي يصدر عنها، أو الجهة التي يمارس عليها، ذلك لأن الظلم والعدوان مناقض لقيم الاختلاف الطبيعي القائمةِ على التساكن والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، والتدافع من أجل الوصول إلى الحق، ضمن مجتمع متعايش متضامن.

والظلم والعدوان مظهر من مظاهر الاختلاف غير الطبيعي الناشئ عن الصراع والنزاع واتباع الهوى، واعتزاز كل ذي رأي برأيه. فكان موقف الإسلام منه شديدًا، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة:١٩٠)، وقال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن ربه ﷻ قال: "يا عبادي! إني حرّمتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا، فلا تظالموا" (رواه مسلم)، وحرّم قتل النفس إلا بالحق، وحمى الأعراض والأموال من الانتهاك.

وإذا كانت الفتن مظنة انتهاك الحقوق، فإن الإسلام حرص على التنبيه إلى خطورة انتهاكها في مثل هذه الأحوال بصفة خاصة، والنموذج من سورة الفرقان التي تكررت فيها كلمة "الحق" تسع مرات، وهي السورة التي تتحدث عن حال المسلمين في الغزو والقتال.

العصَبية والعرقية

ومن ذلك أن الإسلام حرم العصبية على أساس اللون أو العرق أو اللغة، لأن ذلك استخدام لمقومات الاختلاف الطبيعي في غير ما وجد من أجله. ونجد ذلك جليًّا في نص خطبة الوداع التي تعتبر بمثابة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي ختم به الرسول ﷺ رسالته إذ

hiramagazine.com

يقول: "يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد.. ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى. ألا هل بلّغتُ؟"، قالوا: بلّغ رسول الله ﷺ. ثم قال: "أيّ يومٍ هذا؟"، قالوا: يوم حرام، ثم قال: "أيّ شهرٍ هذا؟"، قالوا: شهر حرام، ثم قال: "أي بلَدٍ هذا؟"، قالوا بلد حرام، قال: "فإن الله قد حرّم بينكم دماءَكم وأموالكم كحرْمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلَدكم هذا، ألاَ هلْ بلّغتُ؟"، قالوا: بلّغ رسول الله ﷺ، قال: "لِيُبلّغ الشاهدُ الغائبَ" (رواه الإمام أحمد).

وكان رسول الله ﷺ شديد الحسّاسية من كل الأساليب التي قد تؤدّي إلى إحياء العصبيات والنعرات حفاظًا على تماسك المجتمع المسلم، فقد قال النبي ﷺ لأبي ذرّ رضي الله عنه وقد عَيّر أحدًا بأُمّه: "يا أبا ذر! أعَيّرتَه بأمّه؟ إنك امْرُؤٌ فيك جاهلية" (رواه البخاري).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: "ما بال دعوى الجاهلية؟" قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: "دعوها، فإنها منتنة" (رواه مسلم).

وكان الناس يتفاخرون بآبائهم في الجاهلية فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك. فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب في الناس يوم فتح مكة فقال: "أيها الناس! إنّ الله قد أذهبَ عنكم عُبِيَّةَ الجاهليّة وتَعاظُمَها بِآبائِها، فالناسُ رجُلان: بَرٌّ تقيّ كريم على الله، وفاجِرٌ شقيٌّ هَيِّنٌ على الله، والناسُ بَنُو آدم وخلق اللهُ آدم مِن تُرابٍ" (رواه أبو داود).

الانغلاق على الذات وعدم الانفتاح على الآخرين لمجرد اختلافهم

"إن البحث عن الصواب حيث يكون، والأخذ بالحكمة ولو من فم المخالف، واعتبار المنتوج العلمي البشري مجالاً للبحث والاختيار في ضوء مقاصد الإسلام وغاياته الكبرى التي تستدمج كل اجتهاد إيجابي نافع، هو "المسلك القويم". فإذا نظرنا إلى القرآن الكريم وجدناه يقصّ علينا من قصص الأمم المختلفة ما يعتبر مجالاً واسعًا لأخذ العبرة والمثل. وإذا نظرنا إلى سنّة المصطفى ﷺ وجدناه يوجّه بعض صحابته إلى تعلم اللغات الحضارية السائدة في عصره؛ كالسريانية والفارسية للاطلاع على حضارتهم والاستفادة منها. وإذا تصفّحنا تاريخ الخلفاء الراشدين ومَن اهتدى بهدْيهم مِن بعدهم، وجدناهم قد أدخلوا من تجارب الأمم الأخرى في تنظيم الدولة؛ كسك النقود ونظام الجبايات والبريد وغير ذلك من النظم الإدارية. وإذا اطّلعنا على تاريخ الفكر الإسلامي، وجدنا اهتمام المسلمين بالترجمة، من خلال تأسيس دار الحكمة في المشرق ومدارس قرطبة في المغرب، ووجدنا حوارات مفتوحة بين فطاحل العلماء والفقهاء المسلمين وغيرهم من الأحبار والرهبان من الشرعتين اليهودية والنصرانية. كل ذلك بهدف إبراز سماحة الإسلام وقوة حجته ومنطقه الفكري والعقدي، وفي نفس الآن الاستفادة من كل اجتهاد يخدم البشرية ويرقى بها إلى أحسن حال، ولم يكن هؤلاء يضيقون ذرعا بالفكر المخالف"[٣].

إن هذه النماذج التي عرضناها، تكشف عن منهج القرآن القويم في تدبير الاختلاف، فهو بهذا المعنى دين القيمة الذي يبني الحضارة وينشئ العمران، وما سوى ذلك إيذان بخراب العمران وينتهي إلى تحقق سنّة الاستبدال، قال تعالى ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد:٣٨). ■

---

[*] رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية، تطوان / المغرب.

الهوامش

[١] ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠م.

[٢] انظر: على سبيل المثال كتاب "أمسك عليك هذا" مقدمات وعشر قواعد في فنون التعامل مع الآخرين، للدكتور علي الحمادي، إصدار مركز التفكير الإبداعي، الطبعة الثالثة، سنة ٢٠٠٠م.

[٣] انظر: "كيف نبني ثقافتنا الإسلامية وكيف نقدمها للآخرين"، د. خالد الصمدي، مجلة حراء، العدد:١٢ (يوليو ٢٠٠٨).

hiramagazine.com

د. مريم آيت أحمد*

المفكر فتح الله كولن

من هندسة الأفكار إلى التخطيط الإستراتيجي

إن الأفكار التي اقتنع بها فكر الحركة الإصلاحية لمدرسة الأستاذ فتح الله كولن اعتمدت على أسس معرفية تربوية، عمادها أن النهضة المجتمعية الحقيقية لا يمكن لها أن تتمكن من النفوس، وأن الإصلاح التعليمي التربوي لا يمكن له أن ينغرس في القلوب، إلا إذا قام على ثلاث قواعد نظرية أساسية ومتينة، وعمل بالتوازي على جبهات تربوية اجتماعية ممتدة الآفاق:

- "الإصلاح التربوي التعليمي" لمحاربة الجهل وتنوير الجيل الصاعد معرفيًّا.
- "الإصلاح الاقتصادي" بتشجيع مشاريع تنموية لمحاربة الفقر.
- "الإصلاح الديني الاجتماعي" بنشر سبل المحبة ونزع فتيل الفرقة والاختلاف لرعاية الجيل الراهن.

هذا الوضوح في الرؤيا لدى أقطاب الحركة الإصلاحية التربوية للخدمة، ورسوخ هذه القناعة لدى رائدها الأستاذ فتح الله كولن، كان يقتضي النزول من الأفق النظري للميدان التطبيقي منذ الستّينات من القرن الماضي، حيث انبرى جهد الرواد الأوائل -وبإمكانات متواضعة- لدعم إنجاح مشروع نهضوي تعليمي قيمي، أفرغوا كافة طاقاتهم عبر سنوات وعلى امتداد مئات دول العالم، في سبيل بناء أفق معرفي رائد للجيل الصاعد، وإعداده معرفيًّا وتربويًّا، لتحمل مسؤولية الإصلاح الاجتماعي المنشود، إصلاح إستراتيجي متزن يجمع بين التربية والتعليم، وبين العلم والعمل، وبين حياة الفرد وتعلّم قيم الحياة والمسؤولية الاجتماعية في خدمة الإنسان محور الكون... حياة يقبل فيها الأستاذ هجران ملذات متعة الدنيا من زوج وولد، ويستقبل

فيها التلميذ تضحية أستاذه ببر البنوة الصادقة، فيترك الأحباب والأهل والبلد ويهاجر طائرًا محلّقًا في سماء ضياء المعرفة، ويحط رحاله وترحاله بدول نائية تنعدم فيها سبل الراحة، ويصعب عليه التأقلم في محيطها البعيد عن أجواء الألفة والرفاهية التي وفّرت له بين أهله وأحبابه... ومع ذلك يواصل مرابطًا صابرًا معتكفًا في محراب بيت التعلم وصناعة حرفة التعليم الراقي.

هكذا نمت وترعرعت مدارس الخدمة التي تعب روادها قبل أزيد من ستين سنة على بناء هياكلها وتطوير برامجها وضبط مناهجها وإعداد الكوادر لها. ركّزوا جهودهم وطاقاتهم في معاهد الحياة بتعمير الآلاف من بيوت الطلبة الخالية من الدفء الأُسَري بدفءٍ تربوي، فكانت محضنًا لإعداد باكورة المشاريع التربوية الخيرية التي أخرجتها الحركة الإصلاحية لمناهج مؤسسات الخدمة إلى الوجود، شعارها في ذلك "المحبة" و"السلام"، والبعد عن المناصب والأضواء والسلطة.

لقد استوعب فكر الأستاذ فتح الله كولن -منذ زمن بعيد- أن إصلاح الأوطان لا يمكن أن يتم إلا بالعلم والمعرفة الراقية المبنية على القيم الأخلاقية، فدرج في سبيل مشروعه كل إمكاناته، وضحّى من أجل تحقيقه على امتداد فترات المخاضات السياسية بكل عزيز وغال.

مدارس الخدمة امتدّت آفاقها حول العالم، نظرتُ إلى هذا الجيل داخل تركيا وخارجه نظرة إشفاق وحب وأمل، حملتُ شعار فلسفة الأستاذ فتح الله: "قيمة الفناء في حب الله لا تتحقق إلا بالفناء في خدمة عباد الله". فانطلق سِرب الطير المحلق نحو الأفق الممتد حاملاً هذا الشعار الإنساني الكوني، وتعهد على نفسه بحمل أمانة إصلاح جودة التعليم في تركيا عبر تأسيس آلاف من المدارس، بدءًا من الحضانات والإعداديات والثانويات إلى الجامعات فالمعاهد ومؤسسات البحث، وعلى رأسها عناية الاهتمام الفائق ببيوت الطلبة محضن الاستثمار الإنساني المغفول في بعض بلداننا، ثورة تعليمية حققت نموذجًا ناجحًا في تركيا وخارجها بما اعتمدته من مناهج تقوم على أسس العلم والفضيلة والمحبة. ومن خلال تتبّعنا لقراءة محطات المسيرة

إن شعار فكر الأستاذ فتح الله كولن هو "تقديم مصلحة المجتمع الكبير على مصلحة الفرد الذاتية"، لذلك لم يفكّر في الزوجة والولد، لكنه أنجب من صلب هذا الشعار جيلاً كاملاً من الأبناء والبنات، أهدوا فلذات أكبادهم لرعاية رسالة التعليم في بقاع العالم.

حراء

التربوية التعليمية للحركة الإصلاحية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، نستطيع أن نحدد جهودها في المجالات الآتية:

- توعية الناس بأهمية التعليم لإلحاق أبنائهم به وتمكينهم من جودة التعليم الراقي بالصحبة التربوية.
- الدعوة إلى الإنفاق على التعليم بـ"الهمّة"، لأجل بناء المدارس وإيواء الطلبة وصرف أجور المعلمين.
- بناء المدارس العصرية النظامية الحرة في تركيا وخارجها وفق اعتماد منهج "الزمر"، والتميز البيداغوجي في أكثر من ١٦٠ دولة.
- تطوير مناهج التعليم بشقَّيه العلمي والتربوي في مقررات الابتدائي والثانوي محضن الموارد البشرية.
- إنشاء معاهد ومؤسسات إغاثية خيرية في مختلف بقاع العالم.
- إرسال البعثات العلمية من الطلاب إلى الخارج والعناية بها دعمًا بالمنح، وبيوت السكن، وتأطيرها معرفيًّا وتربويًّا.
- إنشاء الجمعيات الخيرية الاقتصادية المساندة لمسيرة التعليم بمستوياته المختلفة في تركيا وخارجها.
- كسب ثقة جمهور واسع من النخب المثقفة في العالم العربي، المعتزة بالنموذج الحضاري، وبكل إنجازات أطيافه الإصلاحية بعيدًا عن سياقات الصراعات السياسية.
- تكوين ناشئتها على قيم البعد الاجتماعي العملي، وحب الوظيفة الاجتماعية التي تنتظرهم بتقاسم تسلسل الأدوار.
- تعزيز قيم النشاط التطوعي داخل صفوف الطلاب في مدارس الخدمة، وتربيتهم على حب العمل التطوعي

التسلسلي لتبادل الأدوار في النهوض بتنمية الحياة الاجتماعية العامة التي كان لها الفضل في تكوينهم وتربيتهم وتعليمهم.

إن شعار فكر الأستاذ فتح الله كولن هو "تقديم مصلحة المجتمع الكبير على مصلحة الفرد الذاتية"، لذلك لم يفكّر في الزوجة والولد، لكنه أنجب من صلب هذا الشعار جيلاً كاملاً من الأبناء والبنات، أهدوا فلذات أكبادهم لرعاية رسالة التعليم في بقاع العالم، وأوفدوهم إلى أدغال إفريقيا ومناطق بؤر التوتر والقصف منذ زمن بعيد، فقدموا فيه الغالي والنفيس لبناء مدارس تؤدي رسالتها التعليمية التنويرية للعالم.

لقد وضع الأستاذ فتح الله كولن سياسة واضحة المعالم للنهوض بالعملية الإصلاحية التربوية التعليمية، ورسم لها خطة محكمة الجوانب، مضبوطة الخطوات والمراحل، سطر لها أبناء من حول العالم ربّاهم بفكر استشرافي مستقبلي مبني على حبّ العطاء، وخدمة المجتمع بعناية أبوية رحيمة، حذّرهم من اقتحام النزاعات السياسية، والانصياع لمحركات بؤر الخلافات الحزبية، والانتماءات الأيديولوجية... لم يضع اسمه في اللوائح الانتخابية، ومع ذلك يواجه اليوم بحملات ضغط عسيرة، تنكّرت لعطاءاته في البناء القيمي التربوي للمجتمع، وخنقت مسار إصلاحه في ساحة المنافسة السياسية، ليؤدي ضريبة موضوعها -أعداد ضخمة من الأصوات في حوزته ينبغي أن توجه- ولعل هذا التوجيه المؤطر بثنائية الفقيه والسلطة، يعد الحلقة المهمة والمرحلة النوعية في هذه الظرفية من التطويع السلطوي للمثقف.

العلم في حد ذاته عبادة ينبغي أن يتوجه إليها المسلم بنية صافية طالبًا فيه رضى الله وحده. والعلم وسيلة لغايات نبيلة يخدم بها المتعلم نفسه ويخدم غيره؛ فهو يخدم نفسه بتثقيف عقله وتنوير ذهنه وتربية نفسه، ومن خلال كل ذلك يعد نفسه لخدمة غيره في مجالات الإصلاح الخيرية على كافة المستويات معرفيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا. لكن سننية التاريخ الإصلاحي تشير إلى تعرض العديد من مشاريع الفكر التجديدي لمحن تحديات داخلية وخارجية. وقد جاء على لسان الطاهر الحداد قوله مثلاً في وثيقة "التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة": "قد كان العلامة ابن خلدون من هؤلاء الأفذاذ الذين كانوا جواهر منتشرة في تاريخ الإسلام، لكنه -كأمثاله- قد كان مبغوضًا من الفقهاء في بلاده تونس وغير بلاده". لكن هذه المحن لم تقف عائقًا في سبيل تحقيق رواد الإصلاح لمشاريعهم الفكرية والتنويرية، ولم تمنعهم من التراجع والتردد أو التأخر والتولي عن عالم أفكارهم، عالم حلموا به وتيقّنوا -وهم يحرزون نجاحات جوائز الإبداع والتميز في الاختراع والعلوم- أنه عالم سينقلهم من الفقر والجهل المسببين للفرقة، إلى عالم سيمكّنهم من تنشئة الجيل المنشود الذي يستطيع أن يحمل مشعل الحضارة، ويقضي على التخلف والجهل، ويدرك معاني قيمة وحدة ومصلحة خيمة الوطن لبناء أركان المجتمع التنموي الأصيل بقيمه، والمعاصر بتطلعاته نحو التقدم.

إن نداء أهل الحكمة ينبغي أن يرفع صوته عاليًا اليوم، وفي ظل سحابة صيف ستمضي بردًا وسلامًا بإذن الله ليقول: "أيها المصلحون بشتى توجهاتكم الفكرية وانتماءاتكم السياسية والحزبية... اقتحموا ميادين الإصلاح لبناء نهضة بلدانكم، وادخلوا بها في عالم المنافسات الحضارية العالمية، فضوا مشاكل البيت الواحد بالحلول الأخوية السلمية، حكّموا منطق موازنات مصالح أمّتكم، واجهوا الخلافات بمنطق العدل والحكمة والتراحم عند الاختلاف... فإنكم بذلك تفرضون وجودكم، وتعرفون بقيمة أنفسكم وعطاءاتكم، وتحملون الناس على احترامكم، فبتعايشكم وبأخلاقكم وبتوادّكم وتراحمكم وتراص صفوفكم تعلّمون دروس الوطنية وقيم المواطنة الصالحة لأبنائكم، وتؤهّلونهم بلسان المحبة وسموّ الكلمة الطيبة، ليرتقوا أساتذة في شموخ قيم الديموقراطية، ويرفعوا شعار النضال التنموي الحقيقي لنهضة وتقدم أوطانهم". ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

hiramagazine.com

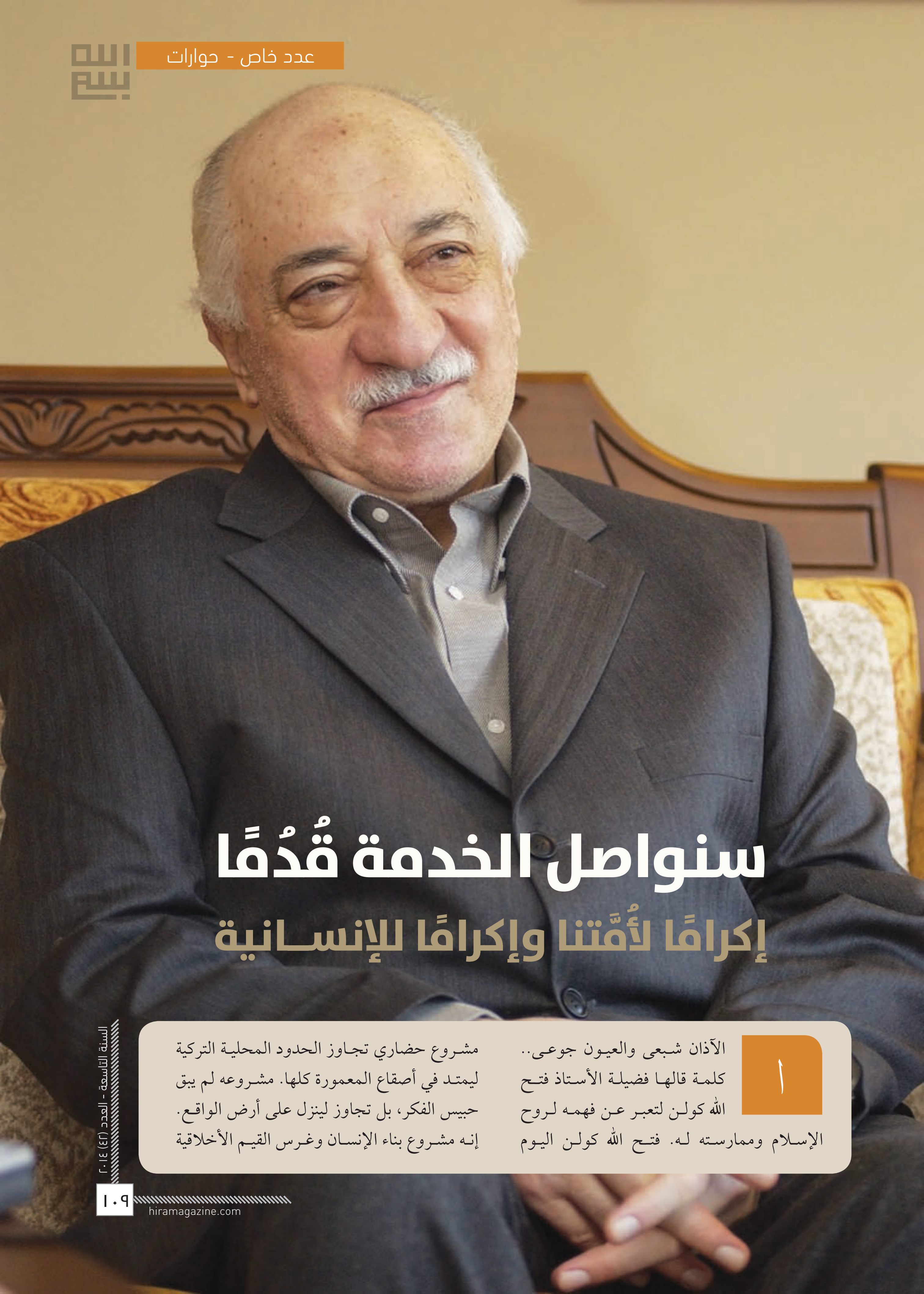

سنواصل الخدمة قُدُمًا

إكرامًا لأُمَّتنا وإكرامًا للإنسـانية

الآذان شبعى والعيون جوعى.. كلمة قالها فضيلة الأستاذ فتح الله كولن لتعبر عن فهمه لروح الإسلام وممارسته له. فتح الله كولن اليوم مشروع حضاري تجاوز الحدود المحلية التركية ليمتد في أصقاع المعمورة كلها. مشروعه لم يبق حبيس الفكر، بل تجاوز لينزل على أرض الواقع. إنه مشروع بناء الإنسان وغرس القيم الأخلاقية

السامية في جوانيته. فالإنسان قلب الأرض، إذا صلُح صلحت الأرض وإذا فسد فسدت الأرض، إذا انتصر على نوازع النفس في الداخل نجح في بناء العمران في الخارج.

حياة الأستاذ فتح الله كولن قصة طويلة من المعاناة والمكابدة في سبيل بناء الإنسان الصالح المؤهل لوراثة الأرض.. وقد شرُفت مجلة حراء منذ عددها الأول بمقالاته الملهِمة الحكيمة، كيف لا وهو الذي سمّاها "حراء"، هذا الاسم المعبر عن المعنى الذي ولدت منه أمة الإسلام برسالة إلى الإنسانية جمعاء.

شهدت تركيا في الآونة الأخيرة محنة من نوع آخر كان الأستاذ فتح الله كولن أكثر مَن أحس بوقعها الزلزالي في قلبه.. الأمر ليس سهلاً.. عمرٌ مديد من العمل والمكابدة والمصابرة من أجل إخراج نبت صالح واعد.. فإذا به يتعرض لأكبر حملة تشويه في تاريخه.. في الشهرين السابقين وسائل إعلام تركية وعربية وأوربية وأمريكية أجرت حوارات صحفية مع الأستاذ كولن، رسم فيها أهم معالم مشروع "الخدمة"، وأجاب على بعض التساؤلات ووضع النقاط على الحروف بصورة واضحة حول قضايا في غاية الأهمية؛ إنها جريدة زمان التركية، جريدة الشرق الأوسط، قناة بي بي سي (BBC)، صحيفة وول ستريت الأمريكية (The Wall Street Journal)، وجريدة الجمهورية الإيطالية (La Re-pubblica). ومجلة حراء عملت على هذه الحوارات بدقة قراءة وتلخيصًا وتحريرًا، واختارت أهم المحاور التي جاءت في هذه الحوارات لتقدمها لقرائها الأكارم، عسى أن تكون رافدًا مهمًّا في إنشاء رؤية ناضجة ملهِمة في بناء ذاتنا الحضارية ومشاريعنا الإصلاحية.

س: كيف تصفون حركة "الخدمة"؟ وكيف تعرّفون "أتباعكم"؟ وما الذي يجمعهم في مشروع واحد؟

أكّدتُ مرارًا أنه يؤلمني كثيرًا نسبة الناس إلى شخصي الضعيف وإلحاقهم بي تحت عناوين مختلفة كـ"الفلانيّين" و"العلانيّين". كما أريد أن أؤكد أن هؤلاء الناس قد التقوا -بشكل طوعي- حول مشاريع وجدوها معقولة ومنطقية ومفيدة لكافّة الناس. ومع أن الحركة تستهدي بقيم الإسلام، فإن مشاريعها التي يقوم عليها المتطوعون العاملون في إطارها، متماشية مع القيم الإنسانية الهادفة إلى تعزيز الحريات الفردية وحقوق الإنسان والتعايش السلمي بين جميع الفئات؛ ومن ثم وَجدتْ ترحيبًا في ١٦٠ دولة حول العالم، ولقيتْ قبولاً صريحًا أو ضمنيًّا مباشرًا أو غير مباشر من جنسيات ودول وأديان مختلفة. لذلك من الصعب القول إن المتطوعين في الحركة يشكّلون بنية متجانسة، بل هي بنية متنوّعة. وحالة التنوّع هذه تمتد لتشمل ألوانًا مختلفة من التعاطف والتشارك؛ فبينما يعمل البعض معلّمين في مدارس بالخارج، يقوم آخرون بالتكفّل بالنفقات أو يخصصون جزءًا من أوقاتهم للخدمات التطوعية، وما إلى ذلك.

إذن هم أفراد التقوا طوعًا على قيم إنسانية سامية مشتركة، كالحرّيات، وحقوق الإنسان، واحترام المعتقدات، وتقبّل الآخر، والانفتاح على الحوار، وتنزيه الدين عن الأغراض السياسية الحزبية الضيقة، واحترام القانون، وعدم استغلال إمكانيات الدولة استغلالاً سيّئًا، وضرورة عدم التراجع عن المسار الديمقراطي، ورفض استخدام السلطة لإكراه الأفراد والمجتمعات على معتقدات معيّنة، والثقة في المجتمع المدني، وتوظيف التعليم لإحلال ثقافة السلام في المجتمعات، وابتغاء مرضاة الله في كل قول وفعل، ومحبة الخلق من أجل الخالق، وتعزيز منظومة القيم الأخلاقية لدى الأفراد بغضّ النظر عن قيمهم الدينية أو غير الدينية.

س: ما موقف "الخدمة" كعمل مدني من السياسة؟

لابد من التنويه بأن الخدمة منذ نشأتها لم تَسعَ إلى أي هدف سياسي، ولكنها سعتْ إلى خدمة الإنسان من خلال تنمية قدراته في المجالات التعليمية والاجتماعية والثقافية، واستثمرت كل وقتها وطاقتها في سبيل تحقيق هذه الغاية. وتصدّت لحل المشكلات الاجتماعية انطلاقًا من الإنسان عن طريق التربية والتعليم.

عاهدتُ نفسي كمؤمنٍ، أن لن أقاطع أحدًا، ولن أحمل ضغينة في قلبي لأحد.. عاهدت أن أستقبل الموت باسمًا، عاهدت نفسي أن أعتبر الجفاء الصادر من الجلال، والوفاء الوارد من الجمال شيئًا واحدًا.

حراء

طالما ذكرتُ في دروسي أن لدينا ما يكفي من المساجد -التي كان أغلبها فارغًا في السبعينيات- ولكن ليس لدينا ما يكفي من المدارس. لذا حضضتُ الناس على فتح المدارس لسدّ هذه الثغرة. ولو كان لدينا أي هدف سياسي لكانت قد ظهرت بوادره خلال الأربعين أو الخمسين سنة الماضية كإنشاء حزب سياسي مثلاً. ولقد عُرض عليّ وعلى الكثير من إخواني -في أوقات مختلفة- العديد من المناصب السياسية، وتم رفضها جميعًا. ولقد كان بإمكان "الخدمة" -لو كان لديها طموحات سياسية- أن تؤسس حزبًا سياسيًّا كما فعل الآخرون، وتستثمر الظروف المواتية عام ٢٠٠١م، في وقت كانت الأحزاب الأخرى تتهاوى واحدة تلو الأخرى... أو على الأقل لكان لها عدد لا بأس به من المؤيّدين داخل الأحزاب السياسية التي حكمت في الماضي أو الحزب الذي يحكم الآن، ولكنها لم تفعل ولم ترغب في ذلك أيضًا.

شخصيًّا لا أتبنّى قناعة ممارسة السياسة باسم الدين، أو توظيف الدين لتحقيق مكاسب سياسة، أو ممارسة السياسة بشعارات دينية، وهذا لا يعني أنني أرى أن الانخراط في مجال السياسة أمر غير مشروع. فمع أننا لا نشارك في السياسة ولا نقوم بإنشاء حزب سياسي، لكن لا نرى منع أحد من القيام بذلك؛ لأنه في الديمقراطيات لا يمكن ممارسة السياسة من دون أحزاب، طبعًا الخدمة ليس عندها هدف سياسي بمعنى تأسيس حزب، لكن القيم والمبادئ

hiramagazine.com

التي حاولتُ توضيحها آنفًا، والتي تشكل الديناميكية الأساسية للخدمة، لابد أنها تتلامس مع السياسة.

وأفراد الخدمة باعتبارهم مواطنين كان وما زال لهم مطالب من المؤسسات السياسية، شأنهم في ذلك شأن نظرائهم من المواطنين العاديين أو التربويين أو كل ناشط مجتمعي. وقد كانت هذه المطالب دائمًا تدور في إطار القوانين المرعية وتُطلَب عبْر السبُل والطرق المشروعة. ولم يحاولوا ألبتة اللجوء إلى أيّ وسيلة غير قانونية أو غير أخلاقية لتحقيق هذه المطالب.

وبطبيعة الحال، يتوقع المواطنون الذين تعلّقت قلوبهم بـ"الخدمة"، من القائمين على شؤون البلد، السعيَ إلى تعزيز سيادة القانون وحقوق الإنسان والحريات والسلام وحرية الفكر وبناء المشاريع ودعم الاستقرار والأمن في البلاد والحيلولة دون الانزلاق إلى الفوضى أو حدوث الأزمات، والتأكيدَ على تقبّل الجميع والاعتراف بوجودهم. كما يحق لهؤلاء الناشطين في الخدمة الاحتكام إلى الوسائل المدنية والديمقراطية المتاحة لهم، للإفصاح عن آرائهم حول أوجه القصور في هذا الصدد حال وجودها. إذ إن التعبير عن الآراء في هذا الصدد، ورفْعَ مستوى الوعي العام، هو واجبٌ وطني، وواحدٌ من أهداف المجتمع المدني أيضًا. ولا يلزم بالضرورة تأسيس حزب سياسي من أجل القيام بهذه المهمة، كما لا يمكن اتهام هؤلاء الذين يقومون بهذه المهام بأنهم يقتحمون السياسة، أو يريدون تقاسم السلطة، أو يعملون على تدخل غير المنتخَبين في عمل المُنتَخَبين ديمقراطيًّا. فما ذكرناه آنفًا، هو ما عليه الحال في أيّ نظام ديمقراطي حقيقي، وفي أيّ دولة من دول العالم المتقدّم من حيث الديمقراطية.

إنّ الأحزاب السياسية والانتخابات الحرة هي شروط أساسية للنظام الديمقراطي، ولكنها لا تكفي بمفردها، فالأداء الفعّال والسلس للمجتمع المدني هو أمرٌ مُهم كذلك. ومن الخطأ القول إن الانتخابات هي الطريقة الوحيدة لمساءلة السياسيين أمام عامّة الناس، حيث إنّ المجتمع المدني يستمر بمراقبة السلطة الحاكمة ليرى ما إذا كانت تفي بوعودها أم لا، وذلك من خلال الإعلام والمناشط المجتمعية المختلفة وفعاليات عديدة

أخرى في إطار القانون، مثل عرائض الاكتتاب ورسائل شبكات التواصل الاجتماعية. وبالرغم من أن نشطاء الخدمة التقوا على مبدأ عدم الانخراط في السياسة الحزبية وعدم السعي نحو السلطة، لكن هذا لا يعني أن يتخلّوا كمجتمع مدني عن مسؤوليتهم وصلاحيتهم في مساءلة السلطة السياسية ورقابتها. وبما أن الخدمة ليست تكوينًا بنيويًّا ولا تنظيمًا مركزيًّا هرَميًّا، فليس هناك وجهة نظر سياسية واحدة يتبنّاها جميع المشاركين فيها، كذلك ليس من المعقول القول إن حركة كهذه، منحازة إلى حزب بعينه فضلاً عن أن تكون منخرطةً فيه، فللمتعاطفين معها اختياراتهم السياسية الخاصّة، ولا تفرض الحركة أي وجهة نظر معينة عليهم، ولا تتدخل في هذا الموضوع على الإطلاق.

كما أن برنامج الخدمة وتقويمها الزمني لا يتحدَّد وفق التغيّرات الانتخابية والسياسية، بل يتحدّد حسب المشاريع التي تدور في فلك القواسم الإنسانية المشتركة. كذلك، فإن الحركة لا تتدخل في الشؤون الداخلية أو التطورات السياسية في أي بلد نهائيًّا، فحيثما تتّجه تركّز جهدها على تنفيذ مشاريع مدنية تطوّعية في مجالات تعليمية وثقافية وإنسانية. ولكونها تتمسك بهذا المبدأ ولا تفرّط فيه، فهي اليوم تحظى بقبولٍ لأنشطتها في أكثر من ١٦٠ بلدًا حول العالم.

والمتعاطفون مع أفكار الخدمة والمحبون لها، لا شك أنهم موجودون اليوم داخل السلك البروقراطي في الدولة، شأنهم شأن بقية شرائح المجتمع الحاملة لأفكار أخرى. ومن ثم فليست انتماءاتهم مدوَّنة على جباههم، وبالتالي فإن محاولة تصنيفهم في تقارير أمنية حسب تعاطفهم، أمر غير قانوني وغير أخلاقي على حدٍّ سواء. وأيضًا فهؤلاء المتواجدون داخل السلك البيروقراطي -ممن يقال إنهم متعاطفون مع الخدمة- يخضعون خضوعًا صارمًا للقوانين واللوائح المنظمة لشؤون العمل داخل المؤسسات التي يعملون بها، ويمتثلون لأوامر رؤسائهم في مجال أعمالهم، أي إن واجباتهم محدَّدة حسب القوانين.

وأريد أن أكرّر التأكيد هنا على نقطة هامة؛ وهي

إن الخدمة منذ نشأتها لم تَسعَ إلى أي هدف سياسي، ولكنها سعتْ إلى خدمة الإنسان من خلال تنمية قدراته في المجالات التعليمية والاجتماعية والثقافية، واستثمرت كل وقتها وطاقتها في سبيل تحقيق هذه الغاية.. وتصدّت لحل المشكلات الاجتماعية انطلاقًا من الإنسان عن طريق التربية والتعليم.

أن في أجهزة الدولة قد يكون هناك مَن هم متعاطفون معي أو مع أي شخص آخر، أو مع حركة فكرية، أو أيديولوجية ما، وهذا أمر طبيعي تمامًا. فليس لأحد التدخّل في قناعات الآخرين الشخصية أو معتقداتهم أو نظرتهم إلى العالم، والمتوقع ممّن يتخرجون من مدارس الخدمة أو ممّن يتعاطفون مع المثُل العليا التي تدعمها الخدمة، أن يتصرفوا بصدق واحترام تجاه سيادة القانون وحقوق الإنسان ومبادئ الديمقراطية، أيًّا كانت المناصب التي يشغلونها في الدولة.

ومن ثم إن كان هناك أشخاص داخل مؤسسات الدولة، بدلاً من الانصياع لأوامر رؤسائهم أو لوائحِ القوانين، يتلقّون الأوامر من جماعتهم التي ينتسبون إليها أو يميلون نحوها فكريًّا، فلابد من أن يُكشَف أمرهم، وينالوا العقاب اللازم بهم حتى وإن ادّعوا أنهم يعملون لصالحي. وإن كان هناك مَن يرتكب الجرائم من العاملين في الشأن العام ممن يدّعون التعاطف مع "الخدمة"، فينبغي أن تبدأ التحقيقات معهم بسرعة وأن يُحالوا للعدالة.

س: ما دور الإسلام في السياسة والمجال العام؟

إن الإسلام -كدِين- هو مجموعة من المبادئ والممارسات التي تستند إلى الوحي الإلهي، وترشد البشر إلى الخير المطلق من خلال إرادتهم الحرة، وتُبيّن لهم كيف يسعون جاهدين ليجعلوا من أنفسهم "أشخاصًا يتّسمون بالكمال". يمكن للناس أن يمارسوا دينهم بالطريقة التي يشاؤون في بلدٍ ديمقراطي يتيح لهم التمتع بمعتقداتهم الدينية بحريّة. في بلدٍ كهذا،

hiramagazine.com

يتم إجراء الانتخابات الحرة بما يتوافق مع المبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان العالمية والحريات، ويمكن للناس أن يعبّروا عن اختياراتهم عبر الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات، وتقديم مطالبهم لممثّليهم بحرية تامة واستخدام الحقوق الديمقراطية الأخرى المتاحة لهم، يمكنهم القيام بذلك بشكل فردي أو جماعي من خلال المشاركة في أنشطة منظمات المجتمع المدني.

إنني أرفض دائمًا فكرة التعامل مع الدين باعتباره أيديولوجيا سياسية (Politic). كما أرى أن على المسلم أن يتصرف وفقًا للأخلاق الإسلامية سواء في البعد المدَني والمجتمعي، أو في الشأن العامّ والمجال الإداري. أي يجب أن يلتزم بقيم الإسلام الأخلاقية في كل مكان وُجد فيه؛ فالسرقة والرشوة والنهب والكسب غير المشروع والكذب والنميمة والغيبة والزنا والانحطاط الأخلاقي... هي ذنوب وأمور غير شرعية في كل السياقات. ولا يمكن ارتكاب هذه المعاصي لأي غرض كان، سياسيًّا أو غيره، ولا يصحّ لأحد الإفتاء بارتكابها. ثم إن هذه المعاصي تُعتبر جناياتٍ حتى في إطار المعايير المتعارف عليها عالميًّا. وإذا فقد الفرد نزاهته الأخلاقية في هذا الجانب، فإن دوره في الشأن العام أو في أي حزب سياسي، عديم الجدوى. وكأي إنسان عادي، يُسعدني أن أرى هذه المبادئ الأخلاقية وقد تحوّلت إلى سلوك لدى جميع مَن يشغلون مناصب في الشأن العام أو في المجال السياسي. في الواقع إن المشاكل المذكورة أعلاه هي المصدر الرئيسي للشكاوى في المؤسسات الإدارية والسياسية في كل مكان حول العالم.

واسمحوا لي أن أقول بكل وضوح؛ إذا كان المسلمون في بلدٍ ما يمارسون شعائرهم الدينية بحرّية، ويتمكّنون من إنشاء مؤسساتهم الدينية بلا عوائق، ويستطيعون أن يلقّنوا قيمهم الدينية لأبنائهم ولمن يرغب في تعلّمها، ولديهم الحرّية الكاملة في التعبير عنها في النقاشات العامة، ويعلنون عن مطالبهم الدينية في إطار القانون والديمقراطية، فإن حاجتهم إلى إقامة دولة دينية باتت غير ضرورية. والتاريخ يشهد على أن حركات التمرّد والثورات والانقلابات وأحداث العنف دائمًا ما تجرّ البلاد إلى الفوضى والمآسي، وتجعلها في نهاية المطاف تفقد كل مكتسباتها في مجال الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتكبّد الشعوب أضرارًا وخسائر لا يمكن تلافيها. والحقيقة أنه إذا تمّت السيطرة على سلطة بلدٍ ما قسرًا وأُجبِرَ الناس على التديُّن، فإن هذا سيجعل منهم مُنافقين، يراؤون السلطة داخل بلدهم ويتظاهرون بالتديّن لتحقيق منافع شخصية، ولكن ما إن يسافروا إلى الخارج حتى ينغمسوا في حياة مناقضة للدين ومفتوحة على ألوان شتى من الذنوب والآثام. ففي مثل هذا البلد يضعف احترام القانون وينتشر النفاق والرياء.

وفيما يتعلق بالرؤية التي نحاول أن نسير عليها فيمكن تلخيصها على النحو التالي؛ تقديم حفظ الدين والنفْس والعقل والنسل والمال على تقديس الدولة.. وامتلاك الإنسان لحرية الاختيار وحرّية المبادرة.. والاعتراف بدور العقل والمصلحة العامة وحتى التجربة المجتمعية إلى جانب النقل في فهم الوحي الإلهي.. وتفعيل مؤسسة الاجتهاد في المجالات الدينية القابلة للتأويل والاجتهاد، دون النصوص الصريحة.. والسعي إلى ترسيخ حرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. والسماح للمتديّنين بالتعبير عن شعائرهم الدينية بكل حرّية وممارستها، ليس على المستوى الفردي فحسب، بل في المجالات والأمكنة العامة أيضًا.. واحترام القانون والنظام والأمن والاستقرار، واعتبار الإرهاب

hiramagazine.com

وقتل الأبرياء جريمة ضدّ الإنسانية.. والترويج لروح المنطق والعقل باعتباره وسيلة لإقناع المتحضرين بدلاً من الإكراه.. والوعي بأن ٩٨٪ من الإسلام عبارة عن روح ومعنًى وأخلاق وآخرة وعبادة وعبودية وكمالات وتسامح وسلوك وتحبيب وتبشير.

ومن وجهة نظر سوسيولوجية، هكذا فُهم الإسلام ومُورِسَ في الأناضول منذ أكثر من ألف سنة، إن هذا التصور عن الإسلام يتحدى كل أشكال العنف والتطرف ومحاولات تسييس الدين، كما يعزز الحب والتسامح والقبول المتبادل والتواضع ونكران الذات وسعة الصدر واحتضان الجميع.. ويعطي الأولوية للحق والعدل والحرّية والسلام في المجالين الاجتماعي والعام؛ وبعبارة أخرى يسعى إلى بناء نسيج اجتماعي مفتوح إلى كل الاتجاهات.

س: هل فاجأتكم أحداث التمرد الأخيرة في العالم العربي؟

إلى حدٍّ ما.. حسب معرفتي فإن العديد من الخبراء المختصّين في شؤون المنطقة ممن يكتبون في السياسة والإستراتيجية الدولية، لم يتوقّعوا اضطرابات من هذا القبيل على نطاق واسع. أعتقد أنه لا ينبغي إطلاق اسم التمرد على المساعي المطالِبة بسيادة القانون والديمقراطية في المنطقة، باستثناء تلك التي تستخدم العنف من أجل هذا الغرض. إن الوضع القائم في هذه البلدان، والمعاناة المستمرة للناس والمظالم التي يتعرّضون لها أمرٌ يدمِي القلب، ولا يبدو على المدى القريب حلّ لهذه المعضلات؛ وللأسف أقصى ما يمكننا فعله الآن كأفراد حيال ذلك، ليس شيئًا سوى الدعاء.

عندما اندلعت الأحداث في بادئ الأمر، قلتُ بناءً على حدسي وتوقعاتي المستقبلية: "ترى هل ما يحدث ربيع أم خريف عربي؟"، فهذا للأسف هو الواقع الإنساني، التدمير سهل، أما البناء فصَعْب؛ لأن الطاقة التي تحتاجها لبناء نظام جديد يتوافق عليه المجتمع كله، هي عشرة أضعاف الطاقة التي تحتاجها للإطاحة بنظام قائم. للأسف لم نصل بعد إلى هذا المستوى من النضج الاجتماعي. كما أن التاريخ يحدثنا بأن التموّجات الاجتماعية قد تنجرف وتغير مسارها في اتجاهات مفاجئة غير محسوبة، لذلك فالعبرة بتلك الديناميكات الداخلية التي تدفع وتحرّك تلك الأمواج. ما الذي يحرّك ويقود تلك التموّجات؟! وما الذي يسري في الشُّعَيرات الدموية؟ ينبغي النظر إلى ذلك.. إذا لم تضعوا ذلك في الحسبان، فإن الأمواج قد تنفلت وتنساق في اتجاهات غير متوقّعة. إن الاعتماد على الحماس الجماهيري والحراك الجماهيري فحسب، لا يولّد نتيجة سليمة. في تلك الفترة كنتُ أقول دائمًا: "علينا أن ننظر إلى "الأمواج المنبثقة من القاع"، وإلا فإن الضرر الناتج قد يخيّب آمالنا وتوقعاتنا". عندما كنتُ أنظر لما يحدث مراقبًا من الخارج، لم أتوقّع قط بأن تفضي تلك الأحداث إلى تغييرات جذرية ونتائج كبيرة في المدى القريب. كنا نشاهد تقلبات كبيرة، وتحولات ضخمة في الشارع العربي، ولكن بدا من الواضح مع الحسابات قصيرة المدى، أنها ستكون عديمة الجدوى. إن المجتمعات العربية مجتمعات مكابِدة، وأنا واثق من أنهم سوف يقيمون ما وقع بالصبر والمصابرة والبرامج بعيدة المدى.

إن حراك البحث عن الحرية بكل ألوانه، سيبقى في الذاكرة أحد أعظم إنجازات هذا العصر. ولكن الزمان أثبت لنا أن التغييرات الراديكالية أو محاولات التغيير الراديكالي دائمًا ما تؤدي إلى ضرر ودمار أكبر من المتوقع، وأن عودة الاستقرار والهدوء إلى المجتمع في أعقابها تستغرق زمنًا طويلاً. وكما يقول بديع الزمان سعيد النورسي، هناك ثلاثة أعداء كبيرة

إنني أرفض دائمًا فكرة التعامل مع الدين باعتباره أيديولوجيا سياسية.. كما أرى أن على المسلم أن يتصرف وفقًا للأخلاق الإسلامية سواء في البُعد المدَني والمجتمعي، أو في الشأن العامّ والمجال الإداري، أي يجب أن يلتزم بقيم الإسلام الأخلاقية في كل مكان وُجد فيه.

hiramagazine.com

للأمة: الجهل والفقر والفرقة، ومن خلال مشاريع متوسطة وطويلة الأمد تقوم بتدعيم التعليم والعلوم والثقافة والفنون والتجارة والتسامح والحوار، يمكننا أن نكافح هذه الأعداء الثلاث. هذه المشاريع المهمّة قد لا تبدو ثمارها في المدى القريب، لكنها سوف يكون لها أثر في المدَيَيْنِ المتوسّط والبعيد. علمًا بأن أيّ مسعى نحو الديمقراطية سوف يبوء بالفشل ما لم يؤسَّس على أرضية كهذه. وحركة "الخدمة" كانت وما تزال منذ عقود، تسعى إلى تحقيق ذلك من خلال تأسيس المدارس وإنشاء الجامعات، وتكوين جمعيات واتحادات رجال الأعمال، وافتتاح المؤسسات الإغاثية، وتفعيل دور مراكز الحوار ووسائل الإعلام في استخدام لغة بنّاءة تُسهم في دعم التواصل والتحاور وتحقيق العيش المشترك. كما نأمل أن تعمل هذه المشاريع، التي تدعمها شرائح واسعة من المجتمع، على مساعدة الجميع -بمن فيهم الرؤساء والمرؤوسون- لتأسيس مجتمعات أكثر رفاهًا وأوفر سلامًا واستقرارًا. ونحن في سبيل تحقيق هذه الغاية، نضرع إلى الله بالدعاء القولي والفعلي عبر هذه المشاريع. ويمكن في هذا الإطار، أن تشرع المجتمعات العربية والإسلامية في الانطلاق نحو هكذا مشاريع حتى قبل أن تتأسس في بلدانها أنظمة حكم ديمقراطية متكاملة بكل معنى الكلمة.

س: ما تعليقكم على التوتر السنّي الشيعي الحاصل في الشرق الأوسط؟

لا يصح تمييز الناس على أنهم سنّة أو شيعة. ويجب أن يُعامل الأفراد بناء على كونهم بشرًا بالدرجة الأولى أيًّا كانت دياناتهم أو معتقداتهم أو مذاهبهم. الإنسان -بما أنه إنسان- يمتلك حقوقًا أساسية، وبما أنه مواطن يمتلك حقوقًا ديمقراطية.

لا ينبغي أن يكون هناك إشكال لدى عالَم السنة إزاء المجتمعات الشيعية التي تكنّ حبًّا خاصًّا لآل البيت. ومع ذلك فإن مبادئ ديننا لا تجيز لأي دولة أن تمارس القمع والإساءة على أساس الفروق الطائفية في محاولة للظهور كقوة إقليمية. ولقد كانت هناك جهود لتقريب المذاهب عبر التاريخ القريب لعب فيها -غالبًا- زعماء الشيعة دور المحرك. ولكن للأسف، فقد كان

قادة الشيعة يميلون إلى توظيف هذه الجهود لأغراض توسعية خاصة بهم، حتى إن فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي الذي كان متعاطفًا مع الفكرة في البداية، قد اشتكى من مواقف علماء الشيعة خلال السنوات القليلة الماضية وعاتبهم على ذلك.

والمشكلة وإن بدت في الظاهر على شكل توتر بين السنة والشيعة، إلا أن الحقيقة مرتبطة بأهداف سياسية أخرى؛ مثل الهيمنة على المنطقة وتوسيع النفوذ والتحول إلى قوة إقليمية. لذلك تُستَخدم الانتماءات الدينية والمذهبية والطائفية كوسيلة لتحقيق هذه الأهداف. لا أحد يستطيع أن ينكر أن إيران اليوم، تسعى إلى تحقيق غايات قومية فارسية تحت ستار التشيّع. بالطبع يحق للدول أن تعزز مصالحها الوطنية وتحاول حمايتها عبر وسائل مشروعة في الساحة الدولية، لكن إثارة التوتّرات الدينية والطائفية والعرقية، لا ينبغي أن تكون إحدى هذه الوسائل. هذا خطأ، وعلى جميع المنظمات الدولية أن تكافح هذا الخطأ.

وللأسف قام بعض الأفراد والجماعات بتقديم تفسيرات مضللة عن المدرسة السنية، وذلك عبر الترويج للعنف والإرهاب باسم أهل السنة. ومثل هذه الجماعات تتسبب بالخراب والضرر الأكبر للإسلام نفسه. فالعالم الإسلامي بحاجة إلى الوئام والوفاق والتسوية السلمية للقضايا السياسية أكثر من أي وقت مضى.

س: الإسلام والديمقراطية هل ينسجمان؟ وكيف تقيمون الممارسة الديمقراطية في تركيا؟

نظام الحكم القائم في تركيا منذ الخمسينيات هو نظام ديمقراطي بالرغم من كل ما يعانيه من تعثّرات، فالديمقراطية هي نظام يتّجه إليه العالم اليوم. لقد بدأت البوادر الأولى نحو نقل بلادنا إلى الديمقراطية منذ أواخر الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م من طرف السلاطين العثمانيين الذين كانوا في الوقت نفسه خلفاء العالم الإسلامي، حيث شكّل النوّاب من غير المسلمين في أوّل برلمانٍ مُنتَخب ديمقراطيًّا نسبةَ الثلُث تقريبًا.

إن الاعتماد على الحماس الجماهيري والحراك الجماهيري فحسب، لا يولّد نتيجة سليمة.. في تلك الفترة كنتُ أقول دائمًا: "علينا أن ننظر إلى "الأمواج المنبثقة من القاع"، وإلا فإن الضرر الناتج قد يخيّب آمالنا وتوقعاتنا".

ولذا فمن الخطأ أن ننظر إلى الإسلام وكأنه متعارض مع الديمقراطية، والعكس صحيح. ويمكن القول إن الديمقراطية هي النظام الأنسب لمبادئ الحكم في الإسلام لكونها تتيح الفرصة للنّاخبين أن يُحاسِبوا الحكّام المنتخَبين ويسائلوهم، ولكونها نقيضًا للاستبداد الذي يعتبره الإسلام شرًّا وفسادًا في الحكم. فليس للإسلام مشكلة مع الانتخابات الديمقراطية والمساءلة وسيادة القانون وغيرها من المبادئ الديمقراطية الأخرى. وعندما صرّحتُ عام ١٩٩٤م بأنه "لا ينبغي التراجع عن الديمقراطية"، قُوبلت هذه التصريحات بالاعتراض من بعض الفئات. والحقيقة أن هناك العديد من التطبيقات والأنماط للديمقراطية لا يمكننا القول إنها بلغت حدّ الكمال، بل هي في طريقها إلى الاكتمال.

إن البلد الذي يتم فيه حفظ الدين والنفْس والعقل والنسل والمال، ولا تُقيَّد فيه حقوق الأفراد وحرياتهم إلا في الحالات الاستثنائية القصوى كالحروب مثلاً، وتُعامَل فيه الأقليّات بالتساوي مع باقي المواطنين ولا يتعرضون لأي تمييز، ويُتاح للجميع التعبير عن وجهات نظرهم الشخصية والاجتماعية والسياسية بكل حرية والعمل بها؛ هو بلد مُناسب للإسلام. وإذا كان الناس في بلدٍ كهذا يمكنهم التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم بحرّية ويؤدّون واجباتهم وشعائرهم الدينية، ويتمتّعون بحريات مثل الملكية الخاصة، فليسوا مطالَبين -مسلمين كانوا أو أتباعَ ديانات أخرى- بتغيير نظام الحكم في ذاك البلد. أمّا البلدان التي لا يتمتّع فيها الناس بهذه الحريات، فعليهم أن يحاولوا الحصول عليها من خلال وسائل ديمقراطية دون اللجوء إلى العنف بتاتًا.

أعتقد أنه بإمكان الإسلام والديمقراطية أن يتعايشا

سلميًّا ليس فقط في تركيا، بل أيضًا في البلدان المسلمة، وفي البلدان ذات الأغلبية والكثافة الإسلامية. للأسف يلاحظ أنه في البلدان التي يتم فيها شيطنة الديمقراطية، تكثر انتهاكات حقوق الإنسان، والاضطرابات الأخلاقية والقانونية، والنزاعات والصراعات الدينية والعرقية. إن الديمقراطية حاليًّا تتطور لتصبح -إن جاز التعبير- عرفًا وقيمة مشتركة للجنس البشري بأكمله. ففي البلدان التي تتوافق مع معايير الاتحاد الأوروبي، يحق للمسلمين من خلال مؤسسات المجتمع المدني ممارسة دينهم وتطبيقه وتمثيله بل ونشره وتعليمه أيضًا. ومن ثم فإن وظيفتنا الأساسية أن نمارس قيمنا الإسلامية ونتمثلها حيّة سواء أفرادًا كنّا أو مجتمعًا مدنيًّا.

لا يمكن وصف تركيا بأنها دولة ديمقراطية بشكل كامل. فالمتدينون الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد في الماضي، مثل الطالبات اللواتي مُنِعْنَ من ارتداء الحجاب في الجامعات، قد نالوا مؤخَّرًا العديد من حقوقهن نتيجةً لمساعي الانضمام للاتحاد الأوروبي؛ ومن ثم فإن عملية الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي قد عادت بالكثير من الفوائد على تركيا من هذه الجهة، وتم إدخال إصلاحات ديمقراطية جدّية للبلاد في إطار هذه المساعي. وإذا استمرت هذه الإصلاحات واستطاع النظام الديمقراطي في تركيا تحقيق معايير الاتحاد الأوروبي فيما يتعلق بسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان والحريات، فباعتقادي لن تقف هوية تركيا المسلمة حجر عثرة أمام عضويتها الكاملة. حتى لو قام متعصبون كارهون للإسلام في أوروبا بمنع انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، فإن المكاسب التي حقّقتها تركيا أثناء محاولتها الحصولَ على العضوية تبقى انتصارًا مهمًّا للديمقراطية فيها. إلا أن تركيا -مع الأسف- قد بدأت مؤخّرًا تتراجع عن تحقيق تلك المعايير الديمقراطية للاتحاد الأوروبي.

س: ما هي المشكلات الملحة والعاجلة في تركيا من وجهة نظركم؟

لعل المشكلات الأكثر عاجلية، هي الموضوعات التي ما زالت تحافظ على أهميتها حتى الآن؛ النزاعات والخلافات والتفرقة. ولقد تَطرَّق إلى النقاط ذاتها ذلك الإنسان العظيم (بديع الزمان سعيد النورسي) في بداية القرن العشرين. إننا نعاني من ثلاثة أمراض: الأول خلافات لا تستند إلى معنى معقول أو منطقي، ولكنها تُثِير الناس ليأكل بعضهم بعضًا. هذا مرض ينبغي إزالته. فإذا كانت إزالته ستتمُّ عن طريق مبادرات مثل "المسجد مع دار الجَمْع" فعليكم أن تفعلوا ذلك، وإذا كانت إزالته في النزاع التركي الكردي ستتم من خلال أنشطة التربية والتعليم، ومن خلال فعاليات أخرى تنقذهم من أيدي مَن يريدون أن يمزِّقوا تركيا ويقسِّموها، فستفعلون ذلك.

ثم إشكالية الفقر.. هذه الإشكالية أيضًا ذكرها الأستاذ النورسي، وينبغي إزالتها، فهي مرض آخر. ثم هناك إشكالية الجهل. إذن هي ثلاثة أمراض أكّد ذلك الرجل العظيم (النورسي) ضرورة إعلان الحرب ضدَّها منذ ذلك الوقت. وأعتقد أن الوضع اليوم لا يختلف عن ما كان عليه سابقًا. نزاعات، وجهل، وفقر.

شخصيًّا أيقنت دائمًا أن التعليم هو أفضل وسيلة لتنشئة الأفراد وبناء قاعدة صلبة مستقرة للمجتمع. كل مشكل اجتماعي يبدأ من الفرد، ولا يمكن حَلّه على المدى الطويل إلا من خلال حله على مستوى الفرد. أما الحلول التي تعتمد على منطق التغيير الفوقي فمصيرها يكون دائمًا الفشل، خصوصًا إذا أُهملتِ الفرد. ولذلك كانت دعوتي في الأول والآخر للتعليم. وهذا ما شجّع كثيرًا من الناس الذين التقت أفكارهم مع أفكاري على إنشاء مؤسسات تعليمية مختلفة. فكانت هناك بيوت الطلبة، ومراكز تحضير للامتحانات، ومدارس خاصة، ومراكز دعم مجانية. وقد مكّنت هذه المؤسسات شرائح مجتمعية واسعة من الحصول على تعليم رفيع الجودة، الشيء الذي كان -ولحدّ الآن- متوفرًا فقط لقلة محظوظة.

أجل، يمكننا استخدام أساليب متنوعة ومناهج شتى حسب اختلاف الأوضاع وتغيُّر الظروف. قديمًا لم يكُن يخطر على بال أحد تأسيس مدارس تقوية ومراكز ثقافية ومؤسسات أخرى، فالأصل أن يُنظَر إلى ظروف اليوم

hiramagazine.com

وما تقتضيه الحاجة، ثم أن يُسعَى في ذلك الاتجاه. أما هذا الفقير فدوري لا يعدو أن يكون تشجيعًا. مثلاً عندما تَفكَّكَت روسيا (سنة ١٩٨٩)، وجدنا أن في أسيا الوسطى كثيرين من أبناء أمتنا، فقلنا نشمل هؤلاء الناس برعايتنا. في البداية ذهب ربما خمسة رجال أو عشَرة، ثم تَحوَّل ذلك إلى طريق مسلوكة، فذهب على أثرهم آخرون، ثم آخرون، ثم أعقب ذلك هجرات إلى أنحاء العالم كله يحملون مشاعل المحبة. وبإذن الله وعنايته، وعلى غرار ما يقول مولانا جلال الدين الرومي: لا يَنقُص نورُ الشمعة إذا أشعلت شمعة أخرى؛ أي إذا كنا نملك قِيَمًا طيبة تفيد الآخرين فلنأخذها إليهم، وإذا كان لديهم قِيَم طيبة فلنأخذها منهم، فبابنا مفتوح للأخذ والعطاء. فرَحَّب بهذه الفكرة كثيرون ممن ينتمون إلى اتجاهات فكرية شتَّى. وجدوها معقولة، ووجدوها منسجمة مع المنطق، حتى إنه تَطوَّع كثيرون وتَقدَّموا بمقترَحات باهرة عجيبة. بعضهم قال: "سأُسهِم ببناء جامعة"، وبعضهم قال: "سأبني مدرسة"، وهكذا سارت الأمور.

س: في الآونة الأخيرة لاحظنا غلوًّا في توجيه افتراءات إلى فضيلتكم من قبل السيد رئيس الوزراء تفوق تصور العقل. ورغم ذلك آثرتم الصمت؟

بالتأكيد تألمتُ كثيرًا وحزنتُ.. في حقيقة الأمر لم أجد تفسيرًا معقولاً -حتى اللحظة- لِما يدّعون. فبناء على أي دليل يتحدثون بهذه الثقة، لم أفهم. تلك العبارات القبيحة، وتلك الجرائم التي أسندوها إلينا، لا أذكر أن مثيلاتها قد وُجِّهت حتى من قِبل أهل الكفر إلى أهل الإيمان طوال التاريخ الإسلامي. أُصبتُ بإحباط كبير، لأنها لم تكن لائقة على لسان قائليها. أتأدب من القول إنهم يكذبون، بل أفضّل أن أقول يضلّلون الناس بقضايا مناقضة للواقع.

ولكن واسيتُ نفسي على النحو التالي، قلتُ: في كل زمان -ولا سيما في زمن الفتن- تعرّض الأبرياءُ لتشويه سمعتهم، وأهينت كرامتهم، كما أن بعض الناس الذين لم يستوعبوا حقيقة ما يحدث، كانوا شركاء في ذلك الإثم بعلم أو بغير علم. مَن نحن أصلاً حتى نشكو؟ فقد افتروا على أمِّنا عائشة رضي الله عنها في العهد النبوي السعيد، بل وأكثرُ من ذلك، فقد افترى الملحدون على الله كذبًا. فإذا ارتُكبت هذه الجرائم في حق الله، ورسوله، وفي حق العلماء والصالحين عبر التاريخ، فلماذا ينزعج -هذا القطمير- عندما يتعرض لشيء مماثل من قِبل بعض أهل الإيمان؟ نعم، بمثل هذه الأفكار أحاول أن أسرّي عن نفسي.

في الحقيقة، كلٌّ يعمل على شاكلته. مَن مَلك قابليةَ الظلم، ظَلَم. وبما أننا لا نملك نواجذ للعضّ، فلا يمكننا أن نعضّ أحدًا. ولكن لا نشكو.. فهم يظلمون ويتمادون في الظلم، أما نحن فسنبقى صابرين يقظين حذرين، وسنضرع إلى الله تعالى من أجلهم، نسأله أن يعامِل بالرحمة والمغفرة من كان عنده قابلية للرحمة والمغفرة، ونرجوه -سبحانه- أن ينجيهم من السير في الطريق الخطأ. ولا شك أن التعرض لألوان شتى من الافتراءات والمؤامرات، هو قدر السائرين في هذا الدرب في كل عصر، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله

إذا كان الناس في بلدٍ يمكنهم التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم بحرّية، ويؤدّون واجباتهم وشعائرهم الدينية، ويتمتّعون بحريات مثل الملكية الخاصة، فليسوا مطالَبين -مسلمين كانوا أو أتباعَ ديانات أخرى- بتغيير نظام الحكم في ذاك البلد.

الأرض ومن عليها. وحينما تسود البصيرة والفراسة -مع مرور الوقت- فإن الغبش والضبابية وكافة السلبيات ستزول تلقائيًا. فليس ثمة افتراء ولا مؤامرة قادرة على الصمود أمام الحكمة والبصيرة. وكم كنتُ أرجو من هؤلاء الذين انجرفوا وراء هذه الأوهام والمؤامرات، أن يحاولوا إعادةَ النظر -في ضوء الكتاب والسنة- في الطريق التي سلكوها.

وها نحن نعلن للعالم أجمع، أننا متسامحون في حقوقنا الشخصية، فقد أحللنا حقوقنا. ولكن إن كان هناك تجاوزات في حق الدين.. تجاوزات في حق هذه الأمانة المقدسة، فتلك لها صاحبها، وصاحبها يحاسب عليها دون شك.

س: يردّدون الانتقادات التي وجهتموها إلى حكومة نجم الدين أربكان وإلى طريقة تسييرها لأزمة ٢٨ فبراير ١٩٩٧، ويدّعون أنكم آزرتم الانقلاب حينئذ؟

عندما أتى حزب الرفاه في المركز الأول بعد الانتخابات التي جرت في ذلك الوقت، بدأت بعض التحركات المناوئة داخل القوات المسلحة التركية بشكل واضح، والجميع لاحظ ذلك. أخذتْ غيوم سوداء تتجمع في سماء تركيا، ولكنها لم تتحول بعدُ إلى عاصفة. أذكر أنني كنت في جلسة مع بعض الصحفيين في أنقرة مثل المرحوم "ياووز جوكمان" والسيد "فهمي (كورو)"، وكان أيضًا السيد "فاتح (شكيركه)". أفصحتُ لهؤلاء الأصدقاء عن قلقي وما بلغ مسامعي من أنباء حول الموضوع. ولكن واجهوني بردود أفعال سلبية. لم أكن الوحيد الذي يرى الخطر القادم، بل كان آخرون أيضًا يرون الخطر نفسه. وإثر فضيحة "سوسرلوك" استغلّتْ الطغمة العسكرية ردود أفعال المجتمع لحسابها، وهيأت المناخ لانقلاب عسكري. وعندما شرعوا في تفعيل خطة الانقلاب كان الأوان لإيقافها قد فات. ثم فجأة أضافوا في اللحظة الأخيرة اسم هذا الفقير إلى التقرير الذي أعدته المخابرات التركية حول فضيحة "سوسرلوك". فيما بعد علمتُ مَنْ فعل ذلك، إلا أني لم أفش أسماء أهل الإيمان هؤلاء، ولم أطعن فيهم أبدًا، وفضّلت أن أدفنها في أعماق قلبي.

ثم جاءت قرارات ٢٨ فبراير. كانت المادة الثانية من بيان تلك القرارات تنص على ضرورة تأميم المدارس وفق قانون "توحيد التعليم". وعندما بلغ التوتر في البلد حدًّا خطيرًا طرحتُ -ككثير من الناس- فكرة الإعلان عن انتخابات مبكرة كحل للخروج من هذه الأزمة بأقل أضرار ممكنة. كما أكّدتُ على ضرورة إصدار قانون انتخابات جديد ينقل البلدَ إلى انتخابات مبكرة. لستُ أنا الفقير فقط مَن قال ذلك؛ إنما كثير من الأسماء أيضًا -وعلى رأسهم "كوركوت أوزال"- شاركوني في رأيي هذا. حتى إن بعض وسائل الإعلام الموالية للحكومة، أيّدت هذه الفكرة ونقلتها إلى مانشيتاتها، وإذا رجعتم إلى الأرشيفات فسترون كل ما كُتِب وقيل في تلك الأيام.

في هذا الصدد، نبّهتُ السيد "نجاتي جليك" وزير العمل في تلك الأيام إلى بوادر قدوم الانقلاب، وحذرته من المناخ الانقلابي الذي بدأ يتشّكل في البلاد، ولديّ شهود على ذلك، قلتُ له "يخططون لإحداث انقلاب ضد الحكومة...". كنتُ أبذل قصارى جهدي لمنع وقوع ضربة مقوّضة للديمقراطية. السيد نجاتي استمع إلى مخاوفي بحماس وانفعال ثم قام وذهب. نقل الأمرَ إلى الأستاذ المرحوم أربكان، ولكن لم تأت أيُّ مبادرة تشير إلى نيةٍ للحيلولة دون وقوع الكارثة.

كذلك حاولتُ أن أحذّر السيدة "تانسو تشيلّر" من الخطر القادم أيضًا، ونبهتُها إلى التطورات السيئة، لكنها قالت "أدعوكم إلى التوازن"، تألمتُ كثيرًا وحزنتُ.. لذلك لم أدخل معها في التفاصيل. عندما رأيت أنني لم أستطع إقناع أحد، شعرتُ بضرورة قول شيء مّا يمنع التدخل في المسيرة الديمقراطية.

ليس من أدبي أن أقول لأحد "فشلتم". والكلّ يشهد أنني أكنّ احترامًا للجميع، وبخاصة لمن يشغل مناصب تمثيل الشعب. في تلك الأيام حاولتُ من خلال التذكير بنماذج سامقة في تاريخنا كسيدنا أبي بكر وعمر، أنْ أشرح أنّ الانسحاب من السلطة في مثل هذه الظروف الحرجة ليس مذلّة وليس مَدعًى لمذمّة، أي إذا كان الرجوع إلى الشعب سيمنع وقوع كوارث أكثر فظاعة، فمن الحكمة اختيارُ ذلك. الأمر نفسه ينطبق على انقلاب

إن التعليم هو أفضل وسيلة لتنشئة الأفراد وبناء قاعدة صلبة مستقرة للمجتمع. كل مشكل اجتماعي يبدأ من الفرد، ولا يمكن حَلّه على المدى الطويل إلا من خلال حله على مستوى الفرد. أما الحلول التي تعتمد على منطق التغيير الفوقي فمصيرها يكون دائمًا الفشل، خصوصًا إذا أَهملتِ الفرد.

حراء

٢٧ مايو ١٩٦٠، وانقلاب ١٢ سبتمبر ١٩٨٠ كذلك. وقد لجأت حكومةُ العدالة والتنمية إثر المذكرة العسكرية في ٢٧ أبريل ٢٠٠٧ إلى هذا النهج، حيث اتخذت -خلال أسبوع واحد- قرارًا بالخوض في انتخابات مبكِّرة، ومن ثم تمكّنت من اجتياز هذه العقبة. أي إن الحكومة عندما قررت الرجوع إلى الشعب، وأحالت الأمر إلى صناديق الاقتراع، أفشلت اللعبة التي أسقطوا بمثلها حكومة فبراير ١٩٩٧. هذا ما كنتُ أقوله: "غيّروا قانون الانتخابات، واذهبوا بالبلد إلى انتخابات مبكرة".

ولابد أن ألفت الانتباه هنا إلى نقطة غاية في الأهمية.. وهي أنه إذا أمعنتم النظر في تقرير فضيحة سوسرلوك وقرارات ٢٨ فبراير، ستجدون أن الطغمة العسكرية آنذاك، استهدفت بالدرجة الأولى حركة "الخدمة". وما عشناه لاحقًا من مآسٍ، كان تنفيذا لتلك المخططات السوداوية. وكلّ ادعاء يناقض ذلك بعيد عن الإنصاف، بعيد عن الحقيقة، بل هو الظلم بعينه.

س: هل تشعرون بأنكم تعيشون اليوم المآسي نفسها؟
لقد تعرضنا لمثل هذه المآسي والضغوطات مرارًا؛ ففي انقلاب ١٢ مارس ١٩٧١ سُجنتُ ٦ أشهر ونصف. كانت المادة ١٦٣ في تلك الأيام تعمل مثل المِقْصَلة فوق رؤوس المسلمين، حتى جاء "تورغوط أوزال" وألغى هذه المادة. وفي انقلاب ١٢ سبتمبر ١٩٨٠ طاردني الأمن ٦ سنوات كما يطارَد المجرمون. وداهموا بعض الأماكن بحثًا عني، وتعرّض إخواني لمضايقات شديدة. أما ما نعاني منه اليوم، فهو يزيد على ما كنا نعاني منه أيام الانقلابات العسكرية بعشرة أضعاف. رغم كل شيء، لستُ شاكيًا. الفرق في هذه المرة أننا نتعرض للمعاملة السيئة نفسها من قِبل مدنيين كنا نحسب أننا

نتجه وإياهم إلى قبلة واحدة، لذلك أصدُقك القول بأن إحساسي بالألم مضاعف هذه المرة. ولكن ما باليد من حيلة سوى أن نقول "فصبر جميل"، لابد لهذه الكربة أن تزول كما زالت شقيقاتها الأخرى، والسلام.

س: لقد وردت مزاعمُ في بعض وسائل الإعلام المحسوبة على الحكومة، بأن الخدمة هي التي نفّذت عمليات الفساد في ١٧ ديسمبر ٢٠١٣. كيف تقيّمون ذلك؟

إن البعض يصرّ على اتهام "الخدمة" على الرغم من أننا نشرنا مرارًا العديد من البيانات للتكذيب والتوضيح والتصحيح. وكما قلتُ سابقًا، فإن بعض النوابِ العامّين وقواتِ الشرطة المكلّفة بتنفيذ القانون، قد أدّوا المهمة التي يطلبها القانونُ منهم دون أن يعلموا أن ترصّد ومطاردة المجرمين صار يُعتبر جريمة! أي إنهم لم يتخيّلوا أن أضرارًا ستلحق بهم جراء أداء وظائفهم. والذي حصل أن الذين أشرفوا على تحقيقات ١٧ ديسمبر، بل الآلاف من الموظفين الذين لم يكن لهم أيّ صلة بتلك التحقيقات، تعرّضوا للنفي والتشريد دون مراعاة حقوقهم وحقوق أفراد عائلاتهم أبدًا. ثم بادر أعضاء الحكومة إلى اتهام "الخدمة" ومهاجتمها وكأنّ شيئًا لم يحدث وكأن فسادًا لم يقع. وعمدوا إلى اختلاق أكاذيبَ ونشرها واحدة تلو الأخرى، وما زالوا يفعلون ذلك.

قبل كلّ شيء، فإن تحقيقات الفساد والرشوة لم تأت فجأة، فجهاز المخابرات قد أعدّ قبل نحو ٨ أو ٩ أشهر تقريرًا قدمه لرئيس الوزراء، وأكد فيه أن بعضًا ممن يحتمل أن يكونوا جواسيس لإيران، قد سيطروا على وزراء في الدولة وبعضًا من أبناء الوزراء، بل حتى تسلّلوا إلى مجلس الوزراء للقيام ببعض الأشغال الغامضة، ولكنه تم التجاهل والتغاضي عن هذا التقرير تمامًا. فضلاً عن ذلك، فإن وسائل الإعلام المقربة من الحكومة قد نشرت أخبارًا في صفحاتها بهذا الشأن، إلا أنها لم تلقَ اهتمامًا كذلك. لم يفكّروا في منع وقوع أعمال الفساد. ولما بدأت تحقيقات الـ١٧ من ديسمبر، لم يجدوا مخرجًا من هذا المأزق، فقرّروا التخلّص منها عن طريق كيل الاتهامات واختلاق الجرائم لأناس أبرياء. وكما

بيّنتُ سلفًا، فإن هؤلاء المشرفين على هذه التحقيقات لا أعرفهم شخصيًّا، ولم يكن لي أيّ صلة بهم. وقد ردّدتُ ذلك مرارًا وقلتُ "لا أعرف واحدًا في الألف منهم..."، إلا أنهم استمروا في ربط هؤلاء بشخصي.

أما الذي حزّ في نفسي وأشعرني بالإحباط أصلاً، فَهو صمت السياسيين الذين عرفتُهم شرفاءَ صادقين. إذ كنتُ أتوقّع من هؤلاء الذين أعرفهم منذ القديم، وأعتقد بصلاحهم وعدم مخالفتهم لضمائرهم، أن لا يبقوا صامتين أمام أعمال الفساد والعلاقات المبنية على الرشوة. كنتُ أظنّهم هكذا. كنتُ أنتظر منهم ردّ الفعل الذي أبداه المرحوم "تورغوط أوزال" الرئيس التركي الأسبق -أسكنه الله فسيح جناته- إزاء مثل هذه الأعمال القبيحة، ولكنهم لم يفعلوا. ولما سكتَ هؤلاء لم يتجنّب مَنْ ارتكبوا "جريمة واحدة" ارتكابَ "ألف جريمة" أخرى، وابتدعوا طريقة لم يُسبَق إليها طوال تاريخ الجمهورية التركية. فبدلاً من إطلاق حملة ضد الضالعين في ممارسات الفساد، أطلقوا حملة ضد أولئك القائمين على تحقيقات الفساد.

إن الإسلام حرّم أعمال الفساد وفرض عليها عقوبات زاجرة، واعتبرها من مساوئ الأخلاق وحضّ على الابتعاد عنها. فلا يمكن تسويغ وتصويب أيّ نوع من أنواع الفساد، ولا يمكن أن يُترك مرتكبُه دون عقاب. فالذنب أو الخطأ إن كان فرديًّا، ولم تكن أضرارُه راجعة إلى المجتمع، فالإسلام في هذه الحالة يَطلب التجاوزَ والصفح عن ذلك الإنسان، ولا يَسمح أبدًا بالتلاعب بكرامته وشرفه. لذا ينبغي عدم الخلط بين هاتين النقطتين؛ أيْ إن الإسلام يحثّ على إبداء حساسية فائقة للغاية، ويضع عقوبات محددة إن كانت المسألة متعلقة بأكل حقوق الناس أو متعلقة بأعمال فساد مختلفة.. فعلى سبيل المثال، عزل عمر بن خطاب ﷺ عياض بن غانم، كذا عزل واليًا، وحاكمَ إقليم، وعزل أيضًا عمرو بن العاص من منصبه. كذلك عزَل واحدًا من الولاة المشهورين، وكان غازيًا وفاتحًا في غزوة القادسية ضد الإيرانيين، عزله ثم استدعاه إلى المدينة المنوّرة. في الحقيقة، لم يكنْ له أيّ ذنب، ولكن ذاعت في حقه إشاعات.. ولا يمكن لإنسانٍ انتشرت في حقه إشاعات أن يكون واليًا، لأن الناس لن يسمعوا له ولن يطيعوه. بناء على ذلك، فإن كانت هناك رشوة وجرائم ترتكب، ومحسوبية، وممارسة فساد في المناقصات، وأمور أخرى تتعارض مع مصالح الأمة، ويتمّ التستّر عليها، فإن الله جل وعلا سيحاسِب عليها لا محالة.

> لا شك أن التعرض لألوان شتى من الافتراءات والمؤامرات، هو قدر السائرين في هذا الدرب في كل عصر، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وحينما تسود البصيرة والفراسة، فإن الغبش والضبابية وكافة السلبيات ستزول تلقائيًّا.

حراء

إن القرآن الكريم يسمّي مثل هذه الممارسات الفاسدة بـ"الغلول". وهو يأتي بمعنى الاستيلاء على شيء دون وجه حق، والانتفاع به، واختلاس شيء من المال العام، وخيانة الأمانة وما إلى ذلك. كما تُعَدّ إساءة استعمال أموال الدولة ذنبًا وجريمة من هذا النوع. وقد تكون إساءة الاستعمال هذه ببضعة قروش حينًا، وبأكياس مليئة بالنقود المملوكة لخزينة الدولة أحيانًا أخرى... وقد تكون عن طريق الحصول على منصبٍ عبر الوساطة والمحسوبية لا بالكفاءة والجدارة والأهلية. فكل شيء تملّكه الإنسان دون وجه حق، وكذلك كل إمكان حصل عليه من خلال وسائل غير مشروعة، فهو غلول.

والطامة الكبرى هي أننا بأحوالنا هذه نفتح جرحًا غائرًا في قلب الإسلام دون أن نشعر. فإذا ما خرقنا قيم الصدق والإخلاص في حياتنا الشخصية، نكون قد أحدثنا شرخا في الدين وفي فكر من يشكّل قناعته عن الإسلام من خلال سلوكنا ومواقفنا. أظنّ أن الرغبة في المناصب السياسية تزداد نظرًا لأنها تشكّل مصدرًا لمثل هذه الغنائم والعمولات. أجل، إذا لم تنتبهوا إلى تزكية قلوبكم على الدوام، فقد تجدون أنفسكم تائهين في متاهات مظلمة حتى لو انتشرتم -أصلاً- مع إخوانكم في أنحاء العالم بقصد نشر قيم الإسلام السامية من صدق وإخلاص. والأدهى من ذلك والأمرّ هو خيبة الأمل

hiramagazine.com

التي سيصاب بها هؤلاء الذين علّقوا آمالهم عليكم.

س: هل يمكن أن نقول بأن ثمة صراعًا بين حزب العدالة والتنمية، و"الخدمة"؟

المسألة ليست قضية صراع بين حزب العدالة والتنمية، والخدمة. في السنوات الأخيرة بدأ موضوع الحقوق والحريات الأساسية في تركيا يتقلص بشكل خطير. فلغة السياسة الهدامة المفتِّتة باتت تهدد وحدة المجتمع وتدفعه نحو الاستقطاب بكل حدّة. وخلال أحداث "كيزي" اعترضتُ على تسمية المتظاهرين بـ"الأوباش" وقلتُ "ينبغي ألا يُتلفَّظ بذلك". ونفس الشيء ينطبق على العَلويين أيضًا، وهذا طبيعي في ظل عدم السعي إلى إيجاد حلول ديمقراطية تدافع عن حقوقهم الطبيعية، بل وربما عدم الرغبة في إيجاد تلك الحقوق. لقد أيّدنا "مشروع المسجد وبيت الجَمْع"، ولكنه لاقى انتقادات حادة مِن جهات غير متوقَّعة.

من ناحية أخرى، نحن لسنا حزبًا سياسيًّا ولن نكون أبدًا. بناء على ذلك فلسنا بصدد منافسةٍ مع أيّ حزب، ونقف من الجميع على مسافة واحدة. وعلى الرغم من ذلك، نتشاطر مع الرأي العام قلقَنا وآمالنا فيما يتعلق بمستقبل بلادنا. أعتقد أن هذا أمر طبيعي نمارسه بموجب حقوقنا الطبيعية والديمقراطية. ولذلك أجد غرابة فيمن ينزعجون من ذلك، فهل صار القول للمسؤولين "لديّ فكرة كذا..." تهمة؟ إن الأفراد في الديمقراطيات المتقدمة وكذلك مؤسسات المجتمع المدني التي تتشكل من هؤلاء الأفراد، يحق لهم توجيه الانتقادات وإبداء الآراء وتبادلها مع الرأي العام دون أن يسبب ذلك إزعاجًا لأي أحد.

إضافة إلى أن كل المؤسسات التي أقامها إخواننا تعمل وفق القوانين، وهي خاضعة لرقابة الدولة وتفتيشها، مما يعني أننا نتحدث عن عمل شفاف بكل معنى الكلمة. مشروع الخدمة عماده التطوع، وإنّ اتهام أناس لم يؤذوا في حياتهم أحدًا ولو نملة واحدة، ويراعون القوانين رعاية كاملة، بأنهم "منظمة سرية" أمر باعث للأسف.

ولا يخفى عليكم أن مؤسسات الدولة فيها كل الأطياف والأفكار؛ يميني، يساري، علَوي، سُنّي، غير مسلم، كردي، تركي... كلٌّ يقوم بوظيفته التي كُلّف بها

مـن قِبل الدولـة. والأصـل في ذلك أن يـؤدي الموظفُ مهامه في إطار القانون. وأيًّا كانت الأفكار التي يعتنقونها، فـإن تصنيـف هـؤلاء الموظفين أثناء عملهم في مؤسسة الدولـة حسب أفكارهـم وانتماءاتهـم في قوائم سـوداء، واتهامهـم دون دليـل، يمثـل تجاوزًا في حقهـم واعتداء علـى حقوقهـم. وفـي حـال عدم وجـود أي جريمـة ثابتـة، وادعائكم وجـود دولـة موازية، فإن أوهامكم هذه ستضع أمامكـم ألـف دولـة موازية. وفي هذه الحال سـتعرّضون كثيرًا من الأبرياء للظلم.

س: اتخـذت الحكومـة التركيـة قـرارًا بإغـلاق المعاهد التحضيريـة للخدمـة؟ فهـل تعتقـدون أن خطـة الإغـلاق جديدة أم كان يخطط لها من قبل؟

بدا واضحًـا -بعد البيانات التي صدرت على لسان رئيس الحكومـة- أن جـذور قضيـة إغلاق المعاهـد التحضيرية لا تعـود إلـى مـا قبل شـهرين أو ثلاثة أشـهر؛ حيث قالوا فـي تلـك الأيام مـع ذكر أسـماء وزراء التربيـة والتعليم: "هـذا لـم يسـتطع إغلاقهـا، وهـذا لـم يسـتطـع، وذلـك لـم يسـتطـع... أمـا الوزيـر الجديد فسـيحقّق ذلـك" ومـا إلى هـذا من الأقوال المشـابهة، مما يعنـي أن هذه القضية تمّ التخطيـط لهـا منذ فتـرة طويلـة، ولعلها وعـد قطعوه على أنفسـهم لحسـاب جهـات معيّنـة. إذ وردت فـي وسـائل الإعـلام مزاعـم بوجـود مثل هذا الوعد لحسـاب جهات معيّنـة. لقـد تبيّن اليـوم بصورة أكثر من السـابق، أنهم لم يغلقوا تلك المعاهد انطلاقًا من نية رفـع مستوى التعليم في المدارس إلى مسـتويات أعلى؛ إذ ظهر بشـكل جلي أن النيـة هـي منْـع النشـاطات التعليمية لحركـة الخدمة. هـا هـم ينادون فـي الميادين أنْ "لا ترسـلوا أولادكم إلى مدارسـهم ومعاهدهم، بل قاطعوها"، أيْ إن نيتهم كانت البدءَ مـن إغـلاق المعاهـد ثـم الانتقـال إلى المـدارس، ومن ثم الانتهاء بالسـعي إلى إغلاق المدارس الموجودة في كافة أنحاء العالم. والملاحظات التي أبدتها السـيدة "نازلـي إيليجـاك" فـي هـذا المضمـار، يبـدو أنهـا تفسـير منطقـي لهـذا الأمر؛ حيث قالت إنه من الممكن أن تكون الحكومـة قـد اطلعت على التحضيـرات الجارية لإجراء تحقيقات الفسـاد تلك، وبحكم مسـبق من عندها فكّرت

الطاعة لأولي الأمر، لا تعني السـكوت حيال أخطاء الإداريــين والتخــلي عن الحــق والحقيقــة. ثم إن مهمــة "الأمر بالمعــروف والنهي عــن المنكر" لا تمارَس على المواطــن العادي الذي يمشي في الشارع فقط، بل تشمل الجميع.

حراء

بأنه يمكن لحركة الخدمة أن تَحول دون ذلك، فخطّطت لوضْعهـا كحائلٍ أمام الأمواج القادمة إليها عبر ابتزازها عن طريق المعاهدِ التحضيرية وشنّ حرب نفسية ضدها. ليتهـم أعلنـوا عن نيتهـم هذه وقالوا: "لا نريـد أن تعملوا فـي مجـال المعاهد التحضيرية" حتى لا يظلموا المعاهد الأخرى التي لا صلة لها بـ"الخدمة". لأن الإنسان يحزن مـن أجـل هـؤلاء النـاس الذين بنـوا تلك المعاهـد بعرق جبينهـم ومحض أموالهم. وكمـا تعلمون إن ثلاثة آلاف مـن تلـك المعاهد البالـغ مجمـوع عددها حوالي ٣٨٠٠ ليـس لهـا أي علاقـة مـع رؤيـة الخدمـة. ثم من الضروري معرفة الأمور التالية:

أولاً: إن المعاهد التحضيرية ظهرت نتيجةً للعديد من جوانب القصور في النظام التعليمي التركي. فهي مؤسسات خاصـة تـدار من قبل أنـاسٍ ملتزمين بالقانون، ومؤسّسة طبقًـا لمبادئ الحرّيـات الخاصـة التـي كفلهـا الدسـتور.

ثانيًا: هـذه المعاهـد لا تتبـع الخدمـة بشـكل مباشـر، وإنمـا تـدار عـن طريق عدد من شـركات القطاع الخاص المملوكة لرجال أعمال يؤمنون بأفكار الخدمة. وتخضع هـذه المعاهـد لرقابـة الدولـة من حيـث مواردهـا المالية والمقـرّرات الدراسـية، كمـا تسـدّد الضرائب المسـتحقّة عليها للدولة، شأنها شأن المؤسسات الأخرى. بالإضافة إلى أن هذه المعاهد المحسوبة على الخدمة، تمثل نسبة صغيرة فقط من عموم المدارس التحضيرية في تركيا.

ثم إن هذه المعاهد منذ عقود وهي تلبّي حاجة ملحّة لـدى الطلبـة فـي مجالـي الرياضيات والعلـوم على وجه الخصوص، بناءً على طلب أولياء الأمور في إطار القوانين المرعيـة، فإغلاقهـا بقـوّة الدولـة ضربـة لقطـاع النشـاط الحر، وحرمان للطلاب من الحصول على تعليم أفضل. ومـن جهـة أخرى، فالقائمـون على التعليم في هذه

المعاهد، يمتثلون للمبادئ الأساسية لرؤية الخدمة؛ مثل الإيجابية والاستقامة والصدق والعمل الجاد واحترام الآخر.. الأمر الذي يترك أثرًا إيجابيًّا لدى طلابهم؛ ومن ثم نستطيع أن نقول إن هذه المعاهد قد نجحت في مكافحة العادات السيئة لدى هؤلاء الطلاب، مثل التدخين، وإدمان الكحول، وحتى تعاطي المخدرات، التي تعد من التحدّيات الكبيرة التي تواجهها المدارس الحكومية في تركيا.

فإغلاق هذه المعاهد التي لم تخرق القانون والقيم الأخلاقية يومًا ما، ولم تخالف مبادئ الديمقراطية والقيم الكونية؛ ودون طلب من الرأي العام أو حتى مناقشة قرار الإغلاق نقاشًا مجتمعيًّا كافيًا، سيؤدّي بالضرورة إلى إهدار كل المكتسبات التي تحقّقت حتى اليوم.

واسمحوا لي أن أستطرد قليلاً.. ينبغي على الحكومة أن تركّز على مشاكل وقضايا أكثر جديةً وخطورةً. لقد قرأتُ منذ مدة مقالاً لواحد من أصدقائنا الأكاديميين يقول فيه إن حالات الانتحار زادت بنسبة ٣٦٪ خلال ١٢ عامًا. كما أن انتشار عدوى تعاطي المخدرات على نطاق واسع في المدارس الثانوية آخذ في التزايد، حيث بلغت نسبة من يشربون الكحول من الطلاب ٣٢٪. ووفقًا لتصريحات طبية نفسية، ارتفع عددُ مَنْ يتلقون العلاج جراء تعاطي المخدرات ١٧ ضعفًا في ١٠ أعوام. هذه المعطيات مخيفة جدًّا تهدد أخلاقَ المجتمع وقيمَه. وإن كان الواقع هكذا، فَبأيّ شيء يمكنكم أن تفسّروا وتبرّروا إنقاذ التعليم بإغلاق المعاهد التحضيرية، بينما تشكّل هذه المشاكل الضخمة مخاطر كبيرة تهدّد نظام التعليم وحتى مستقبل البلاد؟ هل سيمنعون -بإغلاق المعاهد التحضيرية- حدوثَ هذا التشوّه والتحلّل؟

وإن هذه المعاهد، مؤسساتٌ تعليمية تمارس إلى جانب دورها التعليمي دورًا في مكافحة هذا التشوّه والتحلّل أيضًا؛ فضلاً عن ذلك، فإن قلبي يتفطّر عندما أفكّر في الفراغ المحتمل الذي يمكن أن يحدث نتيجة إغلاق تلك المعاهد في المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد. ويصعب عليّ أن أفهم إقبال المسؤولين بهذه السهولة على تعريض وحدة البلاد للخطر في سبيل تحقيق مصالح صغيرة جدًّا.

hiramagazine.com

س: هل سبق أن صوّتم في الانتخابات؟ وهل تُوجّهون محبيكم لكي يصوّتوا لحزب بعينه؟

شخصيًّا لم يُكتَب لي نصيب للتصويت إلا مرة واحدة طوال حياتي، لأنني كنت إمَّا في السجن، وإمَّا مطارَدًا، وإما محرومًا من استخدام حقوقي الشخصية، لذلك صوَّتُّ مرة واحدة فقط. لم أكُن ضدَّ الانتخابات أو التصويت قط، ولم أقصد مقاطعتها مُطلَقًا، بل إن ذلك حقّ ديمقراطي، وأحث الجميع على أن يمارس هذا الحق.

من جهة أخرى هناك غلوّ في الحديث عن الانتخابات. إن الإكثار من الحديث عن الانتخابات إلى حد الهوس، واختزال معنى الحياة في صندوق الاقتراع، حالة لا أراها تليق بالمؤمن. بالتأكيد صندوق الاقتراع مهم من أجل مستقبل البلد، ولكنه ليس كل شيء. إن إلقاء "صندوق العمل" جانبًا، والانشغال بصندوق الاقتراع فقط، مآله خروج البعض عن الجادة وانحرافهم عن الطريق، وهذا ما نشاهده اليوم.

في موضوع التصويت في الانتخابات، هذا الفقير

يقول منذ القديم: "صوّتوا حسب قناعتكم الوجدانية". ذلك لأني أعتبر قولَ "لابد أن تصوِّتوا للحزب الفلاني" نوعًا من ممارسة الإكراه والضغط النفسي على الناس، كما أعتبر الارتباط بحزب معين نوعًا من الانفصال والابتعاد عن شرائح المجتمع الأخرى. أما موقفنا الواضح والصريح الذي أبديناه في استفتاء ١٢ سبتمبر ٢٠١٠، فلم يكن انحيازًا لحزب بعينه، إنما كان دعمًا للمكتسبات الديمقراطية التي كان ينص عليها الاستفتاء. وإن كان لابد من قول شيء فأقول: "أيّدوا من سيقف وقفة رجولة في الدفاع عن الحقّ والحريات الأساسية والقانون والشفافية وروح التوافق والديمقراطية، أيّدوا من كان صادقًا مخلصًا سديدًا، أيّدوا من كان موقِّرا للديمقراطية، أيّدوا من يحسن التعامل مع الجوار، صوِّتوا لمن يحمل هذه الأوصاف، أي إن المعيار عندنا هي الأوصاف". أما تعيين حزب ما باسمه، فإني أَعُدّ ذلك إهانة منّي لفراسة الناس وعقولهم. الجميع يرى كل شيء بوضوح، لذلك لا يمكن أن أُكرِه أحدًا على أن يختار حزبًا بعينه.

س: بعد اتهامات رئيس الوزراء "الخدمة" بالمنظمة الإجرامية، هل يمكن أن نقول إن تحالفكم قد بلغ نهايته؟

إن تحالفنا كان حول القيم الإنسانية والمبادئ الكونية، ولقد دعمنا الإصلاحات الديمقراطية التي قام بها حزب العدالة والتنمية طوال مدة حكمه، لكننا كذلك انتقدنا وعارضنا الإجراءات اللاديمقراطية. ففي سنة ٢٠٠٥ مثلاً، انتقدنا مشروع قانون مكافحة الإرهاب، الذي كان غير واضح في تعريفه بجرائم الإرهاب، وكان سيلحق ضررًا ببعض الحريات.

لقد كان توجه حزب العدالة والتنمية العام خلال المدة ما بين ٢٠٠٣ و٢٠١٠ ينحو نحو الإصلاحات الديمقراطية، وقد أيّدت ذلك شرائحُ واسعة من الشعب التركي. كما أن هذا بدا واضحًا في استفتاء ٢٠١٠ الذي حصل على موافقة ٥٨٪. وبالفعل فقد حققت تركيا نموًّا اقتصاديًّا وديمقراطيًّا خلال السنوات الماضية، لكننا نود استمرار هذه الإصلاحات الديمقراطية. فالشعب التركي الذي دعم التعديلات الدستورية لسنة ٢٠١٠ برفعه شعار "هذا جيد، لكنه غير كاف" مُستاء اليوم لملاحظة تراجع التقدم الديمقراطي في العامين الأخيرين.

أكرر مرة أخرى فأقول إننا لم يسبق لنا أن كوّنّا أي تحالف أو شراكة مع أي حزب أو مرشح. فدعمُنا أو انتقادنا كان دائمًا من أجل القيم والمبادئ. ومثل هذا التحالف لن يكون في المستقبل أيضًا. وكفاعلين في المجتمع المدني، من الواجب علينا أن نبقى منفتحين على جميع مكوّنات المجتمع. والمهم أن قيمنا واضحة؛ الديمقراطية، حقوق الإنسان الكونية، الحريات، الحكومة الشفافة والمسؤولة أمام الجميع... إلخ، وعندما تتسنى الفرصة لهم، فسيقوم أفراد "الخدمة" كأيّ مواطن آخر باختيار الأنسب بناء على قيمهم.

س: يقولون لماذا تعارضون الآن حزبًا تحالفتم معه طيلة ١٢ سنة؟ ألم تكن بينكما مصلحة مشتركة؟

لم نتحالف مع أي حزب سياسي على أساس مصلحي أبدًا. حافظنا دائمًا على استغنائنا، لأن الدروس التي أفدناها من القرآن والسنة كانت تقتضي ذلك. دائمًا ما اعتبرتُ السعي إلى المناصب والمساومة من أجلها خيانة للمبادئ التي آمنا بها. لا أقول شيئًا حول اجتهادات الآخرين وأفكارهم، فلكلٍّ رأيه واجتهاده، ولكن دائمًا نظرت إلى طلب الدنيا ورغبة الحصول على الإعجاب والشهرة على أنها خطر على آخرتي، وكذلك إخواني. نحن لم نطلب قط إدارة عامة، ولا منصبَ محافظ، ولا وزارة... وإذا كان بيننا من طلبوا ذلك -إلا أني لا أتذكر شيئًا من هذا القبيل- فليسوا منّا، وإنْ وُجدوا سابقًا فلم يبق أحد منهم بيننا اليوم، وقد بيّنتُ رؤيتي هذه لرجال الدولة مرارًا. نحن حاولنا وبإخلاص تقديم

لو علمتُ أن موتي سيكون حلاًّ لمشاكل تركيا لاخترت أن أموت في اليوم ألف مرة. ولكي لا أعطي مبررًا لمن يريد أن يغتال أمن تركيا وسلامها واستقرارها، فسأدفن أشــواقي في أعماق قلبي وأبقى هنا مزيدًا من الوقت.

hiramagazine.com

الدعم اللازم لتطوير الديمقراطية، والحقوق والحريات الأساسية وما شاكل ذلك، علمًا بأننا ندعم كل حزب يسعى إلى إنهاء الممارسات غير الديمقراطية وإحلال ثقافة الديمقراطية التعددية. من هذا المنطلق نقول، إن التحزّب الأعمى شيء، ومؤازرة الإجراءات الديمقراطية شيء آخر. نحن نقف اليوم في المكان نفسه الذي وقفنا فيه بالأمس. أما من بدّل مكانه فهو مَن يجب النظر إليه. تركيا مع الأسف، بدأت تنفصم عن العالم وتنعزل. إن دولةً كتركيا، إذا فقدت ثراءها الديمقراطي وانكفأت على ذاتها، لا تضرُّ شعبها فقط؛ بل تضرُّ كلَّ مَن اعتبرها نموذجًا مثاليًّا له، وعلّق عليها آماله.

س: هناك من يقول إن "الخدمة" خرقت الطاعة لولي الأمر، فما تعليقكم؟

الطاعة لأولي الأمر، لا تعني السكوت حيال أخطاء الإداريين والتخلي عن الحق والحقيقة. ثم إن مهمة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" لا تمارَس على المواطن العادي الذي يمشي في الشارع فقط، بل تشمل الجميع. إن مجال سياسة الشأن العام مجال اجتهادي، وليس من أصول الدين الثابتة التي لا تقبل الاجتهاد، وإن الاختلاف في مجال اجتهادي أمر طبيعي للغاية. وليس بالضرورة لجماعات خدمية أو لأبناء جماعة واحدة أن يفكروا بنفس النمط من التفكير في موضوع واحد، ويتحركوا بنفس النمط من التحرك في قضية واحدة. أما إذا كنتم تعيشون في نظام ديمقراطي، فلكم الحق في أن تعبروا عن وجهة نظركم بكل حرية، وإلا فإنه نظام لا يتوفر فيه الحد الأدنى من شروط الديمقراطية. وإن ممارسة ضغوطات سلطوية استنادًا إلى مفاهيم دينية، قد يؤدي إلى نتائج سياسية وقانونية لا تُحمَد عقباها. في واقع تركيا، هناك نمط سياسي يزداد سلطوية يومًا بعد يوم، أضف إلى أنه يمارس ضغوطات على الناس ويغلّف هذه الممارسات بأغلفة "دينية".

للأسف الشديد كانت القضية في منتهى البساطة، حيث طُرحت للنقاش بعضُ التصرفات السلبية التي بدت في جانب السلطة التنفيذية، وكان بالإمكان مناقشتها وتلافيها، ولكن ضُخّمت المسائل، وفُسّرت خطأ، وحُمّلت من المعاني ما لا تحتمل، وتم إعلان حرب عقدية ضد جماعة معينة وأعلن نفير عام ضدها، حتى إنهم أوصلوا الموضوع إلى حملة إبادة جماعية

وحملة تكفيرٍ منظَّمة ضدها.

هؤلاء الذين يهتفون في وجوهنا أن "لا تثيروا فتنة"، أليس من واجبهم أن يُسدُوا النصيحة نفسها إلى القائمين على أمر الحكومة والذين اعتادوا إمطار الأبرياء بالشتم والإهانة في الساحات العامة؟ إن أناسًا لا يجرؤون على إسداء أدنى نصيحة، بل لا يجرؤون حتى على أن يومئوا إيماءة نصح لرجال الحكومة، ناهيك عن توجيه انتقاد، لا تعني أقوالهم سوى ضربات مدمرة لهذه الحركة المباركة، التي أصبح -للأسف- تحقيرها وإهانتها أرخص بضاعة وأسهل عمل.

س: لقد دعمتم حكومة العدالة والتنمية سنوات عديدة، البعض يرى أن نزاعكم يعود إلى خلافات في حلّ الأزمة الكردية، هل أنتم ضد عملية السلام في المسألة الكردية؟ وكذلك موضوع سفينة "ماوي مرمرة"، فما تعليقكم؟

سبق أن قلتُ لم نكُن في خطّ واحد بالكامل مع أي حزب سياسي في أي وقت من الأوقات، مهما كان ذلك الحزب. لقد اعتبرنا تأييد الإجراءات الصحيحة -أيًّا كان صاحبها- واجبًا إنسانيًّا. بناء على ذلك في استفتاء (٢٠١٠) أدليتُ بكلمات لم يسبق أن قلتُها حتى ذلك اليوم؛ قلت إنه استفتاء من أجل الديمقراطية، وعلى الجميع أن يقول "نعم" للتغيير، أي إن مجلس القضاء الأعلى والمدَّعين العموميين ينبغي أن يتشكل وفق إطار ديمقراطي.

أجل، لكن لم أكُن أقول تلك العبارات لأول مرة، بل قبل ٢٠ عامًا سبق أن قلت "الديمقراطية مرحلة ينبغي أن لا نرجع عنها"، فثاروا في وجهي وأقاموا قيامة أيضًا، هؤلاء الذين يكتبون اليوم ضدّي، فاحتجُّوا قائلين: "ما معنى هذا الكلام؟ وهل من صلة بين الإسلام والديمقراطية"؟ ولكن فيما بعد قالوا أكثر مما قلت وذهبوا في ذلك بعيدًا، وقالوا إنه يمكن التفكير في أنماط أخرى كذلك.

من ثم فتشابُه المواقف مع حزب ما، لا يعني أننا في خط واحد، ولكن إذا رأينا أنهم يمثّلون في إجراءاتهم جزءًا من المعقولية، المعقولية من الناحية الحقوقية، والمعقولية من الناحية الديمقراطية، والمعقولية من ناحية خدمة الأُمَّة، والإيجابية في بناء علاقات طيبة مع دول الجوار، فقد نبدو متشاركين معهم في هذه المواقف، وقد نظهر معًا في نفس الصورة. أما الأصل، فإنه لم يكُن لنا أي صلة مع أي حزب سياسي ما عدا التصويت في الانتخابات، ولم يكن لنا أطماع في السلطة، ولم ندخل في مساومات سياسية مع أحد أبدًا، وإلا فلو أردنا ذلك لوجَّهْنا أناسًا في ذلك الاتجاه، ولشكّلوا العمود الفقري لذلك الحزب، ولكانت هناك أصوات أخرى، لكننا لم نرغب في ذلك قَطّ، لم يكن لنا طموح سياسي أبدًا.

نحن حاولنا وبإخلاص تقديم الدعم اللازم لتطوير الديمقراطية، والحقوق والحريات الأساسية وما شاكل ذلك، علمًا بأننا ندعم كل حزب يسعى إلى إنهاء الممارسات غير الديمقراطية وإحلال ثقافة الديمقراطية التعددية. لذا نقول: إن التحزّب الأعمى شيء، ومؤازرة الإجراءات الديمقراطية شيء آخر.

عملية السلام في المسألة الكردية

أكدتُ مرارًا أن مكان المسلم إلى جانب الصلح دائمًا، فالمسلم رمز الصلح والسلام. الحقيقة أن مشاكل

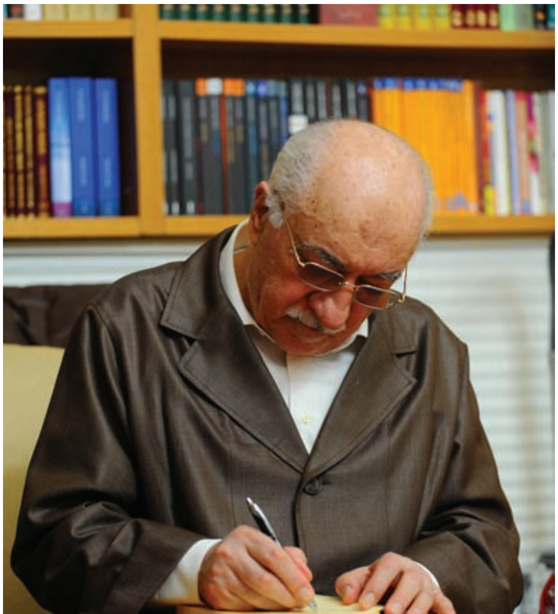

hiramagazine.com

المنطقة (جنوبي شرقي تركيا) تلك قد تراكمت عبر عقود، وقد كان السعي لحلّها يتم بالسلاح دائمًا، وبطبيعة الحال، كبُرت المشكلة وتفاقمت. أما الآن، فقد دخلنا في مرحلة صلحٍ وتهدئة، ويجب أن لا نعطل هذه المرحلة، لأنها فرصةٌ كبيرة لكي يعيد الطرفان النظر في الأخطاء التي ارتُكبت، وينسوا العداوة فيما بينهم.

نحن كمجتمع مدني دعمنا عملية السلام قبل الحكومة بزمن طويل. ما يقوم به هذا الفقير مجرَّد تشجيع. سبق أن قدمت للحكومة مقترَحات مكتوبة، قلتُ فيها إنه يجب بسْط أجنحة الرعاية على المنطقة؛ يجب رعاية المنطقة على الصعيد التربوي والصعيد الصحي والصعيد الديني والصعيد الثقافي... إلخ. عليكم أن تشملوهم برعايتكم، لأن الناس هناك تَعرَّضوا لمظالم كثيرة، بادِرُوا، وإلا فسيضخِّمون المشاكل هناك، ويورِّثونها الأجيال القادمة. ولكن للأسف لم يُولِ أيٌّ منهم الموضوع اهتمامًا. وعند ذلك شجع هذا الفقير الإخوة والأصدقاء والمحبين والمتعاطفين على العمل، فأسَّسوا مدارس عديدة ومعاهد كثيرة لإعداد الطلاب للجامعات والثانويات، وحاولوا أن يقطعوا طريق الصعود إلى الجبال عبر إقامة أنشطة تربوية. هذا ما حدث فعلاً.

ولكن الغريب أنه لجأ البعض إلى تشويه سمعتنا وروَّجوا أننا ضدَّ عملية السلام. كلاَّ، أبدًا، ولكن مقاربتنا لحل المسألة كانت مختلفة، فنحن ارتأينا أن يكون الحلّ من خلال التربية والتعليم، ومن خلال تأسيس روح التوافق والاتفاق، وكذلك من خلال استثمارات اقتصادية تساعد على إزالة الفقر في المنطقة، وسارت الأنشطة في ذلك الاتجاه بالفعل. ولم تقتصر هذه الأعمال على الداخل التركي، بل انتقلت إلى شمال العراق كذلك، والإخوة أقاموا هنالك نفس الخدمات. أنا لم أذهب ولم أرَ المنجزات شخصيًّا، ولكن ما تمَّ هناك عمل ملحميّ بحقّ.

إننا كأمة نعاني من ثلاث مشاكل كبرى، وقد أشار إليها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي قبل قرن من الزمان، وهي: الجهل، والفقر، والتفرقة. وقد نتج عن هذه المشاكل؛ اليأس، والحيلة، والغدر، وعدم الثقة. وبالتالي يجب أن نتناول كل هذه المشاكل في منتدى مشترك وأرضية توافقية، ولا يمكن للمعالجات التكبّرية أو النظر من عَلٍ أن تحل هذه المشاكل أبدًا. وإذا كانت هناك رغبة في إيجاد حل وسط، فلن يتأتى ذلك إلا عبر مقاربة توافقية تشمل برعايتها كافة أجزاء المنطقة وكافة أبنائها مهما كانت أفكارهم واتجاهاتهم وانتماءاتهم. يجب أن لا نمارس الإقصاء على أحد، ينبغي أن نلتقي على أرضية توافقية مشتركة مع الجميع، السياسي منهم وغير السياسي. علينا أن نتيح الفرصة -لأبناء تلك المنطقة- لكي يتمكنوا من حلّ مشاكلهم بأنفسهم. وإذا ما وقع تباطؤ أو تهاون في هذه الأمور، فأخشى أن تتوقف مسيرة الحل وتثور المشاكل من جديد. ينبغي أن نعمل على إدخال الطمأنينة والأمن والسعادة والاستقرار في نفوس أبناء المنطقة. علينا أن نسعى إلى توفير مناخ آمن يتيح إمكانية التعايش السلمي لجميع أبناء المنطقة، بكردها وسنيّها وعلويّها وعربيّها وسريانيّها كأنهم أعضاء أسرة واحدة.

حقيقة الأمر أن افتراءاتٍ تُلصَق بالخدمة، وتَحدُث تجاوزات واعتداءات، ورغم ذلك فالصواب الذي آمنَّا به وارتأيناه، هو أن نقف كما وقف جلال الدين الرومي؛ إذ كانت إحدى رجلَينا في قلب عالَمنا الفكري وصُلْب ثوابتنا وغايتنا السامية، والرِّجْل الأخرى فتحناها للإنسانية كافةً واحتضَنَّا الجميع. هذه هي الفلسفة التي نؤمن بها، هذا خُلُقنا وهذه هي رؤيتنا إزاء الجميع، جميع الناس. ومن يعرفْ هذا الفقيرَ عن قُرب يشهد على ذلك يقينًا.

لو وقعت "ماوي مرمرة" اليوم لأبديت الموقف نفسه

فيما يتعلق بادِّعاءات سفينة "ماوي مرمرة"، فعَقِبَ حوار أُجرِيَ معي سألوني: "ما تقييمكم للموضوع؟" قلت: "حبَّذا لو استُخدِمَت الدبلوماسيةُ إلى حدِّها الأخير ولم يُلجَأْ إلى العنف، لأن ذلك سيؤدِّي إلى مشكلات اجتماعية ومضاعفات أخرى". لا أدري كيف رَفعت الجريدة كلماتي إلى المانشيت، فكانت التفسيرات في تركيا مختلفة، أي كأنني وقفتُ إلى جانب آخرين ضد

hiramagazine.com

إخوتنا وإنساننا. ولكن لا، إنما أبديتُ قناعتي تلك حتى لا تحدث مشكلات أخرى. ولو حدث الشيء نفسه اليوم لأبديت نفس الملاحظات. في رأيي ينبغي أن تُستَخدَم الديبلوماسية حتى النهاية، وينبغي أن لا يُدفَع الناسُ إلى الجبهة لتُسفَك دماؤهم وتُزهَق أرواحُهم. هذا ما أردتُ أن أقوله حينئذ.

س: يتهمون حركة الخدمة بأنها عصابة إجرامية، بل هناك ادعاءات بأن المسؤولين يستعدون للقيام بتحقيقات ومداهمات ضد مؤسسات الخدمة.

مع الأسف، تقال أشياء كثيرة ضد الخدمة بغضب وعنف وكراهية. أعتقد، لم تبق إهانة في هذا الصدد إلا وقيلت، وفي الوقت نفسه، تم توجيه اتهامات جائرة وغير منصفة على شاكلة تنظيم، عصابة، ثم بعدها تُعطَى التوجيهات في محاولة للتأثير على القضاء. وقد صار هذا من الوضوح بحيث تم التصريح في الميادين الانتخابية بتحضيرات لفتح دعوى قضائية. حسنًا، إذا لم يكن هناك جريمة أصلاً، وإذا لم يثبت وجود جريمة رغم لجوئهم إلى كافة الوسائل للكشف عنها، فهل يمكن أن نتوقع عدالة في ظل حالة من التعسف الجائر لدفع سلطة القانون إلى اختلاق جريمة وأدلة لجريمة؟ إن الادعاء الوهمي والغامض بوجود "دولة موازية"، يمكن أن يوجَّه إلى كل شريحة أو طبقة في المجتمع. أعني، أن توجيه الاتهام إلى أفراد يعملون في أجهزة الدولة بسبب انتمائهم العقدي، أو الأيدولوجي، أو الطرائقي، أو الحزبي، عملٌ لا نهاية له. فإن أعلنتم اليوم جماعةً من الجماعات أنها "موازية" ووصمتموها بـ"العصابة"، فسيظهر في يوم آخر شخص آخر، ويدعي نفس الادعاءات على شرائح أخرى من المجتمع. نعم، يُحتمَل أن يُتَّهَم يومًا جميعُ الموظفين في الدولة بـ"الدولة الموازية"، بسبب تعاطفهم مع مجموعة اجتماعية، سياسية أو دينية. حتى هؤلاء الذين تلوك ألسنتُهم هذا الموضوعَ بكثرة اليوم، ربما غدًا سيتعرّضون إلى اتهامات مماثلة، لا ضمان لذلك. إذا تُرك الناس تحت الشبهة بمثل هذه الاتهامات، فعند ذلك لن يبق نظام، ولن تبق عدالة. وأؤكد وأقول إذا لم يُصغِ الموظَّف في الدولة إلى كلام مديره، فإن جزاء

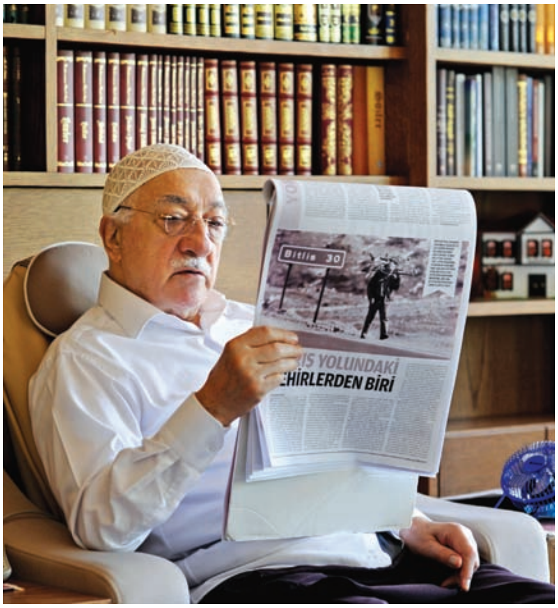

ذلك معلوم في القانون، إذ يعاقَب الموظف ضمن نطاق القانون. ولكن إذا حُرِّف الموضوع عن مجراه القانوني، وتم تصنيف آلاف الناس ونَفْيُهم إلى هنا وهناك بناء على قوائم سوداء زائفة، ثم رُفعت قضايا ضدهم ظلمًا، فهذا أمر لا يغفره التاريخ.

إن الضغط على القضاء، وفتح الدعاوى قسرًا، ظلم مضاعف لن يتركه الضمير المجتمعي بدون حساب. ثم إنه لَمن الواضح جدًّا، أنه لا يمكن الحصول على نتيجة قانونية من قضية ملفّقة. أضف إلى ذلك، إذا اتهمتم أبناء هذا الوطن -الذين جعلوا احترام القانون نمط حياتهم- بالعصابة، حينئذ تُسألون: منذ ١٢ سنة وأنتم تعملون مع هؤلاء الناس وتَصِفونهم بالطيبين.. فماذا حصل حتى انقلبوا في نظركم فجأة بعد تحقيقات الفساد والرشوة إلى أناس مجرمين؟ يجب أن لا ننسى قوله تعالى والذي يتردد كل جمعة في الخطبة: "إن الله يأمر بالعدل..."، أيْ يأمر بأن لا يؤكَل حقُّ العباد، يأمر بأن لا يُعتدى على حقوق الناس.

س: في مؤتمر عقده رئيس الوزراء في أنقرة مع السفراء الأتراك خاطبهم قائلاً: "اذهبوا وبيّنوا حقيقة هذه العصابة للعالم"، وصدرت أوامر للقيام بتشويه صورة مدارس الخدمة المنتشرة خارج تركيا. فما تعليقكم؟

كلما تردد إلى مسامعي شيء من محاولات تشويه

hiramagazine.com

صورة الخدمة في كافة أرجاء العالم، تفطّر قلبي ألمًا، وتوجّهتُ إلى الحق ﷻ بالاستغاثة. مع الأسف، شهوة التخريب تجاوزت حدود الإنصاف. هذه المؤسسات أنشئت بتضحيات أهالي الأناضول الجسيمة. وقد شاهد معظم فئات الشعب التركي هذه المدارس؛ اليميني، واليساري، والقومي، والمتدين، واللاديني... مؤيدو حزب العدالة والتنمية، وحزب الشعب الجمهوري، وحزب الحركة القومية، وأنصار حزب الاتحاد الكبير، وحزب السعادة... معظم شرائح المجتمع... تابعوها بأم أعينهم، ولم أسمع يومًا مَن يقول مِن هؤلاء: "هذه المدارس مضرّة، ويجب إغلاقها". إن محاربة هذه المدارس لا يمتّ إلى المنطق بشيء لا من حيث المعايير السياسية ولا الوطنية.

إخواننا الذين أسسوا تلك المدارس، أسسوها دون رغبة في منفعة مادية أو معنوية. استصحبوا معهم إلى تلك البلاد حبَّ أهل الأناضول وسخاءهم.. استصحبوا تسامحهم.. استصحبوا قيمنا الإنسانية وأخلاقنا السامية. لذا فإن تجاهُل خدمات هؤلاء الناس الذين حملوا قيمنا، وإيماننا، ولغتنا، وثقافتنا إلى كل أرجاء العالم، ليس إلا جحودًا للمعروف وإنكارًا للجميل. وإن السلام العالمي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال تعارف الشعوب وفهم بعضها البعض.

في العام الماضي ذكروا ١٦٠ دولة فُتحت فيها مدارس، أي أقيمت معها جسور الصداقة وصلة المحبة. ورأينا ذلك في أولمبياد اللغة التركة والثقافة بصورة باهرة، ولا أحد يرفض هذه الخدمات، بل يقولون إنها رائعة. نصحيتي للمسؤولين هو لا تغلقوا هذه المدارس، بل خذوها واعتنوا بها، وإذا أردتم فاسحبوا المدرِّسين الحاليين منها. سبق أن قلت الشيء نفسه للجنرال "جويك بير" في انقلاب ١٩٩٧، كما أرسلت إلى المسؤولين الذين يحكمون اليوم أخبارًا مماثلة مِرارًا. هذه المدارس رمز انفتاح تركيا على العالم، وقد سبق لأُمَّتنا في عهود مختلفة أن انطلقت في مثل هذه المبادرات لكي تنشر القيم الإنسانية النبيلة، وهذه واحدة من تلك المبادرات. ها قد نشأ أفراد في أكثر من ١٦٠ بلدًا يفعلون ما تفعله السفارات وممثلو الدول. هذه قضايا في غاية الأهمية، لا سيما في عالَم العولمة اليوم. فلا تغلقوا هذه المدارس بدافع الغيرة والحسد، أو لأن البعض ينسبها إلى فلان

أو عِلاّن، بل اشملوها برعايتكم؛ أي خذوها، لتكن لكم، عيّنوا أنتم المدرّس والمدير، ولتواصل نشاطها. فكما أن العساكر لم يعودوا بجواب إيجابي قبل نحو ١٧ سنة، لم يعُد مسؤولو اليوم بجواب إيجابيّ كذلك. فنحن منفتحون للخيارات كافةً.. هذه الخدمات واجب ينبغي القيام به إكرامًا للمعنى الإنساني، وأيًّا كان القائم بها فمرحبًا به. هذه خدمة طيّبة نثر بذورَها الأولى هؤلاء الإخوةُ والمُحِبُّون والمتعاطفون. وهي هي رؤيتنا، لم تتغير: "انثر البذور أنت، ثم اذهب، ودع أيًّا كان يقطف ثمارها، أيًّا كان يجني الثمرة. هذه هي فلسفتنا. لا نحمل سوى غاية واحدة؛ القيام بما ينبغي لإقامة علاقات طيبة بين أُمَّتنا والبشرية كافة. ولن نتخلف عن السير نحو هذه "الغاية الحلم"، سنواصل السعي قُدُمًا، إكرامًا لأُمَّتنا وإكرامًا للإنسانية.

إنه لَيحزنني أن أرى المساعي الملحّة للقضاء على هذه الخدمات الطيبة، أو تشويه صورة هذه الخدمات أمام العالم. ولكن رغم كل شيء سنستمر في احترامنا للجميع، لأن هذا هو أدبنا وهذه هي أخلاقنا، هكذا كنا، وهكذا سنبقى. لن نؤذي أحدًا ابتغاء مكاسب دنيوية فانية ولن نجرح قلب أحد، بل سندعو الجميع إلى رحاب المحبة؛ سندعو، وسنبقى متمسكين في علاقتنا مع أمتنا بكلام الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي الذي يقول : "لقد سامحتُ وصفحتُ عن كل من كان سببًا فيما عانيت منه من أذى وإهانة وتعذيب. لم أذق طوال عمري البالغ نيفًا وثمانين سنة شيئًا من لذائذ الدنيا. قضيت حياتي في ميادين الحروب وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد. لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه. عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونُفيتُ وشُرّدتُ في أرجاء البلاد كالمجرمين. وحُرمت من مخالطة الناس شهورًا في زنزانات البلاد.. تعرضتُ لإهانات متنوعة. مع ذلك أعلن أنني سامحت وصفحت عمن فعل بي ذلك". نعم، لقد عاهدتُ نفسي كمؤمنٍ، أن أحمل هذه المشاعر؛ لن أقاطع أحدًا، ولن أحمل ضغينة في قلبي لأحد.. عاهدت أن أستقبل الموت باسمًا، عاهدت نفسي أن أعتبر الجفاء الصادر من الجلال، والوفاء الوارد من الجمال شيئًا واحدًا.

ووصيتي لجميع إخواننا الذين يبذلون الغالي والنفيس في المدارس المنتشرة في كل أنحاء العالم ألا يهِنوا، ولا يحزنوا، ولا يخالط اليأسُ قلوبهم. وإن هذه الخدمات الحيوية التي يقدمونها في سبيل هذه الأمة، في سبيل راهنها ومستقبلها، بل في سبيل كافة الإنسانية، سوف تواصل تقدّمها بإذن الله وعنايته، وسوف تستمر القافلة في مسيرتها إلى الأمام. ولا يمكن أن يوقف قافلةَ الأخيار -التي تسير بلطف الله وكرمه- لا الافتراءات ولا محاولات التشويه. وكل إنسان يحمل قلبًا صافيًا وضميرًا نقيًّا في أعماقه، سوف يرى ببصيرته حقيقة تلك الافتراءات.

إني أرى خطورة كبيرة في حدة خطاب أعضاء الحكومة؛ حيث يؤدي إلى التفريق بين شرائح المجتمع ويزرع الكراهية.. فهذا لعب بالنار.. فهل يعقل أن يحرّض الأب أفراد أسرته ضد بعضهم بسبب رؤاهم المختلفة؟ نحن أسرة كبيرة تمتد جذورها إلى مئات السنين، لا يليق بنا أن نتخذ من أفكارنا المتعددة وانتماءاتنا المتنوعة ذريعة لتفجير صراعات فيما بيننا. ينبغي على الجميع أن يحترم آراء الآخرين. لا يصح أبدًا احتكار حرية الرأي والتعبير في فئة بعينها لأنها تمتلك السلطة. فكما يحظى صوت الأغلبية بالاحترام والتقدير، فكذلك يجب أن تنال كل فئة شعبية -مهما كان عددها- نصيبها من الاحترام عينه. وإذا ضيّقتم الخناق على المجتمع، فهذا يعني أنكم تعملون على تفجير أحزمة الزلازل المجتمعية وتغتالون وحدة المجتمع، وهذا ثمن باهظ، يعزّ علينا انجرار البعض إليه مقابل مصالح سياسية آنية.

س: هل ستعودون إلى تركيا؟ هل من مخاوف؟

أشعر بأن بقائي هنا أفضل من الناحية الصحية. وأخشى من أن تستغل بعض الأوساط عودتي إلى تركيا ذريعة لرفع حدة التوتر السائدة حاليًّا إلى أسوء مما هي عليه الآن. لقد تعرضت لآلام كثيرة في انقلاب ٢٨ فبراير ١٩٩٧، تعرضت لمظالم عديدة على يد السلطات القضائية التي كانت تعمل بتوجيه من السلطات

hiramagazine.com

العسكرية، ثم تعرضت لافتراءات وتشويه. في الحقيقة كانت اتهامات لا أصل لها ولا سند ولا دليل.

للأسف الشديد الافتراءات نفسها توجَّه إليّ اليوم عن طريق الإعلام. ومن ثم في مثل هذه الظروف أفضّل البقاء هنا نزولاً عند نصحية الأطباء. لو علمتُ أن موتي سيكون حلاً لمشاكل تركيا لاخترت أن أموت في اليوم ألف مرة. ولكي لا أعطي مبررًا لمن يريد أن يغتال أمن تركيا وسلامها واستقرارها، فسأدفن أشواقي في أعماق قلبي وأبقى هنا مزيدًا من الوقت.

س: سبق أن وُجهت إليكم دعوة من رئيس الوزراء لكي تعودوا إلى تركيا، فهل كنتم تتوجسون من الدعوة؟

حاولت أن أحسن الظن بمن طلب مني أن أعود. وقد طُلب ذلك مرارًا من قبلُ. يومها لم أكنْ غافلاً عن النوايا الحقيقية لهؤلاء الطالبين. ولكن لم أتخل يومًا عن أدب اللياقة وحسن الظن بأهل الإيمان. قبل كل شيء، أنا فرد من الناس، مؤمن من المؤمنين. لم أحلّق عاليًا أبدًا، بل كنت أمشي -كأي إنسان عادي- على الأرض بتواضع. أمضيت جميع حياتي على هذا النحو. حاولت أن أكون عبدا لله. ولا أستبدل مقامَ العبودية بأي مقام آخر، وأرجو أن ألقى الله على هذه الحال. ليس لي أدنى علاقة مع أي جهة خارجية، ويستحيل أن يكون ذلك. ولكن الذين يلهثون وراء الجاه والسلطة والمقام والمناصب الدنيوية الفانية هم الواقعون في شباك القوى الخارجية أصلاً. هؤلاء الذين يحملون في دواخلهم روح الاستبداد وهوس الهيمنة على الدولة والتشبّث بالسلطة إلى حد الجنون، عندما قويت شوكتهم وازدادت سطوتهم، بدأوا يرون في كلّ مجموعة -ليس لها حسابات سلطوية، بل تفر من تلك الحسابات إلى التفكير بكسب مرضاة الله والفوز بالآخرة- خطرًا على أنفسهم وعلى سلطانهم. ومهما حاولوا أن يقنعوا الرأي العام بأن تلك المجموعات خطر على الدولة، ولكن غرضهم الأساسي أنهم يرونها تهديدًا لمخططاتهم الشخصية.

إنه حتى في أشد البلدان تخلّفًا عندما يُحكَم على الناس فإنما يحكم عليهم بناء على أقوالهم وأفعالهم. وجميع ما قلتُه وما فعلتُه طيلة خمسين عامًا قد تم على مرأى ومسمع من المجتمع والدولة. فلو كان لدى إنسان حسابات سرية، فهل يستطيع إخفاءها طيلة خمسين عامًا من دون أن تتسرب ولو عن طريق الإيماء والإشارة والتعبير الضمني؟

وفيما يتعلق بموضوع عودتي، فإنني سأقرر ذلك بعد التشاور مع إخواني الذين أثق بصدقهم وأمانتهم، وليس بناءً على أفكارِ مَن كان بالأمس شيئًا، وأصبح اليوم شيئًا آخر. وكما قلتُ سابقًا، إذا قررتُ العودة، فلن تكون عودتي مثل فلان أو علّان[١]، بل ستكون عودة تليق بابن رامز أفندي.. ابنه البسيط الذي كان يعمل إمامًا في مسجد "أُوجْ شَرَفَلِي"[٢].

س: كيف تخرج تركيا من الأزمة الحالية؟

في مثل هذه الفترات، يجب اللجوء إلى المولى ﷻ، وطرْقُ بابه، والتضرعُ إليه. فمَن لا يخشى عاقبتَه، يُخشَى من عاقبته. إن الذين يحسبون أنفسهم قد ضمنوا آخرتهم واطمأنوا إلى عاقبتهم بينما يشككون في إيمان غيرهم، إن هؤلاء قد أوقعوا أنفسهم في خطر كبير. فسيدنا عمر ﷺ كان يرتجف خوفًا على عاقبته، وعندما كان يوازن بين حسناته وسيئاته كان يقول "وددتُ أني سلِمتُ من الخلافة كَفافًا، لا عليّ ولا لي".

إن تركيا اليوم في أمس الحاجة إلى مناخ جديد يساعدها على اجتياز الأزمة التي تعاني منها. وإنه لمن الضروري جدًّا إعداد دستور مدني جديد يضمن الحقوق والحريات الأساسية للجميع. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، يجب أن تزداد المطالبات المجتمعية، كما يجب على الشخصيات المسؤولة والمؤسسات المعنية أن تزيد من إلحاحها في إخراج دستور يتوافق مع مبادئ الحقوق العالمية. ولكن مع الأسف الشديد يبدو أن مبادئ الدولة الديمقراطية وسيادة القانون اليوم قد أصيبت بجروح بالغة. وإن العديد من المثقفين والمفكرين ذهبوا في تحليلاتهم إلى ما ذهبت إليه. وإذا ما ابتعدت تركيا عن جوهرها وقيمها الذاتية وعن مجتمعها، فإن ذلك سيؤدي بها إلى عزلة فادحة عن العالم.

إن دور الأفراد والمجتمعات اليوم، لا يقل أهمية عن دور الدولة نفسها. وإنه لمن المستحيل أن تنفذوا مشروعًا

hiramagazine.com

بالإكراه من أعلى بتلقين فوقيّ أو بضغط سلطوي. ففي بداية القرن العشرين كان بديع الزمان سعيد النورسي يقول: "الغلبة على المدنيين تتم عن طريق الإقناع، لا الإكراه". ومن ثم فإن الضغوطات التي تمارَس على المجتمعات لا يمكن أن تثمر نتائج باقية. علينا أن نعالج المشاكل بصبر وتروٍّ ويقظة وتبصّر وفراسة.

س: ما توصياتكم لمن يحبكم إزاء هذه الافتراءات والمضايقات؟ ماذا ينبغي أن يفعلوا برأيكم؟

أقول لإخواني إنكم إذا تعاملتم مع الأزمة الراهنة بالرزانة والجدية التي تليق بأدبكم، وصمدتم أمام العواصف صابرين متوكلين، فلابد أن يحل اليوم الذي ينتصر فيه العقل السليم. وحينئذ سيأتيكم بعضهم نادمًا لأنه اقترف إثم الغيبة في حقكم، والبعض الآخر خجِلاً لأنه كان مع المتورطين في الافتراء عليكم، ولكنكم ستقولون لهم "لا تثريب عليكم اليوم"، وستفتحون لهم قلوبكم على مصاريعها، ولن تتركوهم يشعرون بخجل الذنب الذي ارتكبوه. لقد حصل هذا في التاريخ مرارًا. ينبغي أن يكون شغلنا الشاغل -في هذه الفترة- أن نواصل في خدماتنا، وأن نزيد من سرعتنا، وألا نفكر بشيء آخر ونكتفي بالقول: "ستمضي هذه المحنة كما مضت شقيقاتها".

علينا أن نلتزم بالصبر إزاء ما حلّ بنا من ابتلاءات، وعلينا أن لا نتخلى عن نزاهة أسلوبنا مهما حصل. كثيرون هم من تعرضوا لألوان شتى من المحن في فترات مختلفة من التاريخ. الإمام الرباني، أبو الحسن الشاذلي، مولانا خالد البغدادي وأمثالهم من الأفذاذ تعرضوا لمحن كبيرة. أما محنة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي فهي ملحمة من ملاحم التاريخ. لم يبق أذى إلا ذاقه ولا مرارة إلا عانى منها. مقارنة مع هؤلاء العظام، لا نستحق أصلاً إلا أن نكون قطميرًا لهم. وبما أنكم اتخذتم سبيلهم سبيلاً لكم، ومنهجهم منهجًا لكم، فعليكم أن تستعدوا لكافة ألوان المحن والابتلاءات. لا يحق لنا أن نشكو أو نتذمر.. بل علينا أن نهتف ليل نهار ونقول: "رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولاً".. علينا أن لا نشكو ولا نعاتب القدَر

في قرارة نفوسنا لما ألمّ بنا، بل علينا أن نتحرى مرضاة الله في قيامنا وقعودنا على الدوام. والمصائب مؤقتة تمضي وتزول. ولكن حتى لو جاءت المحنُ وجرفتنا مثل تسونامي وأودت بحياتنا، فإذا كانت علاقتنا مع الله وثيقة، فسنكون قد فزنا بآخرتنا في نهاية المطاف. ولا شك أن عشّاق هذه الدعوة المباركة، ما لم يكونوا قد استهدفوا منها غرضًا دنيويًا، فسينالون ملكًا أبديًّا في العالم الآخر. لذا يجب على الجميع أن يثبت مكانه، ويراعوا الأوضاع والظروف، وأن لا يُلحّوا على السير في درب بعينه؛ بل حتى إذا سُدّت الطرق الرئيسية، عليهم أن يعملوا من أجل الوصول إلى المرتجى عبر طرق أخرى. أما المرتجى فهو خدمة القيم الإنسانية السامية وغرسها في القلوب. هؤلاء الرواد لم يقعوا في اليأس أبدًا، وعلينا أن لا نقع كذلك، علينا أن لا نفقد الأمل أبدًا. نحن على يقين بأن هذه الأجواء الكئيبة سوف تزول وتمضي بإذن الله وعنايته. ■

الهوامش

(١) لقد روّج السيد أردوغان وبعض المنحازين المتطرفين أن الأستاذ عندما يفكر بالعودة فسيعود مثل عودة الخميني إلى إيران أيام الثورة الإيرانية. (حراء)

(٢) هذا المسجد في مدينة أدرنة، حيث تولى الأستاذ وظيفة الإمامة لأول مرة أيام شبابه، ويشير الأستاذ إلى نكران الذات والتواضع. (حراء)

hiramagazine.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل
شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
أجير أشيوك

المخرج الفني
مراد عرباجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 5-20226134402+
الهاتف الجوال : 201098325549+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Turkiye
Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد – الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة.
هاتف: 201065523089+ - 201119482609+
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤–طرابلس–ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء – اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@woxmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

http://fgulen.com/ar http://www.herkul.org

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 5–20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+

www.daralnile.com

دار النيل

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

بطل الأحلام

أيا بطل الأحلام الحلوة... يا فارسي المحبوب!.. في هذه الأيام السود التعسة التي يسعى فيها الرياء والشهرة وحب المنصب والجاه إلى تشويه آمالنا المشرقة... نرجوك، نرجوك ألا تترك القلوب الظامئة إلى إكسيرك الباعث للحياة تعاني مزيدًا من شقاء الانتظار.

* * *

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
Mayis - Haziran 2014 Sayı: 42 Fiyatı: 7,5 TL.